AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00989 1650

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

ISITY

الجام

BR
146
S293
1950

عشرون قرناً

في موكب التاريخ

عرض موجز للحوادث الهامة فى تاريخ
الكنيسة المسيحية وسير
مختصرة لبعض الشخصيات
البارزة فى غضون
عشرين قرناً

بقلم

حبيب سعيد

صدر عن دار «الشرق والغرب»

S. P. C. K.

مكتبة الأنجلو المصرية

RSITY
الجام
270
Sp21t
٢٧٠
س ح ع
28439

القاهرة
مطبعة الكاتب المصرى — شركة مساهمة مصرية

فهرس الكتاب

صفحة

تمهيد . . . . . ز-م

القرن الأول :
اليهودية الضيقة — الوثنية الجامحة — أغناطيوس الانطاكى . . ١

القرن الثانى :
بدء النزاع بين رومية والشرق — مدينة الاسكندرية — شيعة
الغناطسة — مذهب المونتانية — بوليكارب أسقف أزمير . . ١٥

القرن الثالث :
اضطهاد ديسيوس ودقلديانوس وغيرهما من أباطرة الرومان —
النصر — انطونيوس والرهبنة ٢٩

القرن الرابع :
قرار قسطنطين الاسبراطور — المسيحية دين الدولة الرسمى —
اخطار النصر — دستور الكنيسة الجامعة — الأسقف أمبروز —
القديس أغسطينوس — هرطقة آريوس ومجمع نيقية — بعض
الشخصيات البارزة فى هذا القرن ٣٨

القرن الخامس :
بدء النزاع بين الغرب والشرق — انهيار الدولة الرومانية
الغربية — رومية تنازع القسطنطينية — بندكت ورهبنته . . ٥٥

صفحة

القرن السادس :
الامبراطورية الرومانية الشرقية — جريجوريوس العظيم — لمحة عن
المسيحية فى بريطانيا ٦٦

القرن السابع :
اللغات القومية فى الامبراطورية الشرقية — هرقل وانتصاراته —
يوستنيان — العرب والكنيسة الشرقية — العالم يوحنا الدمشقى —
كنائس المشرق ٧٥

القرن الثامن :
القبائل الجرمانية تعتنق المسيحية — كارل مارتل وبونيفاس —
بونيفاس الانكليزى أول أسقف على ألمانيا . . . ٩٣

القرن التاسع :
مشكلة الأيقونات — عهد شرلمان الكبير — الامبراطورية
الشرقية فى القرن التاسع — الراهبان كيرلس وميثودوسيوس —
البلغار ١٠٢

القرن العاشر :
نشأة الدولة الروسية — قصة دخول المسيحية إلى روسيا —
فلاديمير — ياروسلاف ١١٠

القرن الحادى عشر :
عهد الظلام فى أوربا — الوثائق المزورة — الكراسى البابوية
فى القرنين التاسع والعاشر — دبيب الحياة بعد النكسة —
رهبانية ديركلونى — إصلاح الأديرة والكنيسة — هلدربراند
أوجريجوريوس السابع. ١١٧

صفحة

القرن الثانى عشر :
الحروب الصليبية — البابا اينوسنت وملوك أوربا — القديس برنارد . ١٣٤

القرن الثالث عشر :
استمرار الصراع بين البابوية والامبراطورية — فرانسز الاسيسى — دومينيك — نشاط الرهبان — الرهبانية والطبقات المتوسطة — المدارس والجامعات — توماس اكويناس ١٤٣

القرن الرابع عشر :
انحلال البابوية — فساد الرهبانية — روح الاصلاح تختمر — طلائع المصلحين — كاترين ده سين ١٥٥

القرن الخامس عشر :
مجامع بيزا وكونستانس وبال — نهضة احياء العلوم والآداب — سافونارولا — طرق الاصلاح ١٦٣

القرن السادس عشر :
النهضة العلمية والاصلاح — البابوية فى هذا القرن — لوثر — كالفن — الاصلاح فى الكاثوليكية — اغناطيوس لويولا — فرانسز سافير — اليسوعيون — مجمع ترانت ١٧١

القرن السابع عشر :
الاصلاح فى انكلترا — جماعة الطهورين Puritans — الفرار إلى أميركا — يوحنا بنيان — القديس فنسان ١٨٧

القرن الثامن عشر :
النهضة العقلية — هدم نظام اليسوعيين — الدولة المطلقة السلطان — فكرة التسامح — جون وسلى والنهضة الروحية ٢٠٠

صفحة

القرن التاسع عشر :

الروح الرومانتيكية — الحنين إلى المسيحية التاريخية — انفصال الدولة عن الكنيسة ، والكنيسة عن الدولة — البعثات المسيحية — وليم كارى — روبرت موريسون — جون ويليميز — الكسندر مكاى — هنرى مارتن ٢١٢

القرن العشرون :

مراحل الدعوة المسيحية — اكرى الافريقى — اضطهاد الكنيسة فى العصر الحديث — اتحاد الكنيسة — كلمة ختامية . . . ٢٢٥

تمهيـــد

بزغ فجر المسيحية ، وكان علم النسر الرومانى يرفرف فوق البلدان الواقعة على ضفاف نهر الرين والدانوب فى الغرب ، ونهر النيل والفرات فى الشرق ، وفوق أكثر البـلدان الواقعـة فى حوض البحر الأبيض المتوسـط . وكانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها وعزها ، وازدهرت الحياة فى الأقاليم والولايات تحت سلطان حكومة مركزية رشيدة ، وخضع الجيش كله لارادة حديدية واحدة ، وساد السلام والأمن فى داخل الامبراطورية ، وإن يكن «سـلاماً رومانياً Pax Romana » فرضته القوة والبطش . ونشطت التجارة فى طرق ممهدة معبَّدة امتدت من الشرق إلى الغرب .

وإلى جانب العظمة الرومانية كنت ترى الثقافة اليونانية التى مالت إلى تحكيم العقل فى كل حقائق الحياة والعـالم ، وتعشقت الفن والجمال والشعر والفلسفة ، وجالت جولات صادقات حول وظيفة الدولة وواجباتها ، والحرية وسعانيها ، وواجبات الفرد وحقوقه . . .

وبينما امتاز الرومانى فى القرن الأول بالقوة المادية والطموح إلى العظمة والجاه وبسط النفوذ وسعة السلطان وتعبيد الطرقات ، كان اليونانى مثال الأناقة فى الصناعة ، والجمال فى الفن ، والتعمق فى الفلسفة العقلية .

ولقد مهَّد الرومانى — وهو لا يدرى — الطريق إلى المسيحية بشرائعه الحكيمة ، وطرقاته المعبدة ، وإدارته الحازمة ، وعبقريته السياسية ، ومرونته المدهشة ، كما مهدها اليونانى بعقليته الباحثة المنقبة ، وفلسفته العميقة ، وتفكيره الحر ، ولغته العذبة ، وميله إلى الاقناع والاقتناع ، وتعشقه طريق الحيـاة الجميلة والآداب الانسانية الرفيعة .

ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان ، والثقافة الذهنية عند اليونان ، قد أعوزها الخير الأسمى ، لأن انحلالا روحياً كان قد انساب إلى أنفس البشر . ذلك لأن الآلهة القديمة قد نزلت من فوق عروشها ، وخلت هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الايمان الساذج الذى اعتصم به القوم يوماً ، كذلك خلت السماء الأولمبية من آلهتها التى حفلت بها قديماً فى أشكال من الجمال المثالى الرائع وأوضاع من القوة الخارقة ، وأمست مجرد صور تتغنى بها الخيالات الشعرية ، ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس ، واستورد آلهة من الخارج مثل أوزيس وأوزيريس وعبادة الفرس .

وليس معنى هذا أن العالم الوثنى قد أضاع كل إحساس بحاجته للدين ، فاننا نلمح فى القرنين الأول والثانى من تاريخ الامبراطورية تطوراً فى النهوض الدينى، نتمثله فى أفاضل الفلاسفة والحكماء أمثال ماركوس أوريليوس وسينيكا ، وفى تجريد الآلهة القديمة من مظاهر بهائها ورونقها الخلاب ، واتجهت الفلسفة بقلوب الناس وأبصارهم إلى الاله الواحد الأسمى . وكأنما كانت تلك الفلسفة المعلم الهادى الذى أرشد العالم الوثنى إلى المسيح ، كما أرشدت الشريعة اليهودية شعب اليهود إليه . على أن الوحدانية التى مالت إليها تلك الفلسفة القديمة عجزت عن الحلول محل عقيدة تعدد الآلهة ، وفشلت فشلا ذريعاً فى إحياء عالم كان على وشك الفناء الروحى، ولم تزد الناس إلاَّ لهفة وشوقاً نحو الاله الحق الذى جهلوه .

أما عامة الشعب فقد اغرقوا فى خرافات وخزعبلات شتى . فلكل مدينة إلهها أو آلهتها ، ولكل حرفة أو تجارة ربُّها وحاميها ، ولحوادث الحياة مثل الميلاد والزواج آلهتها أيضاً . ونشطت بين البسطاء والجهلاء شعوذة السحرة والمنجمين والعرافين ، وكان أغلب هؤلاء من العنصر اليهودى . وفضلا عن هذا كله فقد اقتنع عامة الشعب بأن الاحتفاظ بالعبادات والنظم الدينية القديمة من مقتضيات بقاء الدولة وحفظ الأمن فيها ، فان حاد الناس عنها حاقت بهم المصائب والنكبات — وقد كان لهذه الفكرة أثرها فى اضطهاد المسيحية فيما بعد . على أن الفهماء والمثقفين لم يعملوا شيئاً لمناهضة هذه الآراء السائدة بين عامة الشعب ، لأنهم ظنوا أن الأديان القديمة تمثل دور رجال الشرطة ، وحسبوا هذه المظاهر الدينية الخارجية ضرورة لا غنىً عنها للعامة .

وقد حاول الأباطرة من أصحاب النفوذ والسلطان ، لأسباب وطنية ، تقوية هذه العبادات القديمة المألوفة وتحويلها إلى عبادة الدولة وعلى رأسها الامبراطور . وتطورت الفكرة فصارت « عبادة الامبراطور نفسه » ، وفشت فى كل أنحاء الامبراطورية ، ونصب لها كهنة رسميون تحت إشراف الدولة ، واقترنت بكثير من المظاهر الرسمية والحفلات والألعاب . وكانت تلك العبادة وطنية أكثر منها دينية . وقد تقزز المسيحيون الأُول من هذه العبادة وحسبوها خيانة لعهد الولاء لربهم ، وكان هذا الموقف باعثاً من بواعث الاضطهاد الذى عانوه فى العصر الأول .

***

هذه نظرة عجلى على العالم الوثنى — الرومانى واليونانى — عند بزوغ فجر المسيحية ، وهو العالم الواسع الذى أحاط بها . ولكن عالماً ضيقاً آخر كان له شأن مع المسيحية عند نشأتها ، هو العالم اليهودى. وقد خضعت ولاية اليهودية — فى فلسطين — للحكم الأجنبى منذ اجتاح نبوخذ نصر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. وصارت جزءاً من الامبراطورية الأشورية القديمة وخلفائها من بعد الفرس والاسكندر المقدونى . ولما تحطمت إمبراطورية هذا الأخير خضعت اليهودية لبطالسة مصر ، ومن بعدهم للأسرة السلجوقية فى انطاكية . على أن اليهود مع خضوعهم سياسياً لهذه الدول المتعاقبة ، ظلوا حريصين على شعائرهم ونظمهم الدينية . وكانت الأسر الكهنوتية الوراثية هى الطبقة الارستقراطية فى البلاد . عُنيت بالشئون السياسية ولم تُعن إلا قليلا بالشئون الدينية . وكانت وظيفة « رئيس الكهنة » مطمع زعماء الأمة لما كانت تدرُّه من المغانم المادية ، ومالابسها من النفوذ السياسى . وقد اشترك مع صاحب هذه الوظيفة ، فى إدارة الهيكل وتصريف الشئون الدينية وبعض المسائل السياسية ، هيئة — يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر الحكم اليونانى — من المستشارين والشرّاح القانونيين سمّيت مجلس «السنهدريم» قوامها واحد وسبعون عضواً .

وكان الناموس اليهودى قانوناً دينياً ومدنياً فى الوقت نفسه ، أشبه بالشريعة الاسلامية فى بعض بلدان العالم الاسلامى اليوم . وكان شراحه

والمجتهدون فيه — الذين أُطلق عليهم لقب «الكتبة» — قادة الشعب الدينيين . وكانت أساس اليهودية الأسفار المقدسة وما استنبطه أولئك الشراح والأحبار من أحاديث وأحكام لا عدّ لها ولا حصر . وتمشياً مع الرغبة فى الاستزادة من شرح الناموس وفهمه ، ومن الصلوات والعبادة ، قام المجمع اليهودى حيثما حلّت اليهودية . ولعل تاريخ إنشاء المجمع يرجع إلى عهد السبى . وكان المجمع مكاناً محلياً لاجتماع كل اليهود فى المنطقة التى وجد بها تحت رئاسة نفر من « الشيوخ » يتزعمهم رئيسهم . وكان لهؤلاء سلطة الحرم ومعاقبة المعتدين . أما عباداته فكانت فى منتهى البساطة ، يقوم بها أى عبرانى ، وإن كانت قد جرت أن يقوم بها عادة رئيس المجمع ، وشملت الصلوات وقراءة الناموس والأنبياء والشرح (العظة) والبركة . وبسبب هذه المجامع ، قلّت قيمة الهيكل فى حياة الشعب الدينية ، إلى أن انهار وتحطم فى سنة ٧٠ ب. م. دون أن يترتب على ذلك بالضرورة انهيار اليهودية .

وقد استقلّت ولاية اليهودية حقبة من الزمن من سنة ١٦٧ ق. م. عقب ثورة المكابيين إلى أن اجتاحها الرومان سنة ٦٣ ق. م. وفى عهد المكابيين انقسمت اليهودية أحزاباً دينية . فالحزب الارستقراطى السياسى الذى انضم إليه أُسر زعماء الكهنة عُرف بالصدوقيين . وكان حزباً عالياً لم يعبأ بالعقائد الدينية . وكانت أكثر نظرياتهم مستقاة من اليهودية القديمة المحافظة ، فتمسكوا بالناموس فقط ، دون الأحاديث والأحكام المستنبطة ، وأنكروا القيامة وخلود النفس . ومع نفوذهم السياسى لم يحظوا بحب الشعب لهم ، وهو الذى كره كل نفوذ أجنبى غريب ، واعتصم بالناموس كما شرحته التقاليد والأحاديث . وكان من أنصار هذا الموقف الشعبى حزب آخر أسموا أنفسهم الفريسيين ، أى الانفصاليين ، ومن هذا العهد يبدأ النضال الطويل بين الصدوقيين والفريسيين .

ولم يكن الفريسيون حزباً سياسياً ، وعلى الرغم من إعجاب كثرة الشعب بهم وميله إليهم ، ما كانوا على كثرة فى العدد . ذلك لأن اليهودى العادى لم يكن له حظ من التعليم ، ولا سعة من الوقت ، يسمحان له بالتبحر فى دقائق الشريعة وتفاصيلها ليكون فريسياً قحاً . وقد عُنى أولئك الفريسيون شديد العناية بالناموس ودقائقه وأحكامه ، وآمنوا بالأرواح الصالحة والشريرة

والملائكة والشيطان ، وبالقيامة بعد الموت ، وبالثواب والعقاب فى الآخرة . واشرأبت أعناقهم وتلهفت قلوبهم لتحقيق رجاء المسيا الموعود به ، وكانوا فى هذا كله على نقيض مع الصدوقيين .

وإن أولئك الفريسيين لجديرون بشئ من الاعجاب والتقدير ، فمن هذه الفئة تجنَّد أكثر أتباع المسيح الأولين ، وكان رسول المسيحية الأكبر — بولس — فريسياً . على أن الذى يعابون عليه نظرتهم إلى الدين كمجرد ظواهر خارجية وأداء فرائض يُجزون عنها خير الجزاء ، دون أن تقترن هذه الظواهر بالبر الداخلى الحقيقى وبالصلة بالله والأنس به . ثم انهم أخرجوا من المواعيد الالٰهية عامة الشعب الذين عجزوا ، بسبب ذنوبهم وتقصيرهم فى حفظ أحكام الشريعة ، عن بلوغ المستوى الفريسى الكامل ، وأبعدوا « الخراف الضالة » عن بيت إسرائيل . ولهذا دانهم المسيح بلواذع الكلم وقارص الألفاظ .

وقد كان هذا الأمل المرموق فى مجئ المسيا قبلة أنظار الفريسيين وعامة الشعب معاً ، وكان الباعث إليه الشعور القومى الحاد والايمان بالله . ويبلغ هذا الشعور ذروته فى فترات الارهاق والظلم ، فان هذا الرجاء لم يُشعر به إلا قليلا فى عهد المكابيين وهى فترة الاستقلال القومى ، ولكن لما اجتاح الرومان البلاد ، وأحس الشعب بوطأة النير الأجنبى ، قوى هذا الأمل مرة أخرى ، وتوقعت الأمة تدخلا إلٰهياً يمحق السلطة الرومانية الغاشمة بقوة المسيا الخارقة ، ويقيم ملكوت الله الذى تُبعث فيه اليهودية من جديد تحت حكم ملك بار من نسل داود ، ويعود أشتات اليهود من كل أنحاء الامبراطورية إلى الوطن القومى فى اليهودية ، ويبدأ العصر الذهبى فى تاريخ الأمة .

وكانت فلسطين موطن اليهودية ومهد المسيحية . على أنه كان لشتات اليهود فى أرجاء الامبراطورية أثر عظيم فى تاريخ المسيحية . وقد بدأ هذا الشتات منذ الغزو الأشورى والبابلى ، وازدادت هجرة اليهود من فلسطين فى حكم البطالسة وفى أوائل عهد الامبراطورية الرومانية . وقد قيل ان عدد المهاجرين من اليهود يعادل خمسة أو ستة أضعاف اليهود الذين بقوا فى اليهودية . وكانت لهم جاليات كبيرة العدد فى الأسكندرية ومدائن سورية وآسيا الصغرى ،

وقلما خلت منهم مدينة من مدن الامبراطورية كلها . وبسبب تعصبهم لعنصريتهم لم تتوثق بينهم وبين الشعب الوثنى الرومانى روابط من المودة ، على أنهم كانوا موضع احترام الحكام والولاة لبراعتهم فى التجارة وولائهم لدينهم واعتصامهم بالأخلاق السامية أحياناً كثيرة . وكانوا شديدى الرغبة فى اكتساب الدخلاء إلى دينهم بالحث والدعوة إليه ، وكانت يهوديتهم بسيطة خالية من التعقيد الفريسى الفلسطينى ، فنادوا بالله واحد أعلن ذاته فى أسفاره المقدسة ، ودعوا إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والايمان بالخلود والعقاب والثواب وبعض الطقوس الأخرى مثل حفظ السبت والختان والعبادة فى المجمع فى وضع خال من الطقسية المحكمة الدقيقة . فمال كثيرون من الوثنيين إلى دعوتهم هذه ، وأقبل إلى المجمع كثيرون من الدخلاء الأتقياء ، الذين غدوا فيما بعد نواة دعاة المسيحية الأولين .

وقد تأثرت يهودية الشتات بالفلسفة الاغريقية وخاصة فى مصر ، فترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية بمدينة الأسكندرية وهى المسماة بالترجمة السبعينية ، وامتزجت أيضاً فى الأسكندرية آراء العهد القديم الدينية بالآراء الفلسفية اليونانية وخاصة الأفلاطونية والرواقية . وكان أشهر أولئك الشراح الاسكندريين وأبعدهم أثراً العلامة اليهودى « فيلو » الذى اعتقد أن الكتاب المقدس أحكم الكتب جميعاً ووحى إلهى صادق ، وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقاً ، ولكنه بطريق الاجتهاد والتأويل والتخريج وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب فى الأفلاطونية والرواقية . وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد فى نشوء الاصطلاحات اللاهوتية المسيحية ، وفى دراسة الكتاب المقدس .

***

هذه نظرة عجلى على العالمين الرومانى واليهودى قبيل ظهور الدعوة المسيحية . وفى هذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية ، سنلقى نظرات خاطفة على تاريخ المسيحية فى العشرين قرناً التى سلخها هذا التاريخ المجيد من الزمن الطويل . وسنحاول أن نسجل فى كل قرن بعض الأحداث البارزة فى عرض

تاريخى موجز ، وترجمة مختصرة لشخصية أو أكثر من الشخصيات التى كان لها بعض الشأن فى تطور تلك الحوادث . ولا نـدّعى أن يكون هذا الكتاب المتواضع تاريخاً شاملا لأكبر حركة عرفها تاريخ البشرية ، فما هو إلا قطرات وشل تتحلب من جبل ، وما هو إلا نظرات طائر يلقيها من عل وهو يتنقل من دوحة إلى دوحة .

على أننا نأمل أن يسدّ بعض الفراغ الذى يحسّ به العالم العربىّ ، وهو يكاد يكون خلوًّا من المؤلفات الحديثة فى تاريخ الكنيسة .

المؤلف

و
ل
ا
ب
ا
إ
ا
ا
ا
ا
ا
أ
ا
ا
ا

القرن الأول

[اليهودية الضيقة ـ الوثنية الجامحة ـ أغناطيوس الانطاكى]

يبدا العصر الرسولى من يوم الخمسين . وكان التلاميذ الحواريون قد آمنوا أن موت سيّدهم لم يكن نهاية الأشياء ، وأن قيامته قد فتحت لهم فتحاً مبيناً . وقد بلغت هذه الاختبارات ذروتها فى يوم الخمسين ، يوم غادرهم السيد صاعداً إلى مجده ، بعد أن وَكل إليهم أن يكونوا خلفاء له فى بثّ مبادئه ، ودعوة الناس إلى طاعته والولاء له . ويُحسب يوم الخمسين عيد ميلاد الكنيسة وبداية عهد جديد للدعوة المسيحية فى العالم .

وبيّنٌ من تاريخ تلك الفترة أن الجماعة المسيحية فى أورشليم تكاثر عددها سريعاً ، وانضم تحت لوائها جمع غفير من اليهود الذين كانوا فى الشتات من قبل ، ومن مواطنى الجليل واليهودية ، ومن كهنة العبرانيين أنفسهم . وكانت تلك الجماعة فى أورشليم نواة الكنيسة المسيحية التى قدّر لها فيما بعد أن تكون دوحة كبيرة تمتد أطرافها إلى كل أنحاء المعمور . وقد أبدت تلك الجماعة الناشئة ولاءها فى أول الأمر لعبادة الهيكل وللناموس اليهودى . ولكنها مارست مع ذلك عبادتها الخاصة وأقامت الصلوات والوعظ وفريضة كسر الخبز فى دور الأفراد . وكان لفريضة « كسر الخبز » غرض مزدوج : فكانت شعاراً للرابطة المشتركة بين التلاميذ وأنصارهم ، ووسيلة لسد أعواز المحتاجين . وأهمٌّ من هذا وذاك كانت الفريضة إحياءً لذكرى العشاء الأخير الذى تناوله المسيح مع تلاميذه قبيل الصلب .

أما نظام الكنيسة فى ذلك العصر الأول فكان بسيطاً جدًّا . فقد تولى بطرس الزعامة فى أول الأمر . واقتضى توزيع الاحسان على المحتاجين والمعوزين

إنشاء هيئة من سبعة أشخاص دُعوا شماسة . وقد عمر قلب تلك الجماعة الأولى بالايمان فى عودة المسيح سريعاً «الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة» . ونادت بأن خلاص إسرائيل لن يكمل إلا إذا ندم الشعب وأناب عن ذنبه القومى فى رفض المسيا الذى جاء إليه هادياً ومنقذاً . وجُعلت علامة هذه التوبة المعمودية فى الماء باسم المسيح عربوناً على الولاء له ، وعلامة على التطهير من الذنوب والخطايا ، والصلة الجديدة بالله ، وقبول نعمة روحية من لدنه تعالى . وقد كان من آثار المناداة بهذه الدعوة الجديدة أن خشى اليهود الفريسيون على الطقوس التاريخية المتوارثة ، فقتلوا استفانوس الشهيد الأول رجماً بالحجارة بأيدى الغوغاء ، فتبعثرت الجماعة المسيحية فى أورشليم ، وهرب بعض أفرادها ليضعوا البذار فى أرض خارج المدينة المقدسة فى أنحاء اليهودية والسامرة وقيصرية ودمشق وأنطاكية وجزيرة قبرص .

اليهودية خصيمة المسيحية :

ومن ثم نرى اليهودية الفريسية أول عدو للكنيسة منذ نشأتها ، ذلك أن الفريسية التى نبتت فى عهد الصراع الباسل الذى قامت به أسرة المكابيين ، احتضنت آمال اليهود القومية ، وصانت نفسها من كل الأدناس الوثنية ، واعتصمت بالبر الذاتى . وكانت ميول غالبية الشعب فريسية ، لأنهم ألفوا فيها إرواءً لظمأهم القومى ، وحافزاً على كراهة الغاصب الأجنبى ، وأملاً فى إعادة مملكة يهوذا وعلى رأسها المسيّا الموعود به . والآن تظهر هذه الدعوة المسيحية الغريبة فتقضى على كل الأمانى العذاب ، وتنادى بالتحرر من كل شريعة وناموس ، وتدعو اليهود والوثنيين على السواء إلى الايمان بمسيح مصلوب مقام بدلا من المسيّا اليهودى الذى ترقبه الشعب فى مجد ورواء وسؤدد أرضى . وكان اليهود وبعض المسيحيين أنفسهم فى بادئ الأمر يؤثرون أن يكون الدين الجديد مجرد نهضة حديثة فى الدين اليهودى .

ولا عجب بعد هذا أن تكون اليهودية الفريسية عدوة خصيمة للدعوة المسيحية فى أورشليم ، وتثور لاضطهاد أنصارها والتنكيل بهم . فبعد رجم

استفانوس الشهيد الأول ، قطعت رأس يعقوب أخى يوحنا أحد التلاميذ الاثنى عشر (سنة ٤٤م) ، وأودع بطرس غيابة السجن ولكنه نجا من الموت بأعجوبة ، ورجم يعقوب الآخر رئيس مجمع أورشليم (سنة ٦٢م) . وعلى أثر هذا الاضطهاد القاسى فرَّ كثيرون من المسيحيين كما قلنا ، ولم يبق من الزعماء فى أورشليم إلا نفر من الرسل . وكان بطل هذا الاضطهاد شاباً فريسياً متحمساً يدعى شاول ، الذى صار فيما بعد رسول المسيحية الأكبر ، فغدا فارس اليهودية الغيور وربيب الناموس وحاميه ، رسولا لليهود والأمم على السواء[1] .

على أن هذا الاضطهاد الذى كان له الفضل فى نشر الدعوة خارج أورشليم ، لم يتمكن من إطفاء الجذوة التى اضطرمت فى أورشليم ذاتها ، وظلت الكنيسة تجاهد وتناضل بزعامة الرسول يعقوب — قبل استشهاده فى سنة ٦٢ .

ومن دواعى الأسف أن تسربت الروح الفريسية إلى الكنيسة ذاتها . وذلك لأن كثيرين من الفريسيين الذين اعتنقوا المسيحية لم يُصهروا من ماضيهم كما صُهر بولس الرسول ، فظهرت داخل الكنيسة النزعة الفريسية — أو المسيحية اليهودية — وكان هدف هذه النزعة تهوّد المسيحية . ولقد آمن أولئك الفريسيون المسيحيون أن المسيح المصلوب هو المسيّا ، ولكنهم زعموا أن الخلاص بالمسيح وقف على اليهود فقط ، فالذى يعتنق المسيحية من شعوب الأمم الخوارج ، يتحتم عليه — فى عرفهم — أن يتهود أولا ويختتن ، ويحمل عل منكبيه أعباء الشريعة اليهودية كلها . ولم تكن هذه المسيحية فى الواقع إلا وضعاً جديداً لليهودية . وكأنما أراد ذلكم القوم ضيقو الفكر أن يجعلوا من هذا الدين العالمى الجامع ديناً قومياً ضيقاً .

على أن هذه المسيحية اليهودية الضيقة تنقض تعاليم الذى دعا إليه جميع الناس دون تمييز ولا تفريق ، وفتح ملكوته لليهود والأمم على السواء . بل تتناقض أيضاً مع المسيحية البدائية فى نشأتها، وكان بولس فى ذلك الوقت قد شرع فى حمل الدعوة إلى البلدان الوثنية الأممية ، وأخذ الناس يُقبلون إلى المسيحية فى مدائن آسيا الصغرى وغيرها . وكان ذلك الفريسى المتنصر أكبر

---

(١) اقرأ «سيرة رسول الجهاد» للمؤلف .

الثائرين على أنصار المسيحية اليهودية الضيقة . ولم يشجر الخلاف بينه وبين الرسل المتقدمين فى السن ، فان هؤلاء قد «أعطوه يمين الشركة» (غلا ٢:٩) ، ولكن الخلاف شجر بينه وبين «الأخوة الكذبة ، المدخلين خفية ، الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا» (غلا ٢:٤) .

وليس فى الأمر غرابة ، فماء النهر يتخذ لونه من بطن الوادى الذى يجرى فيه ، كذلك تلونت المسيحية غير مختارة بالتربة القومية اليهودية التى امتزجت بها . ولم يكن مناص من أن تتأثر المسيحية فى أول عهدها بالنزعة اليهودية ، وأن تظهر هذه المسيحية اليهودية الضيقة ، وقد كانت قوية النفوذ حتى جعلت بعض الرسل المتقدمين أنفسهم يترددون ويدارون . على أن بطرس ويوحنا ، وحتى يعقوب وهو أشد الرسل تمسكاً بالشريعة اليهودية ، قد أعطوا يمين الشركة لبولس ، وأمّنوا على العمل الذى قام به فى قبول الأمم إلى أحضان المسيحية دون إخضاعهم لأعباء الناموس ، وتمّ الاتفاق بين الطرفين على أن يبث بولس الدعوة بين الأمم الوثنية ، ويتولوا هم نشرها بين اليهود (غلا ٢:٩). على أننا لم نسمع فيما بعد شيئاً عن هذا التقسيم ، والذى يرجحه المؤرخون أن بطرس نفسه جاهد مع بولس فى رومية ، وكانت له علاقة وطيدة بالكنيسة فى كورنثوس ، وكان بولس واضع أساسها (١ كور ١:١٢) . واتصل يوحنا اتصالا وثيقاً فيما بعد بالكنائس التى أنشأها بولس فى آسيا الصغرى وخاصة فى أفسس . وعلى الرغم من هذه الفوارق كلها ، والاختلاف فى الرأى ، الذى بلغ فى كنيسة كورنثوس حدًّا جعلها تنقسم إلى أربعة أحزاب حتى فى عهد بولس مؤسسها (١ كور ١:١٢) ، فاننا نرى نهضة موحدة تسير كنهر جارف فى الكنائس كلها ، ويلمح المؤرخ مسيحية واحدة تسير بخطى ثابتة متزنة لا تعوقها عراقيل الناموس اليهودى .

الوثنية تكشر عن أنيابها :

حمل الرسل — وعلى رأسهم بولس — الدعوة إلى أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وغرسوا فى أماكن متفرقة هنا وهناك بذار جماعات مسيحية قليلة

العدد فى أول أمرها ، وانتقل هذا الدين الجديد من أورشليم إلى حواضر الامبراطورية ، فبلغ رومية والأسكندرية حوالى منتصف القرن الأول . وبين هاتين المدينتين الكبيرتين انتشرت الكنائس فى اليونان ومقدونية وآسيا الصغرى وسورية . وبدت الجماعات المسيحية فى أول عهدها أشبه بالمنتديات أو الهيئات الدينية الكثيرة التى حفلت بها الامبراطورية الرومانية يومئذ .

ولكن ما أعظم الفارق بين هذه وتلك ! فأين تلك الهيئات والنقابات الدينية ؟ أين هى الآن ؟ لقد عصفت بها أحداث التاريخ فتبخرت ولم يبق لها أثر . ولم يخلد بين تلك الجمعيات الدينية فى الامبراطورية الرومانية غير المجمع اليهودى والكنيسة المسيحية . وكان الفضل فى بقاء الأول النزعة القومية اليهودية المتقدة . أما الكنيسة المسيحية ، فلم تستند إلى أية دعاية قومية ، ولكن خلدت وسط العواصف والأنواء لما انطوت عليه من قوة دينية باهرة . حقاً ان التاريخ هو أصدق الحاكمين !

ولم يكن لدين آخر من القوة فى تطور الثقافة ورقى الانسانية ما كان للمسيحية . لذلك غلبت فى آخر الأمر . وما كان إلى جانبها الجحافل الرومانية الظافرة ، ولا الفلسفة والعلوم القديمة ، بل قوة الحق الالهى ، وهو أقدر من سائر القوى الأرضية .

وبفضل الروح المضطرم فيها ، استطاعت الكنيسة المسيحية أن تدوم بعد انهيار الامبراطورية الرومانية العظيمة ، وأن تقرن العالم القديم بالحديث ، وأن تكون مهذبة أجيال التاريخ المقبلة .

ولم تكن طريقها لينة سهلة . فقد رأينا أنها اصطدمت أولا باليهودية عدوتها الأولى ، والآن تصطدم بالعالم كله ، وكان العالم رومانياً فى ذلك الزمن . وفى هذا النضال العنيف بين الكنيسة والامبراطورية ، كان الظفر للأقوى روحياً لا مادياً .

كانت الامبراطورية وثنية . فماذا كان موقف الوثنية حيال المسيحية ؟ سرعان ما ظهرت المسيحية حتى كشرت لها الوثنية عن أنيابها الغليظة ، فشب الحريق المفتعل فى رومية سنة ٦٤ ب. م. وأُلصقت التهمة بالمسيحيين ، ووقع فى هذا الاضطهاد القاسى كثيرون من المسيحيين فرائس بين أيدى الجماهير

الصاخبة ، وأهدرت دماؤهم وأحرقت جسومهم وأشعلت فيهم النيران . وكان بولس الرسول نفسه أسيراً فى رومية فى تلك الفترة ، وهناك ختم جهاده بدمه حوالى هذا التاريخ . ويقال ان الرسول بطرس استشهد أيضاً هناك فى فورة من فورات الاضطهاد .

وإن اللهب التى تسعَّرت فى عاصمة العالم فى ذلك الزمن ، واللهب التى اكتوت بها أجساد المسيحيين الشهداء الذين كانوا يُعلقون كمشاعل لاضاءة حدائق نيرون الطاغية — هذه اللهب وتلك كانت بمثابة أنوار وهاجة تقدمت الكنيسة لتتخذ مكانها الرفيع فى تاريخ العالم . وإلى ذلك الحين كان القوم يخلطون بين المسيحيين وبين اليهود ، أما الآن فلأول مرة يتميز هؤلاء عن أولئك ، وتلصق تهمة إحراق رومية بالمسيحيين لا باليهود .

وقد عمل تحقيق فى هذه التهمة الكاذبة ، وثبتت براءة المسيحيين من تهمة الحريق ، ولكنهم على أى حال وجدوا مذنبين «لكراهيتهم الجنس البشرى كله» ، وإنه لعجيب حقاً أن يبدو دين المحبة فى نظر الرومان دين الكراهية ، والأعجب أن يكون الرومان هم الذين ينطقون بهذا الحكم .

ورسخ الاعتقاد فى نفس الرومانى أن مدينته وإمبراطوريته سيبقيان أبد الدهر . هذه كانت عقيدته الوطنية . ولكن المسيحى آمن فى قرارة نفسه بأن المدينة العظيمة ستدمر ، وأن الامبراطورية ، بل العالم كله سيزول ، وآمن بأن المملكة الوحيدة الخالدة هى مملكة المسيح — ملكوت الله . والحق أن الكنيسة الأولى آمنت بأن نهاية العالم قريبة على الأبواب ، فان التلاميذ الأُول رأوا المسيح الذى قام من الأموات ، واقتنعوا بأنهم سيرونه فى حياتهم الأرضية مرة ثانية فى مجد وجلال ليدمر نظام الأشياء الأرضية ويدين الأحياء والأموات ، وقد تاقت نفوسهم إلى هذا اليوم توق العروس إلى لقاء عريسها ، وتوقعوا سقوط مملكة رومية ليقوم على أنقاضها ملكوت الله . ومن هنا كانت خيانتهم لوطنهم فى عرف الرومان ، ومن هنا كانت كراهيتهم للامبراطورية الرومانية ، بل «للجنس البشرى قاطبة» على حدِّ قول الرومان .

من ثم نرى الوثنية تقف أمام المسيحية وجهاً لوجه . وقد كانت الدولة فى نظر العالم الوثنى القديم الخير الأسمى والمثل الأعلى ، ففى خدمتها والولاء لها تمثلت

كل الفضائل الأدبية ، وكان واجب الرجل أن يعيش ويموت فى سبيل هذا المبدأ . لذلك استعار العالم الرومانى عبادة الامبراطور من بعض العبادات الشرقية القديمة ، وجعلت الوثنية هذه العبادة أسمى مظاهر الاخلاص والولاء ، ففى الامبراطور الرومانى تجسمت فكرة الدولة ، وكان المذبح الذى أقيم لعبادته رمزاً للقوة الأدبية العليا فى الدولة . على أن هذه العبادة حسبها المسيحيون وثنية لا يمكن أن تأتلف مع دينهم الجديد ، وذلك لأن أسمى الأشياء فى نظرهم لم يكن قيصر العظيم الرفيع الشأن ، ولا الامبراطورية الرومانية القاهرة ، ولا الشعب الرومانى النبيل ، بل كان شيئاً آخر ، ليس من هذا العالم . وقد جاءت المسيحية بنظرية جديدة فى التاريخ تحدّت جميع النظريات الأخرى ، نظرية سفّهت كل قيم الأشياء الأرضية إذا قورنت بالأشياء السماوية ، وأعطت ما لقيصر لقيصر ، ولكنها أعطت أيضاً ما لله لله . وهذه النظرية الجديدة قد جعلت المسيحية الدين العالمى الجديد . فبينما أغلقت اليهودية على نفسها دون العالم الخارجى ، وتحصنت بمواعيدها وعقائدها التى جعلتها وقفاً عليها دون سواها ، وبينما لجأت النظم الفلسفية إلى عقول العلماء والمفكرين ، جاهرت المسيحية فى أول عهدها بقدرتها على غلبة العالم وقهره ، فخرجت إلى الطرقات والأسواق حاملة رسالتها وسحر نفوذها ، فبدّلت متجهات التفكير التى حسبها القوم دعائم الخير العام .

لهذا السبب كانت المسيحية خطراً على الدولة فى العرف الوثنى القديم ، ذلك لأنها طعنت أسس الدولة القديمة التى زعمت أن لها الحق فى تنظيم أحوال الفرد الداخلية والخارجية بما لها من قوة لامنازع لها فيها، وقوضت أركان تلك الفضائل التى استندت إلى أن الدولة هى المثل الأعلى للخير الأسمى. وما فورات نيرون الصاخبة ، وما أحقاد الجماهير الوثنية العمياء نحو المسيحيين ، إلا مظاهر غريزية رسمت أوضاعها الفكرة السياسية القديمة عن الدولة حين أحست أن وجودها معرض للخطر .

بهذا المعنى كان المواطن المسيحى الرومانى عدواً للدولة ، فاتهم بالخيانة العظمى بسبب آرائه ومعتقداته ، واستوجب الموت فى نظر القانون . وظلت الجماعات المسيحية ناهضة بأعباء ثقال خلال القرون الثلاثة الأولى تحت ضغط عنيف يفرضه قانون العقوبات . ومن خطل الرأى أن نتصور الاضطهاد يستمر

دون انقطاع فى خلال هذه الفترة الطويلة ، فالواقع أن هذا القانون العنيف لم ينفذ إلا فى فترات متقطعة تبعاً لأهواء الحكام ونزواتهم . وتخلل الاضطهاد فترات كان فيها شئ من التسامح العملى . وقد كان الاضطهاد فى الفترات الأولى محلياً ذا صبغة محدودة . فاذا اهتاجت عامة الشعب بسبب وباء أو قحط أو نار ، أو إذا جنّ أحد ولاة الأقاليم ورأى أن ينفث سموم كيده وخبثه فى المسيحيين ، أو إذا تحدى المسيحيون أنفسهم عامة الشعب وأذكوا فى صدورهم نار المقاومة — كان يشتد الاضطهاد تارة هنا وأخرى هناك . فحريق روميه مثلا كان حجة لاضطهاد المسيحيين فى عصر نيرون ، ولكنه لم يلحق بغير المسيحيين فى روميه . وكذلك قضى أغناطيوس أسقف أنطاكية شهيداً (حوالى سنة ١١٥ م) وختم بوليكارب أسقف أزمير حياته بالدم (حوالى سنة ١٥٥ م) . وثار فى عهد الامبراطور مرقس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) ذلك الاضطهاد الدموى العنيف فى بلاد الغال الجنوبية الذى كان من بين ضحاياه عدد لا يحصى من أعضاء الكنيسة المسيحية فى ليون (سنة ١٧٧ م) .

وفى عهد الامبراطور سيفروس منع اعتناق المسيحية بقوة القانون (سنة ٢٠٢م) واضطرمت نيران الاضطهاد فى مصر وفى بعض ولايات أفريقية . على أنه يمكن القول مع هذا كله إنه إلى أواسط القرن الثالث لم يكن الاضطهاد عاماً شاملا جميع المسيحيين . وكان للكنيسة المسيحية فى أرجاء الامبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء فسحة من الزمن للرقى والتقدم على الرغم من المشاحنات العنيفة التى هزت أركان بعض الجماعات فى رقاع مختلفة .

ولكن يصح القول كمبدأ عام ان اعتناق المسيحية كان فى القرن الأول يعرض المرء للموت على أى حال ، وكان هذا فى حد ذاته كافياً لاقامة التهمة على أى فرد . وظل المبدأ سارياً حتى فى الفترات التى تهاون القوم فيها فى تنفيذه ، واتخذه الكاهن الوثنى ، أو تاجر الأوثان الذى بارت تجارته ، أو الوالى الشرير الخبيث ، أو الجار الحاسد الناقم ، أو العدو المنتقم — حجة لجر غريمه إلى الموت بسبب مسيحيته . فيوستن مارتر — وهو فيلسوف اعتنق المسيحية — حزَّت رأسه فى روميه بايعاز مؤلف منافس له لم يستطع مباراته فى الانتاج

الفلسفى . ولم يستطع التاريخ أن يحصى عدد الشهداء الذين ذهبوا ضحايا هذا القانون الجائر . والذى حمل يوستن مارتر هذا على اعتناق المسيحية ما شهده من الشجاعة والبسالة والبطولة التى غالب بها المسيحيون الموت فى سبيل عقيدتهم . وكان الوثنى يخشى الموت ويرهبه ، بينما حسبه المسيحى ربحاً وكسباً . وقد تبدت قوة المسيحية الأدبية للعالم الوثنى — قبل أى شىء آخر — فى تلك الشجاعة الباسلة التى لاقى بها المسيحيون الموت ، شجاعة تحدت الموت ، لا بروح الاحتقار والازدراء ، ولا بروح الاستهتار وعدم الاكتراث كما فعل الرواقيون ، بل بروح الرجاء والانتصار . وقد كان الايمان القوة الوحيدة التى خاضت بها المسيحية بحر العداوة والدماء ، ولكنها قوة غلبت العدو وقهرته .

وقد نظمت الاجراءات ضد المسيحين لأول مرة فى عهد الامبراطور تراجان (سنة ١١٢م) . فكانوا يُضطهدون ويحكم عليهم لتهم خاصة ، لا بسبب مسيحيتهم . وظل هذا القانون معمولا به إلى أواخر القرن الثالث . على أن هذا القانون ، وإن بدت عليه فى ظاهره مسحة التسامح ، فانه انطوى على فكرة خبيثة . وذلك لأنه أباح الحرية للمسيحى إذا ارتضى أن يقدم بخوراً لتمثال الامبراطور ، أما إذا تأبى فانه يعرض نفسه لحكم الموت . فكأنما جثمت وراء هذا اللين الظاهرى قسوة شريرة . وكانت التجربة رهيبة مريعة ، فان كثيرين من ذوى العزائم الخائرة استسلموا إليها . وقد ظن بلينى حاكم ولاية بثنية ، الذى أشار بوضع هذا القانون ، أن فيه القضاء على المسيحية . وذلك لأن المسيحى إذا تمنع عن تقديم البخور لتمثال الامبراطور ، يحكم عليه بالموت ، لا بسبب مسيحيته فى الظاهر ، ولا بسبب سلوكه الشخصى ، بل بتهمة الخيانة العظمى للدولة . وكانت أدلته فى اتهام المسيحيين تدور كلها حول هذه الخيانة بالذات ، دون تعرض للعقيدة . وفى هذا من المكر والخداع والقسوة المهذبة ما يغنى عن البيان . والواقع أن اضطهاد الدولة لم يوجه إلى عمل معين بالذات ، ولا إلى جريمة محدودة المعالم ، بل إلى عقيدة — هى المسيحية التى أبت عبادة أى شىء أرضى ، ولو كان هذا الدولة الرومانية . وقد دلّت الاجراءات التى اتخذت ضد المسيحيين ، بالأوضاع التى شرحها قانون تراجان ، على أن الدولة الوثنية — بادعائها أنها هى المثل الأدبى الأعلى — قد أضرمت حرباً شعواء فى وجه المسيحية .

القديس أغناطيوس :

وفى عصر تراجان هذا استشهد رجل من أبرز رجالات المسيحية فى القرن الأول ، وأشهر أحبارها ، وأجل الرسوليين الأولين — هو القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية السورية . وكانت قد حلّت بالبلاد بعض المنكبات ، فثارت ثائرة الشعب وأخذ يتصايح ضد المسيحيين بحجة أنهم أغضبوا الآلهة .

وقد أُطلق على هذا الحبر المسيحى الجليل «أغناطيوس ثاوفرس» (أى حامل الاله النورانى) وهو ثالث أساقفة أنطاكية . ويقال انه سريانى المحتد ، وتقول التقاليد انه هو الطفل الذى أقامه المسيح فى وسط تلاميذه ليعلمهم أمثولة فى البساطة والتواضع .

وقد تتلمذ للقديس بطرس ثم ليوحنا الرسول ، وأقامه الرسولان بطرس ويولس أسقفاً على كرسى أنطاكية ، وخلف القديس أفوديوس فيه حوالى سنة ٦٨ ب. م. فدبر الكنيسة الأنطاكية نحواً من أربعين سنة ، ناهجاً مناهج الرسل القديسين ، واشتهر بنشر الدعوة المسيحية فى سورية فى وقار ورسوخ فى العلم وسمو فى الفضائل .

على أن العاهل الرومانى تراجان زعم أنه من حسن السياسة أن يجارى الدهماء فى شعورهم وخرافاتهم ، ويوجه ضربته إلى زعيم المسيحيين استرضاءً لصيحات الرأى العام . ولذلك ألقى القبض على أغناطيوس وجىء به أمام محكمة الامبراطور .

وقد دون شهود عيان وقائع محاكمته ، والأحداث التى أعقبت هذه المحاكمة ، وما عانى من آلام فى استشهاده . فلما مثل أمام الامبراطور نفسه فى أنطاكية وجه إليه هذا الكلام ودار بينهما الحديث التالى :

تراجان : « ما أشرَّ روحك أيها الشيخ ، إذ تعتدى على أوامرى وتحمل الآخرين على أن يحذوا حذوك فتوردهم موارد التهلكة والموت » .

أغناطيوس : « لا يوجه هذا الكلام إلى ثاوفرس ، لأن كل الأرواح الشريرة بعيدة كل البعد عن خدمة الله . أما إذا دعوتنى مفسداً أثيما لأنى

عدو للأرواح الشريرة ، فأنا أقبل التهمة على نفسى بهذا المعنى ، لأننى أفسد حبائل الأرواح الشريرة بعون داخلى من المسيح ملك السماء » .

تراجـــان : « من هو ثاوفرس هذا ؟ » .

أغناطيوس : « هو الذى يحمل المسيح فى صدره » .

تراجـــان : « أفلا تظن أن الآلهة تستقر فى صدورنا نحن أيضاً ، وهى تحارب أعداءنا معنا » .

أغناطيوس : « أنت تخطئ فى تسمية الأرواح الشريرة التى تدين بها الأمم آلهة . لأنه لاإله إلاالله الذى خلق السموات والأرض والبحر وكل مافيها ، ويسوع المسيح وحده الابن الوحيد الذى ملكوته من نصيبى وقسمتى » .

تراجـــان : « تقول ملكوته ، عن ذاك الذى صلب فى عهد بيلاطس البنطى ؟ » .

أغناطيوس : « نعم ملكوته ، هو الذى صلب خطيتى ، وأذل الشيطان وضلالاته وخداعه تحت أقدام الذين يحملونه فى قلوبهم » .

تراجـــان : « أتحمل إذاً فى صدرك ذاك الذى صلب ؟ » .

أغناطيوس : « نعم ! لأنه مكتوب أنى أسكن فيهم وأسير معهم » .

وبعد ذلك أصدر الامبراطور حكمه وهذا نصه : « بما أن أغناطيوس قد اعترف بأنه يحمل فى صدره ذاك الذى صلب ، فاننا نحكم عليه بأن يربط و يرسل إلى رومية العظيمة مخفوراً ، وهناك يطرح أمام الوحوش الضارية لتسلية جماهير الشعب » .

وقد أرسل الأسقف الوقور تواً من أنطاكية إلى ميناء على البحر ، ومنها أبحر إلى أزمير تحت حراسة قوية من الجند الذين عاملوه بالاحسان والرفق . وبينما كان ينتظر سفينة تبحر به من سميرنا (أزمير) سمح له أن يزوره أصدقاؤه ويتحدثوا إليه . وبين الذين اتصلوا به بوليكارب الشيخ الوقور الذى كان رفيقاً له فى التلمذة ليوحنا الرسول ، والذى ظل سنوات طويلة «ملاك كنيسة سميرنا» .

وقد أقبلت الوفود من أساقفة وشيوخ وشمامسة وعلمانيين من كل كنائس آسيا الصغرى لابلاغه تحياتهم وعطفهم والتزود منه بالبركات والدعوات الصالحات .

وبعد فترة من الزمن أبحرت به السفينة إلى ترواس ، ومنها إلى نيابوليس عبر مكدونية إلى شاطئ أبيروس ، ودارت حول إيطاليا من بحر الادرياتيك إلى أوستيا ، فرومية . وكانت رحلته أشبه بموكب انتصار رائع ، ففى كل مكان أرسلت الكنائس أساقفتها وغيرهم لتحيته و إبلاغه أرق عواطف المحبة والأخوة .

ومن أماكن مختلفة فى رحلته بعث برسائل عدة إلى كنائس آسيا ، و إلى بوليكارب ، وأخيراً بعث برسالة إلى المسيحيين فى رومية يرجوهم ألا يبذلوا أية محاولة لالغاء الحكم الذى صدر عليه ، فيحرموه إكليل الشهادة .

وبلغت السفينة رومية بعد أن انتهت حفلات الألعاب أو كادت ، فطرح بسرعة فى ساحة الميدان وأطلقت الوحوش الضارية عليه ، فمزقت لحمه وعظمه تمزيقاً ، ولم يبق منه إلا بعض العظام الكبيرة التى جمعها المؤمنون ولفوها فى مناديل فاخرة ، وبعثوا بها إلى أنطاكية لدفنها هناك .

واستشهد معه رفيقاه زوسيمس وروفس ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثانى ، وقيل فى الثامن عشر من كانون الأول من سنة ١٠٧م وقد بنيت كنيسة فيما بعد ضمت رفاته فى أنطاكية ، وكان هذا القديس أول من علّم الكنيسة الترنيم بالتداول بين جوقتين أسوة بالملائكة ، وأطلق عليه القديس يوحنا فم الذهب لقب «مسكن الاله وخدره» .

رسائله :

كتب القديس أغناطيوس عدة رسائل ما يزال أكثرها باقياً حتى اليوم ، وتعتبر فى المرتبة الثانية بعد رسائل الانجيل . و إلى منتصف القرن السابع عشر كان منها اثنتا عشرة رسالة فى اليونانية حاولت أن تشق طريقها فى عالم التأليف الدينى فى وسط شبهات وريب ألقت عليها ظلالا من التزوير والتحريف ، وكانت أيضاً إلى جانبها رسائل أخرى باللاتينية كلها مزيفة مزورة بلا شك . ولكن حوالى سنة ١٨٤٤م عثر على مخطوطة فى فلورنسا احتوت سبعاً من رسائله فى وضع

مختصر ، وقد سلم العلماء بصحتها (وهى رسائله إلى أفسس ومغنيزيا وترلس ورومية وفيلادلفيا وأزمير وبوليكارب). وقال الباحثون الذين يقام وزن لآرائهم ان هذه كلها مختصرة عن اليونانية ، وما زال الرأى العلمى مجمعاً حتى اليوم على أنها رسائل صحيحة للقديس أغناطيوس .

وقال فى رسالته إلى أفسس :

« . . . لا تحبوا شيئاً آخر غير المسيح ، فاننى لأجله أسير بسلاسلى التى هى دررى الروحية ، عسى أن أبعث بها يوم الدين بفضل أدعيتكم . أنتم طريق العبور للذين يمضون إلى الله بالاستشهاد . . . » .

وكتب إلى أهل ترلس :

« . . . يعوزنا عدة أشياء حتى نصير أهلا لله . فأناشدكم ، أو بالحرى تناشدكم محبة يسوع المسيح التى ترجوكم لا أنا ، أن لا تستعملوا إلا القوت المسيحى ، وامتنعوا عن كل نبات غريب ، وإنما أتكلم عن الهرطقة . إن الهراطقة يخلطون يسوع المسيح بأضاليلهم لكى يختلسوا الثقة . وهم أشبه بالقوم الذين يسكبون سماً قاتلا فى مزيج خمر وعسل . . . اصغوا إلى الارشاد الذى توجهه إليكم هذه الأغلال التى أحملها فى كل مكان فى سبيل يسوع المسيح طالباً البلوغ إلى الله . اثبتوا فى الاتحاد وصلاة الجماعة ، لأن هذا فرض على كل منكم . . . »

وأبدع رسائله وأروعها هى التى كتبها من مدينة أزمير إلى أهل رومية وقد جاء فيها :

« . . . حسبكم أن تطلبوا لى القوة الباطنة والظاهرة لكى أصير مسيحياً ، لا باللسان فقط بل بالقلب ، لا بالاسم فقط بل بالفعل . . . حينما أهجر هذا العالم يظهر إيمانى بضياء أفضل . لا خير من كل ما يرى . إن إلهنا يسوع المسيح لم يظهر أفضل إلا حين عودته إلى حضن أبيه . وإن استهدفت النصرانية للحقد العالمى ، فلن تصير موضع اقتناع بشرى لأنها من صنع القدرة الالهية !

« دعونى أصير طعاماً للوحوش لأنه بهذا سيتم لى الوصول إلى الله . أنا حنطة الله ، فأطحن بأضراس الوحوش لأصير للمسيح خبزاً منزهاً عن العيب ، لا أصدر

إليكم أمراً كبطرس وبولس فانهما رسولان ، وأما أنا فلست سوى محكوم عليه ... فلا تحاولن خليقة منظورة ولا غير منظورة أن تسلبنى امتلاك يسوع المسيح . إذاً فلتعرض علىّ أفدح صنوف العذاب ، النار والصلب ، وليصطدم جسمى بأجسام الوحوش الضوارى ليتناوله التمزيق والانفصال وانخلاع العظام وانبتار الأعضاء وانسحاق الهيكل بجملته ، على شرط أن ينتهى بى الأمر إلى ملك يسوع المسيح . ألا إن الموت لأجل المسيح لأعز عندى وأمجد من ملك الدنيا من أقاصيها إلى أقاصيها ... ليس الجسد هو الذى يملى هذه الرسالة ، بل روح الله . الوداع ! ولنتشدد ولنتشجع إلى النهاية فى احتمال الألم من أجل يسوع المسيح ! » .

القرن الثاني

[بدء النزاع بين رومية والشرق — مدينة الاسكندرية — شيعة الغناطسة — مذهب المونتانية — بوليكارب أسقف أزمير]

اشتهرت الكنيسة فى رومية منذ عهد الرسول بولس . فاليها كتب رسالته الفياضة بالمعانى ، وبين ظهرانيها ختم حياته بدم الاستشهاد ، ولعل الرسول بطرس مات هناك أيضاً شهيداً . ولقد عانت الكنيسة فى رومية أمر صنوف القسوة فى حوادث الاضطهاد الأولى فى عصر نيرون ، ولكنها ثابرت وصابرت وقويت على مصادمة الخطوب . وطبيعى أن تشعر الكنيسة فى عاصمة الامبراطورية بشىء من القوة والسلطان ، ولعلها كانت فى مستهل القرن الثانى أكبر الجماعات المسيحية كلها ، وبلغت من سعة السلطان والكلمة المسموعة ما لم تبلغه كنيسة أخرى غيرها . وضاعف من قوتها بذلها فى العطاء وسخاؤها فى التوزيع ، كما نستدل على ذلك من رسائل الآباء الأولين . وكان تدمير أورشليم فى الحرب اليهودية الثانية (سنة ١٣٥م) نهاية الزعامة المسيحية هناك ، كما أن مقاومة كنيسة رومية العنيفة المفلحة لشيع الأغنسطية والمونتانية قد صلّب إرادتها وقوّى أعصابها ، فحصدت ثمار ذلك النضال وفيرة ناضجة . فهناك وضعت أركان قانون الايمان ، وهناك استقر الرأى على تحديد أسفار الكتاب المقدس القانونية . فضلا عن هذا كله فقد كانت هى الكنيسة الوحيدة فى نصف الامبراطورية الغربى التى اتصل بها الرسل الأولون مباشرة ، وكان لهم شأن فيها .

ومن منتصف القرن الثانى ، اعترفت لها الكنائس الأخرى بفضل السبق والتقدم . ففى سنة ١٨٥ ب. م. يصور إيرانيوس أحد الآباء كنيسة رومية أماً ،

أسسها بولس وبطرس الرسولان ، ويحض الكنائس الأخرى على السير ورائها . على أنه لم يقصد بذلك السيادة القانونية ، بل الزعامة فى حفظ الايمان الرسولى . وقد صار أسقف رومية بفضل بلائه فى النضال مع الأغنسطية متقدماً بين أساقفة الكنيسة . ومن هنا نشأت فكرة سلطان أسقف رومية فى تصريف شئون الكنيسة العامة .

وبينما كانت رومية تزداد قوة ونفوذاً ، كانت آسيا الصغرى آخذة فى التدهور والانحطاط . ففى مستهل القرن الثانى — وربما إلى ختام هذا القرن — كانت آسيا الصغرى والجزء المجاور لها من سورية ، أكثر رقاع الامبراطورية ولاءً واحتضاناً للمسيحية . وكانت أفسس وأنطاكية من أمهات المدائن المسيحية فى ذلك العصر . ولقد ناضلت آسيا الصغرى ضد الغناطسة ، ولكنها انقسمت وتوزعت جهودها بسبب الدعاية المونتانية وغيرها من المجادلات السقيمة . والأدلة من التاريخ متوافرة تشهد كلها على أن هذه المنازعات الداخلية قد امتصت حيويتها وفتت من عضدها . وثار النزاع بين رومية وآسيا الصغرى حول تحديد ميعاد عيد القيامة . والمفروض أن هذا العيد كان يُحتفى به فى تاريخ مبكر فى العصر الأول ، على أن أول إشارة للاحتفاء به دونت فى التاريخ بمناسبة زيارة بوليكارب أسقف أزمير لأسقف رومية فى سنة ١٥٤م أو ١٥٥م ، وجرت العادة فى ذلك العهد أن يحتفى المسيحيون فى آسيا الصغرى بعيد القيامة فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان — مع الفصح اليهودى تماماً — بغض النظر عن يوم الأسبوع الذى يقع فيه . أما رومية وبعض رقاع الشرق ، فكانت تحتفى به دائماً فى يوم أحد . وهنا ثارت مشكلة : أيؤخذ يوم الأسبوع أم يوم الشهر أساساً للاحتفاء بالعيد . لم يتم اتفاق على رأى بين بوليكارب أسقف أزمير وبين أنسطوس أسقف رومية ، وافترق الاثنان على مودة وولاء ، كل منهما متشبث برأيه .

وازدادت المشكلة تعقيداً بنزاع آخر شجر حوالى سنة ١٦٧م فى لادوكية — إحدى مدن آسيا الصغرى — حول طبيعة الاحتفال باليوم الرابع عشر من شهر نيسان . فقد ذهب بعضهم إلى أن المسيح مات فى اليوم الرابع عشر كما تقول بشارة يوحنا ، وذهب البعض الآخر إلى أن موته وقع فى الخامس عشر

كما يُستدل من البشائر الثلاث الأخرى . وتفاقم النزاع حول هذا الأمر ، حتى استدعيت المجامع للانعقاد — حوالى سنة ١٩٠م — فى رومية وفلسطين وغيرهما ، وكان قرارها مؤيداً لوجهة نظر رومية . ولكن كنائس آسيا الصغرى بزعامة الأسقف بوليكارب أبت التسليم بهذا القرار ، فلم يكن من أسقف رومية إلا أن أصدر حرماً على الجماعات التى أبت القبول . وما أجدى احتجاج ولا معارضة لهذا الحَرْم الذى كان أول عمل بارز دلَّ على سلطة رومية .

وهذه المشاحنات الأليمة قد كلفت آسيا الصغرى ثمناً باهظاً ، ولم يكن فى مقدور أفسس أن تجارى رومية فى مضمار التنافس . ومن ثم نرى انهيار الزعامة المسيحية اليهودية ، وخلوّ أنطاكية من المسيحيين البارزين فى القرن الثانى ، وتدهور نفوذ آسيا الصغرى — كل هذه العوامل قد جعلت رومية حوالى سنة ٢٠٠م مركز المسيحية العالى الكلمة القوى السلطان — وهو مركز استغله أساقفة رومية وأحسنوا استغلاله لبسط نفوذهم على الكنائس المسيحية الأخرى . وما استطاعت قرطاجنة ولا الاسكندرية بفضل ما أبدتا من بعيد الأثر فى الحياة والفكر المسيحى فى القرن الثالث — أن تسلب رومية هذه الزعامة ، وذلك لأن نفوذهما جاء متأخراً بعد رومية عاصمة الامبراطورية .

***

ولأكثر من ستة قرون كانت الاسكندرية ثانى مدينة فى العالم القديم ، ولم تبزها إلا رومية ، وبيزنطة بعدئذ . وقد أسسها الاسكندر الأكبر فى سنة ٣٣٢ ق.م. وكانت فى أول أمرها قاعدة تجارية هامة ، فجذبت إليها كثيرين من اليونانيين واليهود . ونشطت فيها الحركة العقلية نشاطاً ظاهراً ، وكانت مكتبتها أشهر مكاتب الامبراطورية . وفى شوارعها وطرقاتها التقى الشرق بالغرب ، وفيها ترعرعت الفلسفة الاغريقية وانسابت إلى محافلها العامة ، وبدت منافساً خطيراً لليهودية وغيرها من الديانات الشرقية . وهى قد احتضنت أيضاً مذاهب الفكر المصرية القديمة ، فكانت أشبه بالعاصمة الدولية المشتركة للعالم القديم . وفيها ترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية ، وفيها مزج

فيلو العالم الشهير اليهودية بالفلسفة الاغريقية ، وصبغ ديانته الموسوية بصبغة من فلسفة الاغريق ، وفيها نشأت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

أما عن دخول المسيحية إلى الاسكندرية خاصة ، و إلى وادى النيل عامة ، فان التاريخ العالمى لم يذكر شيئاً ، ولكن التقاليد الكنسية تقول ان البشير مرقس نفسه هو أول من أدخل المسيحية إلى هذه الديار ، وكتب الكنيسة القبطية حافلة بكثير من أخبار قدومه وجهاده واستشهاده فى الاسكندرية .

كانت الاسكندرية مقر الفلسفات المختلفة ، ينهل كل مريد من مناهلها ، فلا عجب أن يبعث المسيحيون بمعلميهم لبث دعوتهم ، فكنت ترى فيها حوالى سنة ١٨٥م مدرسة دينية شهيرة تحت زعامة فيلسوف رواقى متنصر يدعى بنتينوس . ولسنا نعرف على وجه التحقيق من الذى أسسها ، ولكنها بلغت ذروة من الشهرة فى عهد إكليمندس الاسكندرى (حوالى سنة ٢١٥م) . ومن الغريب أن التطور الدينى فى الاسكندرية سار فى اتجاه يخالف اتجاه آسيا الصغرى والغرب . ففى هذه البلدان الأخيرة تحول النضال ضد الأغنسطية إلى كراهية للفلسفة عامة ، ومحاولة للانفصال عنها كلية ، كأن لاعلاقة بينها وبين المسيحية . وكان من أثر هذا النضال العنيف كما أسلفنا التمسك بالتقاليد الرسولية والتشدد فى النظام الكنسى . أما فى الاسكندرية فلم يبلغ هذا التشدد ما بلغه فى الغرب ، ولم تحسب الفلسفة عدوة للمسيحية لا يمكن أن تنسجم معها ، بل بالأحرى أمة معينة لها . ولذلك امتزج بالمسيحية شىء كثير من الفلسفة القديمة — وخاصة الأفلاطونية والرواقية — وكان إكليمندس علمها ، وحامل لوائها ، وهمزة الوصل بين الكنيسة وبين المدرسة ، لأنه كان أيضاً شيخاً فى كنيسة الاسكندرية . وقد نحا إكليمندس فى مؤلفاته القيمة عن المسيحية منحى فيلو اليهودى فى اليهودية ، فشرح عقائد المسيحية بمصطلحات وآراء فلسفية أثبت فيها علو كعبه فى التفكير وصفاء الذهن واتزان العقل .

وخلفه فى زعامة كنيسة مصر أوريجانوس العظيم رئيس مدرسة الاسكندرية المشهورة . وقد ولد من أبوين مسيحيين — ربما فى الاسكندرية ما بين سنة ١٨٢ و ١٨٥م وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الفلسفة حتى بلغ فى نضوج تفكيره وعمق كتاباته وقوة ذهنه مرتبة العلماء الذين اعتزت بهم

الكنيسة فى تاريخها . ومات والده فى الاضطهاد الذى أثاره سيفروس الامبراطور ، وكاد يكون هو أيضاً ضحية هذا الاضطهاد لولا حيلة عمدت إليها أمه ضد رغبته . وعلى أثر هذا الاضطهاد فرَّ معلمه إكليمندس من المدينة. وعلى الرغم من حداثة سنه التف حوله نفر من الباحثين وطلاب العلم وأعيد فتح مدرسة الاسكندرية الدينية . وقد شغل وظيفة رئيس المدرسة بكفاية عظيمة وارضاء الأسقف ديمتريوس حتى سنة ٢١٥م حين أمر امبراطور الرومان بطرد كل معلمى الفلسفة من الأسكندرية . وكان قد زار من قبل مدينة رومية وبلاد العرب . ولكن فى سنة ٢١٥م نراه فى قيصرية بفلسطين يجمع حوله الأصدقاء والمريدين . وقد أذن له بالعودة إلى الاسكندرية بعد سنتين ليباشر التعليم فيها كما كان . وبدأ هناك فترة من الانتاج العلمى والدينى بهرت آثاره الدوائر الفلسفية والدينية فى تلك العصور .

وانقطعت جهوده فى الاسكندرية برحلة إلى اليونان وفلسطين فى سنة ٢٣٠م وكان ما يزال علمانياً ، ولكنه بمعونة بعض أساقفة فلسطين الأصدقاء رسم شيخاً فى قيصرية ، ربما ليكون حرًّا فى وعظه وتعليمه . ولكن أسقف الاسكندرية حسب هذا العمل اعتداء على اختصاصه ، فقرر نفى أوريجانوس من الاسكندرية وحرمانه ، فاضطر هذا العالم الكبير إلى أن يقيم فى قيصرية مثابراً على الدراسة والتعليم والكتابة ، والتف حوله نفر كبير من مريديه وتلاميذه الذين كانوا يكنون له كل احترام وتقدير . وفى إبان اضطهاد الامبراطور ديسيوس فى سنة ٢٥٠م ألقى القبض عليه وأودع غيابة السجن وعذب تعذيباً أليماً أدى إلى موته فى سنة ٢٥١م إما فى قيصرية أو فى صور ، ولعلَّ الكنيسة لم تشهد فى ذلك العصر رجلا بزَّه فى نقاء روحه ونبل مقاصده وسعة علمه وعمق تفكيره .

هرطقة الغناطسة

خاضت المسيحية طريقها فى تلك القرون الأولى وسط أشواك العداء من اليهودية تارة ومن الوثنية أخرى . ولكن أعداءً آخرين من الداخل نصبوا أنفسهم لمناوئتها والنيل منها . فما لاحت تباشير القرن الثانى حتى كانت قد

فشت فى الكنيسة آراء خاطئة ملتوية ، ومذاهب شاذة حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الانجيل ، ونهض الملحدون والهراطقة لنشر الضلالات والنظريات الباطلة . ومما ساعد على نشر مذاهب الالحاد ضعف نظام الكنيسة فى أول عهدها ، وعدم تحديد عقائدها تحديداً يذهب الباطل عنها . وقد نجت الكنيسة من هذا الخطر وقهرت هؤلاء الأعداء جميعاً ، إنما فعلت ذلك عن طريق وضع نظم جامدة ، وعقائد للايمان ثابتة ، وإدارة رئيسية غدت فى ختام القرن الثانى صاحبة الأمر والنهى فى كل ما يتعلق بشئون الدين .

وحدث فى آسيا الصغرى ، فى مستهل القرن الثانى ، أن شاعت آراء تنكر ناسوت المسيح وموته الفعلى ، وذهب مروّجوها إلى أنه لم يجىء «فى الجسد» بل فى شكل روحانى . ولعل هذا هو الذى حمل الرسول يوحنا على أن يقول فى فاتحة رسالته الأولى « ... الذى سمعناه ، الذى رأيناه بعيوننا ، الذى شاهدناه ولمسته أيدينا ... » . وكانت هذه الآراء بداية ما عرف فى التاريخ « بشيعة الغناطسة » . وقد أراد أصحاب هذه النظريات أن يوفقوا بين تناقض ظاهرى ، فهم قد رأوا أن حياة الاتضاع التى عاشها المسيح على الأرض لا تنسجم مع مجده السابق الذى كان له قبل نزوله على الأرض ، لذلك أنكروا حياته الأرضية الفعلية ، فالمسيح عندهم ظهر فعلا ، وعلّم تلاميذه ، ولكنه كان كائناً سماوياً ، لا لحماً ودماً . وهذه النظرية مضادة للايمان المسيحى التاريخى ، فأحدثت أزمة داخلية فى الكنيسة ، لعلها كانت أشد الأزمات منذ النضال الذى ثار حول ضرورة تهوّد الأمم قبل اعتناقهم المسيحية فى القرن الأول .

وقد زعم أنصار الشيعة الأغنسطية ان أساس عقيدتهم هو «المعرفة» ، لا المعرفة كما نفهمها فى هذا العصر ، بل المعرفة السرية الغامضة المستمدة من الحكمة الخارقة للطبيعة لادراك أسرار الكون . وقد أدمجت الأغنسطية فى معتقداتها عناصر مستقاة من مصادر شتى واتخذت أوضاعاً مختلفة . ويرجع أصلها فى الواقع إلى ما قبل المسيحية ، وكان منها صور فى اليهودية وفى الوثنية . وبعض عناصرها مستقى من آداب مصر القديمة وربما من الآراء الدينية البابلية والفارسية القديمة . وذلك لأن أصحاب هذه الشيعة آمنوا بقوتين إلٰهيتين فى الكون ؛

إحداهما صالحة وهى التى يسعى الانسان دائباً للعودة إليها ، والأخرى شريرة وهى التى تقيده بأصفاد وقيود . وعندهم أن العالم المادى شرٌّ كله . ولذلك لا يمكن أن يكون الله العلىُّ الصالح خالقه وحاكمه ، إنما الذى خلقه ويديره كائن ناقص أدنى من الله . ولكى يخلص الانسان لا بد أن ينطلق أولا من قيود هذا العالم المادى المنظور وما فيه من أرواح شريرة ، والوسيلة لهذا الانطلاق هى المعرفة ، أى الاستنارة الروحية الخفية التى تدنيه إلى الصلة بعالم الحقائق الروحية .

ولقد وجدت الأغنسطية فى المسيحية شيئاً كثيراً استعانت به فى الدفاع عن نظرياتها . فاتخذت المسيح مثلا ، وصاغته شكلا معيناً وجعلته محور نظريتها عن المعرفة العليا السامية التى تخلص الانسان ، فهو فى نظرهم قد أعلن للناس الله العلى العظيم الكامل الذى لم يكن الناس يعرفونه . وبهذه الاستنارة الروحية استطاع الروحيون الذين دقّت أحاسيسهم أن يعودوا إلى أحضان ملكوت الالٰه الصالح . وما دام العالم المادى شرًّا كله ، فانه لن يمكن أن يكون المسيح قد تجسد فعلا . ويعلل هؤلاء الأغنسطيون ظهوره فى الجسد بشبح روحى ، أو على أنه استقرار مؤقت فى الانسان يسوع ، أو على أنه ميلاد من أم عذراء دون أن يصيبه شىء من الطبيعة المادية . أما عن الله فى العهد القديم فقالوا انه ليس الالٰه الذى أعلنه المسيح ، بل هو الكائن الأدنى الذى خلق العالم المادى المنظور .

كذلك ألفوا فى أقوال بولس الرسول مرتعاً خصيباً لترويج أفكارهم ، فمقارنته بين الجسد والروح (رومية ٨ : ٢٢—٢٥ و ١ كور ١٥ : ٥٠) ، وآراؤه فى المسيح الفائز على «الرياسات والسلاطين» الذين هم «ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر» (كولوسى ٢ : ١٥ وأفسس ٦ : ١٢) ، وتفكيره عن المسيح كأنه «الانسان من السماء» (١ كوره ١ : ٤٧) . هذه كلها اتخذها القوم أسانيد لمذهبهم . وكان بولس عندهم أكبر الرسل جميعاً .

وبعد كل هذا نرى البدعة الأغنسطية تدور كلها حول الفكرة الفلسفية التى تقارن بين الروح والمادة ، وبين النور والظلمة ، وهى فكرة مستعارة من العالم الوثنى كما قلنا . فالله هو إلٰه النور الذى انبثق من أعماق وجوده أرواح

نورانية على نظام نزولى . وإلى جانب هذا الاله النورانى عالم المادة الحافل بأرواح الظلمة الشريرة . وعالمنا هذا من صنع روح من هذه الأرواح الشريرة ، ومن هنا كانت نقائصه وشروره . والمسيح هو ذلك النور الأعلى المنبثق من الله الذى غلب ملكوت الظلمة .

وفى هذه الآراء الأغنسطية نقدر أن نتتبع آثار فلسفة الامبراطورية الرومانية تحاول أن تجذب إليها العالم فى ذلك العصر ، وتجهد لأشباع رغبات الطبقات المثقفة ولهفتها إلى معرفة الالـٰه الأسمى . على أنها تبين لنا فى الوقت نفسه مدى تأثير المسيحية فى الحياة الروحية للامبراطورية من بداية القرن الثانى . ولكن الأغنسطية بقيت فلسفة حتى بعد أن قرنت نفسها بالمسيحية واتخذت عقائدها وتلاعبت بها كما حلا لأنصارها . ولذلك كان مصيرها المحتوم — شأن كل الفلسفات العقلية الأرضية — ان انتهت — على الرغم من كل ظواهرها — بالشك وعدم اليقين .

و يمكن القول بشىء من التحفظ ، فان الأغنسطية كانت بمثابة مذهب العقليين فى القرن الثانى ، فاستعاضت عن المسيحية بدين فلسفى لانارة العقل ، دين قامت أسسه على معرفة قوى الكون وأسراره ، ولكنه قام فى الواقع على تقاليد الوثنية ، وعلى آراء مستعارة من الفلسفات القديمة ، وعلى عبادة بائدة جعلت السماء والأرض آلهة لها . وبذلك بدلوا إلـٰه المسيحية الحى بالـٰه مجهول ، هو إلـٰه الفلاسفة والأسرار العويصة .

ولقد فطنت الكنيسة إلى هذا العدو المقنّع الخطر ، وأدركت أن الأغنسطية ، على الرغم من موقفها الودى نحو المسيحية ، تهدم أركان الدين الصحيح . وعرفت المسيحية أن إيمانها ليس فلسفة عالمية ، وأن موضوع رسالتها ليست أفكاراً ونظريات عقلية ، وأن الحياة الصالحة المستقيمة ليست تقوم على حفلطة كلامية فلسفية ، بل على اختبار المحبة الالـٰهية المعلنة فى المسيح . لذلك أبت الكنيسة أن تتهاون مع هذا العدو الماكر ، ووقفت له بالمرصاد حتى أذلته وخرجت بأكليل الفوز والنصر .

ونستطيع أن نقدّر مدى الخطر الذى استهدفت له الكنيسة حين نفكر أن الأغنسطية استمالت إليها الطغام والرعاع بطقوسها وشعائرها ، وملكت لب

العالم الوثنى كله بوضع ساحر من أوضاع التصوف المأخوذ عن الماضى السحيق ، وبادعائها أن فيها شبعاً للعقل والقلب معاً وانسجامها مع أساليب الفكر التقليدية ، كما أنها قد استمالت إليها فى الوقت نفسه خاصة الشعب والمثقفين بوضعها قواعد من الآداب والأخلاق صارمة ، وبارواءها ظمأ النفوس العطشى إلى معرفة الاله الحق .

واستغرقت معركة الكنيسة مع هذه الفلسفة المضللة طوال القرنين الثانى والثالث ، وكانت معركة حامية الوطيس لانقاذ مبادئ الحق السليم الذى طغت عليه هذه المطارحات الوثنية الرمزية . وكانت الأغنسطية بمثابة معاهدة الصلح التى قدمتها ثقافة القرن الثانى للمسيحية . ولو أن المسيحية قبلت شروطها لضاعت واندثرت كما اندثرت هذه الثقافة . ولكن الكنيسة كسبت المعركة ، ونرى آثار هذا النضال فى النتائج التى ترتبت عليه . فانه فى خلال المعركة اضطرت الكنيسة إلى أن تعين الأسفار القانونية للعهد الجديد (الانجيل) أى تلك الأسفار التى اعتبرتها مصادر صحيحة موحى بها لاعلان الحق المسيحى ، واستبعدت الأسفار المضللة التى أذاعت تعاليم الأغنسطيين وعقائدهم الخاطئة . وفى خلال هذه المعركة وضعت أسس علم اللاهوت المسيحى ، ونظم الكنيسة ودستورها . وبذلك وقت الكنيسة حياتها ، لا من الدولة الوثنية فقط ، بل من الفلسفة الوثنية التى كانت عدواً أفتك وأخطر . على أن الكنيسة لم تخرج من هذه المعركة كما كانت من قبل ، فانه فى صراعها قد تبدلت مسيحية العصر الأول البدائية ، وصارت المسيحية المنظمة «الكاثوليكية» الجامعة .

البدعة المونتانية :

وكان على الكنيسة أيضاً أن تقهر عدواً آخر — غير الأغنسطية — هو ما سمّى فى التاريخ بالشيعة المونتانية Montanism . ففى منتصف القرن الثانى ظهر فى مدينة فريجية بآسيا الصغرى رجل يدعى مونتانوس وهو كاهن وثنى متنصر ، ادعى أنه نبى مسيحى ، وأن لديه رسالة جديدة عن الروح القدس . ونادى بين الناس قائلا ان مجئ المسيح قريب على الأبواب ، وان « فريجية »

هى «الملجأ الحصين» ومقر أورشليم الجديدة ، ومجتمع كل المسيحيين . وأذاع دعاية خبيثة قائلا ان كل النظم المسيحية الدستورية باطلة لا قيمة لها ، وان كنيسة القديسين هى العروس الطاهرة النقية التى تترقب عودة عريسها . ونعى على الكنيسة امتزاجها بالعالم واندماجها فيه ، وحث على استعادة الرجاء الذى ملأ صدور المسيحيين فى بدء الدعوة وجعلهم يترقبون بفارغ الصبر عودة سيدهم وربّهم ، وألحّ على أن تنفصل الكنيسة انفصالا تاماً عن كل الأشياء الأرضية . وقد لقيت دعوته قبولا حاراً فى بعض الأوساط . ولو أن حركته هذه قدّر لها النصر ، لاستحال العالم المسيحى جمهوراً من المعتزلين المتقشفين الزاهدين ، ولوقفت الدعوة المسيحية وقوفاً تاماً ، ولصارت المسيحية ذاتها شيعة تصوفية يسكن أنصارها الجبال والكهوف بعيدين عن معترك الحياة العملية .

وقد كانت دعوته فى الواقع تهجماً على الأساقفة ورؤساء الكنيسة ، فهو قد أنكر سلطان الأسقف ، وقال ان النبى هو الأداة المباشرة لتلقى الوحى الالٰهى ، وهو صاحب السلطان فى قبول الساقطين والمارقين إلى أحضان كنيسة القديسين ، لا الأسقف صاحب الوظيفة الرسمية . وكانت المونتانية بمثابة دعوة لاحياء الكنيسة المسيحية الأولى التى لم تكن تعرف وظائف رسمية ، ولم يكن لها رؤساء تتركز السلطة كلها فى أيديهم . على أن السلطة الأسقفية التى كانت قد أمسكت بين أيديها كل شأن من شئون الكنيسة الروحية والادارية ، قد تغلبت فى آخر الأمر على أنصار هذه الدعوة . وما أن بزغ القرن الثالث حتى تم لها الفوز فى هذا النضال واستتب للأسقفية سلطانها الكامل فى الاشراف على تعاليم الكنيسة وعقائدها ، وتمكنت بذلك من القضاء على الأغنسطية وغيرها من نظريات الالحاد والمروق .

ونكتفى الآن بهاتين البدعتين من أعداء الداخل . وقد كانت هناك بدع أخرى كثيرة تغلبت عليها المسيحية ، وخرجت سليمة كالذهب المصفى ، قوة هائلة لاخضاع العالم .

القديس بوليكارب :

ومن أشهر الشخصيات المسيحية البارزة فى هذا القرن هو القديس بوليكارب . وقد ولد فى أواخر حكم الامبراطور نيرون الرومانى فى مدينة سميرنا (أزمير) على ما يقول الثقات . ويروى أن امرأة تدعى «كالستو» تعهدته بالرعاية منذ حداثته . وقد تتلمذ فى أيام شبابه للرسول يوحنا ، ويقال انه تحدث إلى كثيرين ممن شاهدوا المسيح فى الجسد .

وفى حكم الامبراطورين أنطونيوس وفيروس على رومية ، وقع على المسيحيين اضطهاد عظيم ، وكانت ترشى الجواسيس والأرصاد بمبالغ طائلة للوشاية بهم . واستعرَّ الاضطهاد حين أراد الامبراطور أنطونيوس أن يقوم باحدى غزواته على بعض القبائل ، فحشد كهنة الوثنيين فى رومية ليقدموا ذبائح مقدسة لآلهتهم من أجل نجاح الحملة . فاغتنم الكهنة الفرصة وأدخلوا فى روع الامبراطور أن أفضل ذبيحة تقبلها الآلهة هى ملاشاة المسيحيين . فأجابهم الامبراطور إلى طلبهم وأصدر أوامره بالقاء القبض على المسيحيين فى كل أنحاء مملكته الواسعة وجيء بهم ليقتلوا . وكانت سميرنا مسرحاً لأشد المآسى المفجعة كما سبق وتنبأ يوحنا الرسول فى رؤياه .

وأراد بوليكارب أن يبقى فى مركزه منتظراً الموت . ولكن كثيرين من رعيته ألحوا عليه بأن يخفى نفسه من أجلهم ، فاعتزل إلى قرية متاخمة ومعه نفر قليل من أتباعه ، حيث كان يصلى ليلا ونهاراً من أجل الكنيسة وأبنائها المتألمين . وكانوا فى أثناء ذلك يطلبون نفسه فى كل مكان ، فألح عليه أصدقاؤه بأن ينزح إلى قرية أخرى . على أن الجنود قبضوا على شابين وجلدوهما وأرغموهما على أن يكشفا عن المخبأ الذى اختفى فيه الحبر الشيخ .

أتوا إلى بيته فى ظلام الليل ، فلم يحاول أن يهرب . بل نزل إلى مضطهديه هاشاً باشاً فى وجوههم ، وسلم إليهم نفسه فى غير مقاومة . ثم أمر أن تقام لهم وليمة فى بيته ، وطلب إليهم أن يمهلوه ساعة ريثما يصلى . فأجابوه إلى طلبه . وهناك سكب نفسه أمام خالقه مدة ساعتين حتى خيِّل إلى من رآه أنه انتقل من عالم الأرض إلى عالم السماء . ثم أُركب دابة وسير به إلى المدينة . وفى الطريق

لاقاه أحد الحكام من أولى الأمر فاستدعاه إلى مركبته ، وحاول باللين والملاطفة أن يحمله على أن يصلى صلاة وثنية لينجو من الخطر الذى يتهدده . فأبى بشمم ، فانقلب حلم الحاكم غيظاً ونقمة حتى قذف به من مركبته فترضضت فخذه . على أن هذا لم يزعجه وسار بقدم ثابتة إلى محلة الموت.وهناك ظهر أمام مجلس عام ، فصرخ الرعاع هاتفين لظفرهم بزعيم المسيحيين . ويقال ان بوليكارب سمع فى وسط تلك الضجة الصاخبة صوتاً يقول له : «تشجع وكن رجلا يا بوليكارب» وحاول الحاكم مرة أخرى ، وقد أخذته الشفقة على شيبته ، أن يستميله إليه قائلا له : « احترم شيبتك يا بوليكارب واقسم بحياة الامبراطور . وتب . وقل ليمت الكافرون » .

فنظر بوليكارب حوله بوجه عابس متجهم ، وتذكر هتاف الذين ولغوا فى دماء المسيحيين ، وصرخ بصوت عال : « ليمت الكفر ! » ولكن بغير المعنى الذى قصده الحاكم . فأمره هذا أن يقسم أيضاً بآلهة الوثنيين وأن يجدف على المسيح ، فأجابه قائلا :

— قد خدمته ستاً وأربعين سنة ولم يلحق بى ضرًّا . فكيف أجدّف الآن على ملكى ومخلصى ؟ » .

فصرخ الحاكم قائلا :

— اقسم بحياة الامبراطور !

فأجابه بوليكارب :

— من أجل أنك مشتاق أن تحلفنى بحياة الامبراطور جاهلا مَن أنا ، فاسمع اعترافى : إننى مسيحى . فاذا وددت أن تتعلم الدين المسيحى ، عيّن لى وقتاً فأعلمك إياه .

فنصحه الحاكم أن يقنع الشعب فأجاب :

— إننى أوثر أن أوجه خطابى إليك لأن شرائع ديننا توصينا أن نقدم لحكام العالم وأمرائه المقامين من قبل الله كل احترام لا ينافى ديننا ، وأنا لا أرى الشعب قضاة يليق بأن أعترف لهم بايمانى .

فتهدده الحاكم بقوله :

— إن عندى وحوشاً ضارية ألقى بك إليها إن لم تتب .

فأجابه الشهيد :

— أدعها . فانه من المحال أن نرجع إلى الوراء . من الأفضل إلى الأسوأ .

— إن كنت تهزأ بالوحوش ، فسألقيك فى النار .

— إنك تهددنى بنار تشتعل قليلا ثم تنطفئ . ولكنك تجهل نار الدينونة الآتية ، والقصاص الأبدى ، اللذين أعدّهما الله للكافرين . ولكن لماذا أنت مبطئ ؟ إئت بما تشاء .

وقد تأثر الحاكم بشجاعة هذا الشيخ أيما تأثر ، فارسل رسولا إلى الشعب يقول ان بوليكارب قد اعترف بأنه مسيحى . فصرخوا جميعهم طالبين أن يلقى إلى الأسود . ولكن الحاكم أبى لأن حفلات الوحوش كانت قد انتهت . فطلبوا أن يحرق بالنار فلم يمانع .

وحالا راح الشعب يجمع الأخشاب من الحوانيت والحمامات القريبة ، وكان اليهود أكثر الجمع نشاطاً وشماتة . ولما صنعوا كومة خلع الشيخ ثيابه فى هدوء واتزان وصعد على الكومة . وأراد القواد أن يسمروه إلى خشبة ، فطلب إليهم أن يتركوه حرًّا طليقاً ، مؤكداً لهم أن السيد الذى يعبده ، سيمنحه قوة ليقف فى وسط اللهب . فربطوا يديه فقط . أما هو فرفع عينيه إلى السماء وصلى قائلا :

« أيها الالٰه القدير ، أبا ربنا يسوع المسيح المبارك إلى الأبد . الذى حصلنا بواسطته على معرفة حقك . إله الملائكة والقوات وجميع الكائنات ، وإله شعب البر الساكن أمامك ، أباركك لأنك رضيت أن تأتى بى إلى هذا اليوم وهذه الساعة لأكون فيها من عداد شهدائك الأقدسين ، وأشرب كأس المسيح لقيام الروح والجسد للحياة الأبدية . هب أن أقبل اليوم فى عينيك ذبيحة مرضية مقدسة ، ليكمل ما أنبأت به أيها الاله الحىُّ الحق . أحمدك من أجل كل آلائك ، وأباركك وأمجد اسمك باسم ذلك الكاهن العلى الأبدى ،

يسوع المسيح ، الذى لك وله ولروحك الأقدس ، المجد والاكرام الآن و إلى أبد الآبدين . آمين » .

ولما أكمل الصلاة انتشرت النار حوله ، فدهش الواقفون لما رأوها لا تمس جسمه ، بل تلتف حوله كشراع تصفقه الريح . أما الأخوة الأمناء الذين امتزجوا بالشعب فكانوا يستنشقون من جسده رائحة ذكية .

وأخيراً أمر الحاكم أن يطعن بالسيف ، فرأى المسيحيون المشاهدون دماً نزف من جسده حتى أطفأ النار . وألح اليهود على الحاكم أن تحرق جثته حتى تصير رماداً ، وأن لا يسمح للمسيحيين بدفنها لئلا ينقلبوا إلى عبادتها .

ويُظن أن بوليكارب مات عن مائة سنة وذلك فى سنة ١٦٧ ب.م.

ولم يكن هو الوحيد الذى قضى فى تلك الفترة من الزمن التى ثارت فيها عاصفة الاضطهاد . بل استشهد آخرون لم يدون التاريخ سيرهم .

القرن الثالث

[اضطهاد ديسيوس ودقلديانوس وغيرهما من أباطرة الرومان — النصر — انطونيوس والرهبنة]

لاقت الكنيسة أعداء من الخارج ومن الداخل ، ولكنها لم تتعثر فى قوتها وامتدادها ، وبدأت من منتصف القرن الثانى تلعب دورها فى حياة الشعب . وبما جاء القرن الثالث حتى أحست الوثنية أن كيانها يهتز ويتمايل . وكان قد بلغ عدد أفراد الجماعة المسيحية فى رومية — ولعلها كانت أكثر الجماعات عدداً — حوالى عشرين ألفاً ، وصارت بفضل دستورها ونظمها قوة اجتماعية هائلة تعادل قوة الدولة . فاذا رامت رومية أن تحتفظ بمقوماتها الوطنية والسياسية التى ورثتها عن القرون الخوالى ، فان الساعة هى الفرصة الملائمة للعمل والنضال .

ومن هذا التاريخ (أى منتصف القرن الثالث) بدأت الدولة الوثنية اضطهادها المنظم للمسيحيين فى كل أنحاء الامبراطورية ، ووضعت تدابير محكمة للهجوم على الكنيسة كلها ، وأنفذتها بكل ما لديها من وسائل القوة وأسباب العنف .

وبدأ هذا الهجوم فى عهد الامبراطور ديسيوس (٢٤٩ — ٢٥١ م) ، فأصدر أوامره للقيام باضطهاد عام شامل لجميع المسيحيين ، وأوعز إلى السلطات كلها فى الامبراطورية أن تبدأ هجومها على الجماعات المسيحية دون إقامة أية تهمة خاصة ، وأن ترغم المسيحيين على تقديم البخور لتمثال الامبراطور . وعقبت هذه الأوامر فترة رهيبة مروعة بذل فيها الدماء عدد لا يحصى من الشهداء .

وبعد موت ديسيوس تنفست الكنيسة الصعداء وأحست ببعض الفرج

المؤقت . فان خلفه جالوس (٢٥١—٢٥٣ م) بعد هدنة سنتين أصدر أوامر جديدة ضد المسيحيين فى سنة ٢٥٧ م مؤداها أن أساقفة الكنيسة وقساوستها وشمامستها ، مع جميع أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المسيحيين ، يحكم عليهم بالموت إذا لم ينقضوا عقيدتهم وينكروها . وكانت له وسيلته الخاصة فى هذا القانون ، فان سلفه ابتغى إهلاك الجماعات المسيحية ، ولما بدا هذا محالا ، أراد الخلف أن يوجه ضربته إلى نظم الكنيسة وزعامتها وأرباب المناصب الرفيعة الذين انضموا إليها . وظن أن عامة الشعب بعد زوال هذه الرءوس المدبرة المفكرة ، ستغدو عاجزة مهيضة الجناح لن تقوى على الثبات والبقاء . وفى هذا الاضطهاد البشع سقط كثيرون من زعماء الكنيسة أمثال الأسقف كبريان فى قرطاجنة ، والشماس القديس لورنتيوس فى رومية . وجلس على العرش بعد ذلك الامبراطور جالينوس فألغى هذه القوانين الصارمة . على أنه لم يكن معنى هذا الالغاء الاعتراف بالمسيحية أو التهادن معها ، فان اعتناق المسيحية بقى فى عصره وعصر خلفائه عقوبة تستوجب الموت ، وكان ممكناً تنفيذ هذا القانون فى أية لحظة على الجندى المسيحى مثلا متى ثبت قانوناً أنه امتنع عن تقديم البخور لتمثال الامبراطور . أما الذى أُبطل فهو إرغام الحكام والقضاة على تعقب أتباع العقيدة المسيحية ، واتهامهم عمداً ، واتخاذ الاجراءات ضدهم بطريقة منظمة . وسادت فترة من التسامح العملى لم ينفذ فيها القانون إلا فى حالات فردية . وقد ظلت فترة الهدوء أربعين عاماً ، ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة . فان الامبراطورية الرومانية فى عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) قامت كلها قومة واحدة ضد عدوها البغيض ، لكى تعيد السلطان المطلق للدولة إلى سابق مجده وسؤدده . وكان هذا أمرَّ وأعنف اضطهاد شهدته الكنيسة فى تاريخها . كان نضالا للحياة أو الموت .

وبعد أن قضى دقلديانوس سبعة عشر عاماً من حكمه فى هجوع وهدوء ، ثار فى أواخر عهده ثورة النمر الشرس المتعطش إلى الدماء — وأعد هجمته المريعة على الكنيسة مسوقاً إلى ذلك بايعاز صهره «جاليروس» وهو جندى فظ شجاع تأكل صدره غيظاً وحقداً وكراهية نحو المسيحيين .

وفى الرابع والعشرين من شهر فبراير من سنة ٣٠٣ م ، أصدر العاهل

الرومانى العاتى أمره الملكى القاضى بعزل جميع الضباط المسيحيين من الجيش ، وطرد جميع الموظفين المسيحيين من مناصبهم ، وتدمير الكنائس المسيحية ، ومصادرة الكتب المقدسة وإحراقها . وأعقب هذا الأمر قرار آخر قضى بزج جميع رجال الدين المسيحيين فى غيابات السجن وإكراههم على السجود لتمثال الامبراطور ، ثم قرار ثالث أصدره فى سنة ٣٠٤ م قضى أن يعبد المسيحيون تمثال الامبراطور وإلا حكم عليهم بعقوبة الموت . واتخذت أوسع الاجراءات لتنفيذ هذه القوانين تنفيذاً دقيقاً . على أن هذا لم يكن مستطاعاً فى كل الأحوال .

وفى سنة ٣٠٥ أصيب دقلديانوس بداء عضال يعسر البرء منه فتنازل عن العرش وغدا جاليروس لا منازع له فى إمبراطوريته الشرقية . ومن تلك اللحظة بدأ الاضطهاد العنيف فى الشرق بدون رحمة ولا هوادة ، فى جنون وهياج ، وكان الاضطهاد فى هذه الفترة أشبه بمذابح جنونية ، لا أثر فيها لعدل ولا رحمة . فأرغم المسيحيون بوسائل كريهة على أن يقدموا البخور للامبراطور . وحتى الأطعمة التى عرضت للبيع فى الأسواق مزجت بخمر الذبائح الوثنية ، لكى يضطر المسيحيون بهذه الوسيلة إلى الاذعان والخضوع . وساد الامبراطورية كلها من أقصاها إلى أقصاها اضطراب مريع زلزل أركانها ، لأن المسيحيين أنفسهم اضطروا للمقاومة فى بعض الأماكن . وبعد أربع سنوات طوال من الرعب والهول (٣٠٦ — ٣١٠) اضطر جاليروس ، وأنفه راغم ونفسه سقيمة ، أن ينسحب من الميدان . وفى الثلاثين من شهر أبريل من سنة ٣١٠ م أصدر وهو على سرير موته قانون التسامح العام ، معترفاً بأن المسيحية قد قهرته وأذلته . ومن تاريخ هذا الاضطهاد المريع الشنيع يبدأ التقويم القبطى المعروف بسنة الشهداء ، وذلك لكثرة من استشهد فيه من أبناء المسيحية .

وقد أتم قسطنطين هذا العمل الجليل ، وجاهد تحت راية الصليب ، وحرر إيطاليا أولا من غاصبها مكسنتويوس ، ثم أصدر قراره المأثور فى التاريخ ، الذى أذاعه فى رومية فى سنة ٣١٣م وقرر به التسامح الدينى فى كل أنحاء الامبراطورية ، شرقاً وغرباً ، ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد . وغدا كل إنسان حراً ليختار ما يشاء من عقيدة وعبادة . ومنح المسيحيون حرية تامة فى أداء فرائض دينهم ، وانتهت الأزمة الخانقة

وتنفست الكنيسة الصعداء . بعد ظلام الليل الدامس ، أشرق نور الفجر الوضاء .

سر الانتصار :

وترى ماذا كان مبعث انتصار المسيحية ؟ أكان ذلك راجعاً إلى ثبات أبنائها وشجاعتهم وبسالتهم ؟ لا نظن ذلك . فانه كما حدث فى عهد الوالى بلينى فى مستهل القرن الثانى ، كذلك حدث إبان اضطهاد ديسيوس ، وبالأولى جداً إبان اضطهاد دقلديانوس، إذ ارتد كثيرون من المسيحيين عن إيمانهم رعباً وهلعاً. وإنه لمن الشطط فى التقدير أن نصور جمهرة المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى تصويراً يجعلهم كلهم على نمط الشهداء الذى اعتزت الكنيسة بذكرياتهم وفعالهم المجيدة . والحق نقول ان عامة المسيحيين — فى كل العصور — خامرهم شىء من الجبن وخوار العزم ، وتولاهم الضعف والجزع فى اعترافهم أمام الناس ، وساورهم بعض الوهن فى المقاومة والصمود ساعة الخطر . ولا خفاء أن كثيرين منهم ارتدوا عن دينهم فى فترات الاضطهاد لينجوا بأموالهم ومناصبهم وحياتهم . وفى ذلك العصر الذى نحن بصدده كانت الجماعات المسيحية قد زاد عددها ، وتزايد العدد ينشأ عنه عادة بعض الوهن فى القوة الداخلية المعنوية . وكانت الكنيسة قد بعدت عن الفكرة الأولى التى أملت عليها توقع نهاية العالم السريعة ، واحتلت مكانتها فى العالم ، وطبيعى أن ينساب إليها بعض روح العالم ، وفتحت أبوابها على مصاريعها ، فولج إليها عامة الشعب جماعات وزرافات ، فاندس فيها بطبيعة الحال البواعث الضعيفة الوضيعة فى الطبيعة البشرية . وبيّن أن العلاقات التى سادت الجماعة المسيحية الأولى فى بدء عهدها ، يوم كان المؤمنون كأخوة فى دائرة ضيقة محدودة ، ليست كتلك العلاقات التى سادت بعدئذ ، يوم كان نصف سكان المدينة مثلا من المسيحيين . وطبيعى أن تختفى بعد هذا التوسع المحبة الأخوية العملية ، أو على الأقل تقتصر ممارستها على رجال الدين الذين يمثلون الجماعة المسيحية . ثم أن الأعضاء العلمانيين مالوا إلى التراخى والاستهتار فى مراعاة نظم الكنيسة ، وظهر لأول مرة فى تاريخ

المسيحية مقياسان للآداب والأخلاق : أحدهما لرجال الدين الذين كان يُنتظر منهم التقيد الشديد الصارم بأوضاع المسيحية الحقة ، والثانى للعلمانيين الذين اكتفى معهم بالامتناع عن الكبائر والموبقات . وإنا لنشهد من منتصف القرن الثانى جنوحاً إلى العالمية من جانب الكنيسة ، ولم يكن من هذا بد ، فانه كما اقتبس العالم من روح المسيحية ، اقتبست المسيحية شيئاً من روح العالم . وحين نفكر فى جماهير المؤمنين فى القرن الثالث ، نجد كثيرين منهم مسيحيين بالاسم ، ونجد فى أحضان الكنيسة الشىء الكثير من الكراهية والعداء والحسد والطمع . وبين أيدينا من مخلفات القرن الثانى وصف تخيله فى رؤياه مسيحى من أبناء رومية يصور فيه الكنيسة ، وقد تشوه وجهها بالبقع والتجاعيد ، وأصابتها أمراض مختلفة . وكان هذا هو الواقع فعلا . فانه على مرّ الزمن اندثرت روح الشهداء الأولين ، ووقفت الدولة الرومانية فى عهد ديسيوس ودقلديانوس أمام كنيسة بدأ الهرم يدبُّ فى أعضائها ، وبعدت عن مثلها العليا وجنحت إلى العالمية . ومن هنا كانت حالات الردّة الكثيرة ، ومن هنا التخريب المريع الذى حل بالكنيسة إبان الاضطهادات الكثيرة .

ومع هذا كله ، بقيت الكنيسة فائزة منتصرة ، لم تقدر النار ولا الحديد ولا الموت أن تفت فى عضدها أو تضعف من شوكتها . أما معجزة المسيحية ، فهى أنها غير قابلة للتدمير ، وأنها كسبت النصر على الرغم من تخلى بعض أتباعها عنها . ولم يكن للردة ولا للضعف ولا للخطية أثر فى إضعاف قوة المسيحية التى لاتقهر . مالت إلى العالمية ، ومع ذلك ظلت خميرة صالحة تخمِّر العالم كله . خانها نفر كبير من أتباعها ، ومع ذلك بقيت فيها تلك الصفوة المختارة التى استطاعت على الرغم من الخطأ والقصور أن تغلب العالم ، وتقدِّم فى أشخاص شهدائها الأمثلة الرائعة على البسالة والعظمة ، وتنفث روح المقاومة فى الخائرين الفاترين .

ولم تكن المسيحية فى ذلك العهد الدين المجهول الذى أذاع عنه المغرضون كل أنواع السخافات والوشايات كما حدث فى القرنين الأول والثانى . بل كانت قد غدت قوة منظورة تبسط جناح حمايتها على أتباعها . وكان فى طول العالم الوثنى وعرضه حنين دفين إلى الايمان بالوحدانية بعد أن تقوضت أركان العقائد والعبادات القديمة ، فمال الناس سراً وجهراً إلى الاله الحق الذى نادت به

المسيحية . ولما أعلنت الدولة الحرب على المسيحية فى القرن الثالث ، لم تتمكن تماماً من تجنيد كل قوات الكراهية العاصفة ، ولقى كثيرون من المسيحيين أمناً وحمىً فى البيوت الوثنية . وفى الغرب خاصة لم تجد قوانين دقلديانوس وجاليروس مرتعاً خصيباً وسط الشعب ، فلم تنفذ بالشدة والصرامة والعنف كما كان شأنها فى الشرق . ثم أن الدولة ذاتها كانت قد أخذت فى الضعف والانحلال ، وراحت خيرة العقول تفكر فى غير ما فكرت به الدولة ، يضاف إلى هذا كله القوة الروحية المعنوية التى بثّتها المسيحية فى العالم الوثنى وهو لا يدرى ، وقد بلغت هذه القوة شأواً رفيعاً ، واستخدمت كل ما لديها من موارد على الرغم من ضعف أتباعها وخوار أنصارها .

ألم ترَ إلى الإحن الكثيرة التى أصابت الكنيسة فى كل تاريخها ، وإلى الظلمات الحالكة التى خاضت فيها فى كل عصورها ، كيف شقّ نور المسيحية طريقه كأشعة الشمس تبدد ظلمات السحب ، وتشق كثافتها فتتوزع أضواؤها تارة هنا وأخرى هناك .

هكذا كان فى ذلك العهد . غلبت الكنيسة ، لا بقوة المسيحيين أنفسهم ، بل على الرغم من ضعفهم — وغلبت بقوة الرسالة التى حملتها هدًى ونوراً للعالمين .

أنطونيوس والرهبانية :

وفى أواخر هذا القرن أخذت الرهبانية شكلا بارزاً فى حياة المسيحية ، فهرع كثيرون من الأتقياء إلى البوادى والبرارى للتعبد والابتعاد عن ضوضاء الحياة المادية العالمية . وعلى مرّ الزمن تطورت هذه الحركة حتى غدت قوة هائلة إلى جانب الكنيسة النظامية ، وتفرع موكب المسيحية إلى قوتين : إحداهما فى المدن والحضر تحت زعامة الأساقفة ، تحيا الحياة المسيحية فى الأوساط الوثنية ، وهرعت الأخرى إلى القفار لتحيا حياة الزهد وإذلال النفس بالروح عينها التى بذل بها الشهداء حياتهم من أجل المسيح .

أما مبدع الرهبانية فهو القديس أنطونيوس الشهيد ، أبو الرهبان وكوكب

البرية ، ولد حوالى سنة ٢٥١ م فى بلدة قمن بصعيد مصر من أسرة عريقة غنية ، وأبوين صالحين ربّياه على مخافة الله ، فاقتبس عنهما شيئاً كثيراً من حميد الخصال وكريم الخلال . ومات والده وهو بعد فى العشرين من العمر فعكف على إدارة أملاكه وبيته والعناية بأخته . وفى الكنيسة سمع ذات يوم قول السيد المسيح للشاب الغنى : « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط للفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » . فاتخذ هذا القول عظة لنفسه ، وأطاع الوصية حرفياً ، وباع أملاكه ووزعها على ذوى الحاجات ، وأودع أخته بيتاً لبعض العذارى الورعات ، وعاف الدنيا وانفرد فى البرية ، عابداً الله قامعاً جسده مروضاً نفسه بالتقوى . وهناك حاول إبليس إغراءه بمختلف الوسائل ، ولكن غلبه بالصلاة والصبر والرجاء مستعيناً فى جهاده بقوة المسيح سيده وربه . وأفلح فى إماتة شهواته وكظم غيظه وقمع جسده ، فلم يكن يقتات إلا بالملح والماء القراح . ولم يكن يرتدى إلا المسوح ، ولم يكن يفترش إلا الأرض وحصيراً بالية . وآوى إلى قبر مهجور ، ثم إلى قلعة متهدمة ، جاداً طوال الوقت فى مناضلة الأفكار الشريرة وأطاع الجسد الفانية حتى ظفر فى هذا النضال العنيف ، وهذبه الترويض والتمحيص ، واستفاضت أنباء صلاحه وتقواه ، فهرعت إليه الجماهير فى البرية تطلب البركة والشفاء على يديه ، وسار وراءه خلق كثير أخذوا عنه الطريقة فى التعبد والاعتزال . فكان هو منشىء الرهبانية الانفرادية ، أى التعبد فى الصوامع على انفراد . على أن هذه الحياة المفردة لم ترق خلفه القديس بخوميوس فانشاء أول دير مسيحى فى العالم فى مصر العليا حوالى سنة ٣١٥ م وقيل سنة ٣٢٥ م .

وخرج القديس أنطونيوس أبو الرهبان مرتين من عزلته فى الصحراء إلى الحضر : مرة فى عام ٣١٣ م ليشجع الشهداء ويعزى المضطهدين فى شدة مكسيمانيوس ، وقد اشتاق أن يكون هو نفسه شهيداً ، فكان يظهر فى مدينة الاسكندرية علناً ، ويتقدم إلى الحاكم ويحاجّه لكى يحنق عليه ويعذبه ويقتله فينال إكليل الشهادة . ولكن لأمر ما امتنع الحاكم عن إيذائه ، وعاد القديس إلى صومعته فى البرية . وراح الناس يتقاطرون أفواجاً للتبرك منه وسماع نصائحه .

ولكن خشى أن يشغله هذا عن التعبد ، فانطلق إلى البرية الداخلية ومضى مع قوم أعراب إلى مكان بعيد مسيرة ثلاثة أيام حيث وجد عين ماء وقليلا من زراعة القصب والنخيل ، فأحب الموضع وسكن فيه ، وكان العرب يأتون إليه بالخبز ، وكان فى المكان كثير من وحوش الفلاة ، فأنست إليه ولم تؤذه واتخذ منها أصدقاء له .

والمرة الثانية عام ٣٥١ م يوم قدم من عزلته ليعضد اثناسيوس أسقف الاسكندرية فى كفاحه ضد عناصر الالحاد التى انسابت إلى الايمان القديم وهرطقة الزنادقة الذين حاولوا إفساد الحق بباطلهم . وكان القديس اثناسيوس قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣ م . وآوى عنده فترة من الزمن التماساً للأمن وهرباً من الاضطهاد . فأخذ عنه وكتب سيرة حياة بطل الأديرة فيما بعد ، فأقبل القوم رجالا ونساء على قراءتها بلهف وشغف . وبعد هذا التاريخ بمائة سنة قرأ القديس أوغسطينوس هذه السيرة التى كتبها اثناسيوس،فقربته إلى الله وأهدت قلبه إلى الحق ، وبعد ألف سنة اقتناها القديس توماس أكويناس وكانت عنده خير مدخرات الأولين . وبلغت أسماع الملك قسطنطين أنباء هذا القديس فى برية مصر ، فكتب له يمتدح ورعه وزهده ويطلب إليه أن يصلى من أجله . فخرج زملاؤه فى البرية برسالة القيصر ، أما هو فلم يحفل بها وقال لهم: «هذه كتب الله ملك الملوك توصينا كل يوم ونحن لا نأبه لها بل نعرض عنها» . ولكن بعد إلحاح زملائه واقتناعه بأن هذا الملك من أنصار الدين وحماة الكنيسة قبل أن يكتب له رسالة باركه فيها ورجا أن يسود السلام ربوع الامبراطورية وحياة الكنيسة .

وبعد عمر طويل شارف على المائة والخمس انتقل القديس إلى الحياة الأخرى سليم الحواسّ فى السابع عشر من شهر يناير من سنة ٣٥٦ م . وكان قد أوصى باخفاء جسده فى البرية ، وإعطاء عكازه للقديس مقاريوس الذى كان قد زاره وألبسه رداء الرهبنة ، وفروته للقديس اثناسيوس ، والملوطة الجلد لتلميذه سرابيون .

ودون عنه رهبانه رسائل روحية ونصائح نافعة اعتزت بها الكنيسة والأديرة دهراً طويلا .

* * *

ومن مصر انتقلت الرهبانية إلى بلدان الشرق كله ، إلى سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وبين النهرين ، حيث أسست المناسك والأديرة فوق قمم الجبال وفى تيه الصحراء على النماذج التى نشأت أولا فى مصر .

وقد أذل أولئك الرهبان فى ربوع الشرق أجسادهم . وتروى عنهم غرائب القصص فى محاولة قمع تجاربهم وشهواتهم . فكان بعضهم لا يأكل إلا مرة فى كل خمسة أيام ، و يمتنعون عن شرب الماء إلا نادراً . وعاش آخرون فى أماكن ضيقة بحيث لم يكن فى وسعهم مدّ أرجلهم فيها ، أو فوق رءوس الأعمدة . وحرم بعضهم أنفسهم لذة النوم وغير ذلك من أساليب القمع والاذلال . ونحن لا ننكر أنهم فى إساءتهم إلى أجسادهم قد ركبوا متن الشطط ، إذ حسبوا أجسادهم أعداء لهم ، واحتقروا الزواج أيما احتقار ، ولكن لأنهم عاشوا هذه الحياة القاسية فى سبيل غرض مقدس ، وكافحوا شرور العالم بأفضل الأسلحة التى عرفوها فى عصرهم ، لا يسعنا إلا الاكبار من شأنهم ، والاعتراف بأن كثيرين منهم بلغوا مرتبة رفيعة فى الغبطة الروحية وهدوء النفس . وتخرج من هذه الأديرة معلمون وزعماء روحانيون خلد التاريخ أسماءهم مثل مكاريوس الأسكندرى وهيلاريون السورى وغيرهما من أبطال حياة الروح .

القرن الرابع

[قرار قسطنطين الامبراطور — المسيحية دين الدولة الرسمى — أخطار النصر — دستور الكنيسة الجامعة — الأسقف أمبروز — القديس أغسطينوس — هرطقة آريوس ومجمع نيقية — بعض الشخصيات البارزة فى هذا القرن] .

كانت القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الكنيسة عصر الجهاد والاستشهاد ، ناضلت فيه اليهودية الضيقة ، والوثنية المتعسفة ، والآراء الغريبة والفلسفات الملتوية . وقد قضى فى هذا الجهاد العنيف ألوف من زعماء الكنيسة وأساقفتها وعلمائها وأعضائها ، وأثبت أولئك الشهداء الأبرار للعالم أن الايمان أثمن من الحياة ذاتها .

وقد توِّج فوز الكنيسة فى هذا العراك بقانون أصدره الامبراطور قسطنطين فى سنة ٣١٣م أباح فيه لجميع رعايا الامبراطورية — وبينهم المسيحيون — أن يعبدوا كما يشاءون ، ورد إليهم كنائسهم المصادرة وأموالهم المنهوبة . وقيل ان ذلك الامبراطور شهد فى أحد أمسية انتصاراته الحربية صليباً من نار يرتسم فى الجو وقد نقشت فوقه هذه الألفاظ : «فى هذا انتصارك» ، وحلم أيضاً أن المسيح يأمره أن يتخذ الصليب شعاراً لامبراطوريته يحارب تحت لوائه .

وسواء أكان هذا القول صحيحاً ، أم حديثاً كنسياً متواتراً ، فان ذلك السياسى العظيم قد أصدر مرسومه التاريخى وفق مقتضيات عصره ، وأغدق على الكنيسة مزايا عديدة ، على أنه لم يتعرض للوثنية بسوء ، وظل هو نفسه رئيس كهنة الوثنية على الرغم من اعتناقه المسيحية وقبوله المعمودية فى آخر سنة من حياته (٣٣٧م) . وما انفكت الوثنية مع هذا كله العدو اللدود

للمسيحية ، لا لأن أغلبية شعوب الامبراطورية فى أوائل القرن الرابع كانت باقية على الوثنية وحسب ، بل لعامل جديد آخر : وذلك لأن قوة روحية جديدة اختمرت فى العالم الوثنى هى التى عُرفت فى التاريخ بالأفلاطونية الحديثة . وقد حاولت هذه المدرسة التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أن تبدل الأديان الوثنية القديمة وتخلق منها فلسفة حديثة مجددة ، وتخلع على الوثنية ثوباً قشيباً من الجدّة والرواء . وكان من آثار هذه الأفلاطونية الحديثة أن ارتد الامبراطور يوليانوس — خليفة قسطنطين — عن المسيحية إلى عبادة الآلهة القديمة ، وعاد إلى مبادئ آبائه وأجداده . وقد أراد إحياء الوثنية لتناهض المسيحية ، لا من حيث الثقافة فقط ، بل من حيث الروح والآداب والأخلاق والمحبة وفعل الخير . ولكأنما أراد أن يجعل من الوثنية مسيحية فى قالب وثنى . على أنه لم يضطهد الدين المسيحى ، وأباح الحرية لكل نوع من العبادات . ولكن هيهات أن ينافس الدين المصطنع الدين الحى الحقيقى . فانه فى عهد خلفاء يوليانوس هذا عادت المسيحية إلى مكانتها التى أحلّها فيها قسطنطين العظيم ، وصارت دين الدولة الرسمى . ولم تقو الوثنية على الوقوف فى وجهها ، وذلك لأنها لم تظفر بشهداء يؤثرون الموت على التسليم والارتداد ، ولم تكن دين المستقبل الذى يضمن للبشرية الرقى والرخاء . وما حلّ القرن الخامس حتى كان نجم الوثنية قد أفل كعنصر من عناصر الثقافة ، وغدت الامبراطورية كلها مسيحية لحماً ودماً . وبذلك تمّ للكنيسة الظفر المبين ، وانتقلت من هيئة سرية مطاردة مضطهدة ، إلى كنيسة لها الحول والطول ، تسندها الامبراطورية كلها وتعضدها قوات الدولة .

كان الفوز مبيناً كما قلنا . ولكن للفوز أخطاره ومساوئه . فمع توافر الحرية حظيت الكنيسة بالكرامة والسلطان ، ولكن انسربت إليها المطامع والأهواء . وكان أشد الأخطار أن الدولة قد فرضت الآن مطالبها على الكنيسة . فهى قد تبدلت من عدو إلى حليف ، ولكنها طالبت فى نظير ذلك ببسط نفوذها على الكنيسة ثمناً لهذا التحالف . ولم تكن الدولة الرومانية قد ألفت من قبل أن ترى قوة أخرى إلى جانبها تقاسمها السلطان والنفوذ . وقد زعمت الدولة أن من حقها الاشراف ، لا على السلطة الزمنية فقط ، بل على السلطة الروحية المقدسة

التى تقوم بالعبادة الرسمية ، وزعمت أنها فى هذا لا تطلب شيئاً جديداً ، بل إنها تطالب بما كان لها من حق على العبادة الوثنية .

ومرة أخرى وقفت الكنيسة أمام الدولة تتحداها وتأبى الخضوع لها وتنكر عليها سلطانها وتدخّلها . وكان يصح أن تلين الدولة وتتساهل ، ولكنها وقد أضفت على الكنيسة حمايتها وأغدقت عليها من المنح والامتيازات ، لم تشأ أن ترضى بغير الاستسلام المطلق من جانب الكنيسة . ومن ثم نرى مهادنة الدولة للكنيسة وصداقتها لها أشد خطراً عليها من عدائها ، وباحتضان الامبراطورية تعرضت القوى الروحية فى الكنيسة لخطر الاختناق والفناء — وغدا تنفيذ القانون الكنسى ، واستدعاء المجالس العامة وتنفيذ قراراتها ، وتعيين الأساقفة فى المراكز الهامة ، وحق الاختصاص الأعلى فى المحاكم الروحية ، والقول الفصل فى المشاكل الجدلية التى قد تنشأ حول العقائد — غدت هذه كلها من الحقوق التى طالبت بها الدولة الرومانية وأصرّت على انتزاعها من السلطات الدينية . ولو أن الكنيسة ارتضت الآن أن تكون أداة طيّعة تحت يد الامبراطورية ، لكانت ذهبت ضياعاً الدماء والجهود التى بذلتها فى خلال القرون الثلاثة الأولى .

وعلى الرغم من هذا كله ، فان الكنيسة قد انتفعت بشئ واحد من بعد أن اعترفت بها الدولة ، وذلك أنها نظمت دستورها فى طول الامبراطورية وعرضها ، ووحدت أعمالها وجهودها ، وحققت لنفسها السلطان التام على النظام الكنسى . وكان مبدأ الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) يرمى إلى وضع نظام دستورى معين ، فاهتبلت هذه الفرصة وأحكمت نظامها الذى صاغته على نموذج النظام فى الامبراطورية . فكانت «المدينة» مثلا أصغر وحدة فى النظام الامبراطورى السياسى ، فجعلتها الكنيسة أصغر وحدة فى نظامها ، وعينت فى دائرتها أسقفاً ، وصارت دائرة «المدينة» أبرشية أسقفية . كذلك كانت الولاية فى دستور الامبراطورية تشمل مدناً عدة ، يحكمها وال من قبل رومية ، فاقتبست الكنيسة هذا النظام عينه ، واتحدت جملة من الأبرشيات تحت إشراف أسقف أكبر ، هو أسقف عاصمة الولاية وقاعدة الحكم فيها ، ومن القرن الرابع قضى دستور الامبراطورية أن تؤلف وحدات من الولايات المتقاربة لتكون وحدة امبراطورية ،

فاقتبست الكنيسة هذا النظام فى دستورها ، وجعلت مقراً للبطريركية يشرف على عدد من كبار الأساقفة . وأخيراً تجمعت كل هذه الكنائس المتفرقة تحت هيئة واحدة عليا سمّيت المجمع المسكونى ، وهو يشبه المجلس الامبراطورى فى دستور الدولة . ومن ثم كانت الكنيسة الامبراطورية الجامعة وحدة متماسكة ، ومظهراً خارجياً منظوراً للمسيحية الواحدة الجامعة .

وكأن الامبراطورية الرومانية فى شيخوختها قد خلفت للكنيسة الفتية دستورها ونظمها ، وكان هذا الدستور تراث المستقبل المجيد . وقد انهار دستور الدولة وبقى دستور الكنيسة حياً خالداً حتى اليوم فى نظام الكنيسة الكاثوليكية البابوية ، يتدرج من وحدات صغرى حتى يصل إلى الرأس وهو البابا ، الذى تشبه سلطته الكنسية سلطة قيصر رومية فى ذلك العصر الغابر . ولم يكن هذا الاتحاد المنظم بلا جدوى ، فان الكنيسة — بعد إذ اقتبست هذا النظام الامبراطورى بما عهد فيه من قوة واتساع وتماسك — استطاعت أن تحرص على كيانها وسط العواصف والأنواء ، وأن تعبر عن إرادتها ووحدتها ، وأن تدافع عن حريتها وإيمانها وعقائدها .

الاسقف امبروز

قلنا ان الكنيسة لم ترض مماشاة الدولة إلى الحد الذى أرادته من بسط سلطانها عليها . ولا بدع فى هذا ، فقد وضع الرسل الأولون هذا المبدأ فى حياة الكنيسة ، وقال بولس — مع الفيلسوف الرومانى شيشرون — ان الدولة جماعة من الناس تآلفوا معاً لاقامة قسطاس العدل . وما دام هذا غرض الحكومة الزمنية ، فانه لزام على المسيحيين أن يطيعوا السلطات «لأنها مرتبة من الله» . أما إذا حادت هذه السلطات عن جادة العقل ، فحقٌ على المسيحيين أن يقاوموها لأنه « ينبغى أن نطيع الله أكثر من الناس » على قول الرسل الأولين ، والشهداء الذين سطروا هذه الحقيقة على صفحة التاريخ بأحرف من دمائهم .

لذلك نرى الكنيسة ، ممثلة فى زعمائها وقادتها وأساقفتها ، تعضد الامبراطورية وتطيعها بعد أن تهادنت معها وكفّت عن اضطهادها ، ولكنها لم تخش أن تعصى

القيصر وسلطانه فى مناسبات كثيرة . ولما أرادت الدولة أن تتدخل فى شئون الكنيسة وتبسط عليها نفوذها ، أبت هذا كل الآباء وقال قائلهم فى الغرب — وهو أمبروز أسقف ميلان — حين أراد الامبراطور — وكان مسيحياً — أن يجعل له مكاناً بين الكهنة فى الكنيسة : « إن هذه الملابس الأرجوانية تجعل مرتديها أمراء ، لا كهنة . واقتيد الامبراطور بكل تأدب إلى مكان آخر .

وكان أمبروز هذا من كبار الزعماء الذين وقفوا موقف الحزم والثبات أمام مطالب الدولة . وكان قد ولد من أبوين مسيحيين ، واتخذ المحاماة مهنة له ، وشغل فى الرابعة والثلاثين من عمره منصب القنصلية فى ميلان ، وأُنتخب أسقفاً وهو بعد فى وظيفته .

وكان منصبه محفوفاً بالأخطار والمصاعب ، فان قبائل البرابرة المتوحشين من الهون والقوط والفاندال كانوا يزحفون جنوباً لتهديد الامبراطورية العظيمة التى كان قد بدأ يدب الضعف فى كيانها . وكانت الامبراطورية قد انقسمت بعد موت قسطنطين الكبير إلى شرقية وغربية ، وفى عهد أمبروز كان على عرش رومية ذاتها ثلاثة من الاباطرة المتنافسين على صولجان الملك . وقدّر لهذا الأسقف العظيم أن يواجه فى عهده خطر عودة الوثنية إلى الدولة التى كان أذنابها يحاولون التأثير على الامبراطور ، وكيد الهراطقة والملحدين ، ومطالب السلطات الامبراطورية لبسط نفوذها على الكنيسة .

وحدث فى سنة ٣٩٠م أن الامبراطور ثيودوسيوس أمر بمذبحة رهيبة بشعة فى مدينة تسالونيكى (سالونيك الحالية) لعقاب مواطنيها على قتلهم أحد الموظفين ، فاجتمع الشعب فى ساحة الألعاب كأنهم يشهدون حفلا عاماً ، ثم أمر الامبراطور أن يُذبح هذا الجمهور الأعزل ذبح الأغنام . وبعد ذلك بقليل ذهب بموكب رسمى إلى الكنيسة فى ميلان ليعبد هناك كعادته ، فلقيه على الباب الأسقف أمبروز وابتدره بقوله : «ليس إلا رب واحد وملك واحد لهذا الوجود كله» . وبكلماته اللاذعة كالنار منع الامبراطور من التقدم إلى المائدة المقدسة بعد أن لطخ يديه الأثيمتين بدماء الأبرياء ، وأصر عليه أن يندم جهاراً أمام الشعب على فعلته الشنعاء . فأبى ثيودوسيوس هذا الاذلال وتجنب الكنيسة ثمانية أشهر . وعند حلول عيد الميلاد اضطر أن يخضع إلى مشيئة الأسقف ويقبل الندم والتوبة

جهاراً ، وسنّ شريعة تقضى بألاّ ينفذ حكم الاعدام أو المصادرة إلا بعد مضىّ ثلاثين يوماً من تاريخ توقيعه ، وهى شريعة حكيمة تحدّ من سطوة الحاكم النزق الحاد الطباع . وبعد ذلك دخل الامبراطور إلى الكنيسة نادماً متذللا ، مرتدياً ثياب مواطن عادى من أبناء ميلان ، وتعلم بعد هذا الدرس أن يكون بطيئاً مفكراً فى الانتقام من أعدائه .

وفضلا عن هذه الأعمال الجليلة الباسلة ، قد صنف أمبروز كتباً عدة ، ووضع ترانيم خشوعية غير موزونة ما تزال باقية حتى اليوم ذخراً خالداً للكنيسة ، وأدخل نوعاً خاصاً من الأناشيد فى العبادة .

القديس أوغسطينوس :

على أن من جليل أعماله التى خلدها له التاريخ مصادقته لشاب نابه من علماء المنطق يدعى أوغسطينوس من «تاغست» فى أفريقية الشمالية . وكان إبناً لأب وثنى وأم مسيحية تقية تدعى مونيكا ، وقد شغل بال الأم التقية أن ترى ولدها يعتنق آراء شيعة من شيع الغناطسة ، ويميل إلى الفلسفة الوثنية . ولم يحاول أمبروز أن يفرض إرادته على صديقه الشاب ، بل أخذه باللين والحسنى والعطف ، وراح أوغسطينوس يصغى فى لهفة إلى معلمه الوقور ، حتى أشرق النور على عقله وصار مسيحياً مخلصاً فى سنة ٣٨٧م ، وروى قصة اهتدائه فى كتابه المشهور «اعترافاتى» .

وكان أوغسطينوس من أعظم المفكرين والكتاب فى الكنيسة المسيحية وأقدرهم وأغزرهم مادة وروحاً . وما فتئت مؤلفاته نبعاً يفيض بالخير والخصب الروحى . وقد أفاض فى كتاباته عن مبلغ توكل الانسان على الله ، حتى أساء فهمه بعض الكتاب المتأخرين ، وظنوا أنه ينكر إرادة الانسان الحرة . والواقع غير ذلك ، فانه كان يفند بكتاباته نظريات شاعت فى عصره ذهب أصحابها إلى أن الانسان مستطيع أن يكون صالحاً بدون معونة الله .

وأشهر مؤلفاته «مدينة الله» . فقد كانت الامبراطورية فى عصره آخذة فى الانحلال ، وفى سنة ٤١٠ م أغار «ألاريك» القوطى على مدينة رومية واحتلها

بعد حصار طويل ، وزعم القوم يومئذ أن الدين المسيحى هو الذى أضعف الدولة وأنزل غضب الآلهة التى صبَّت على البلاد هذه الكارثة الدهماء ، فكتب مؤلفه هذا «مدينة الله» دفاعاً عن المسيحية ، ووصف الكنيسة كمدينة لله يسكنها كل العابدين حقاً ، ولا تقوى عليها أبواب الهاوية .

وفى سنة ٣٩٥ م سيم أسقفاً فى «هبو» بافريقية الشمالية ، ومات فى السادسة والسبعين من عمره فى أثناء حصار قبائل الفاندال للمدينة التى كانت مقر أبرشيته .

مجمع نيقية :

حفل القرن الرابع بالحوادث الجسام فى تاريخ المسيحية . ومن أبرز هذه الحوادث مجمع نيقية الذى انعقد لتفنيد هرطقة آريوس . ولقد ناضلت المسيحية من قبل اليهودية الضيقة ، والوثنية الغاشمة ، والعالمية الشاردة ، والأغنسطية المتفلسفة ، وغيرها من نزعات الزيغ والالحاد .

ومنذ أوائل القرن الثالث برزت بقرنيها هرطقة أخرى ، كانت على الكنيسة أشد خطراً من سائر الهرطقات ، وذلك أن كاهناً من كهنة الكنيسة فى الاسكندرية يدعى آريوس أعلن جهاراً على الملأ أن المسيح لم يكن إلـٰهاً ، بل هو كائن وسط بين الله والانسان ، شبه إلـٰه خلق منذ البدء . وقد حبك دعواه فى عبارات خلابة حتى ظن كثيرون أنه يقول الحق .

ومنذ البداية كان فرضاً على المسيحية أن تواجه السؤال القائل : ماذا تظنون فى المسيح ؟ وقد كان سر لاهوته المشكلة الأولى والعظمى أمام العقل المسيحى المثقف ، فمن كتابات بولس ويوحنا ، إلى كتابات خلفائهم من بعد مدى الأجيال ، يقوم الايمان المسيحى على أن يسوع المسيح هو «الأول والآخر» (رؤيا ١ : ١٧) و «بداءة خليقة الله» (رؤيا ٣ : ١٤) و «كلمة الله» (رؤيا ٩ : ١٣) الذى به خلق العالمين ، وهو حى قبل تأسيس العالم . وبهذا المعنى هو ابن الله ، بل الله ذاته . وقد وجد العقل البشرى نفسه أمام صعاب حين راح يفكر أن ابن الله الذى صار إنساناً وارتضى قيود الجسد وذلّه ، يحسب معادلا لله ، وهو فى الوقت نفسه منفصل عنه .

أفيكون المسيح مجرد إنسان قد امتاز بمواهب خاصة وقوى معجزية وكرامات قدسية ؟ ليس هنا شيء من الصعوبة البتة . والواقع أن قليلين مالوا إلى هذا الحل ، ولكنهم كانوا قلة ضئيلة لم يكن لهم شأن فى تاريخ الكنيسة ، واستؤصلت هذه الهرطقة وهى نبتة صغيرة فلم تقم لها قائمة فيما بعد فى التاريخ المسيحى . واستقر الفكر الدينى من أول الأمر على التسليم بألوهية المسيح . ولكن الله إلٰه واحد ، لا إله إلا هو ، لذلك ذهب بعضهم إلى أن الله الآب تجسد فى المسيح وتألم على الصليب . وأن الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، ليسوا إلا مظاهر مختلفة للاله الواحد الأحد . وذهب آخرون إلى أن الكائن الالهى الذى ظهر فى المسيح هو كائن روحى خلق قبل إنشاء العالم ، وهو مخلوق ومع ذلك أقل مرتبة من الله .

وكلا الرأيين قد بعد عن الايمان القويم كل البعد ، ولم يكن بد من وضع حد لهذه الآراء المتناقضة ، وصياغة قانون الايمان السليم فى مصطلحات ثابتة لا تعبث بها أهواء الهراطقة والملحدين . وقد فطن أسقف الاسكندرية أول من فطنوا إلى خطر دعاية آريوس ، فحاول أولا فى لقاء شخصى معه أن يرده إلى الصواب ، ثم استدعاه إلى مجمع من الأساقفة ، فلم يرض آريوس العدول عن آرائه ، التى نظمها فى قصائد شعرية وأناشيد وأغان رائعة ، فشجر نزاع عنيف بين الآريوسيين وبين بقية الكنيسة ، وانتقل النزاع من مصر إلى غيرها من الأمصار . وبلغ نبأ هذا النزاع أسماع الامبراطور قسطنطين ، وكان قد وطن العزم على أن يحتفظ بوحدة الكنيسة صيانة لوحدة الامبراطورية ، فبعث برسالة إلى الاسكندرية مع الرجل الشيخ «هوسيوس» أسقف قرطبة فى أسبانيا ، يرجو فيها زعماء الكنيسة فضّ هذا الاشكال إبقاءً على الوحدة المسيحية ، فلما عاد الأسقف إلى الامبراطور أبلغه أن المسئلة جد خطيرة وأقنعه بعقد مجمع الأساقفة لفض هذا النزاع وغيره من أسباب الخلاف الأخرى .

وقد عقدت الكنيسة من قبل مجامع إقليمية محلية فى القرنين الثانى والثالث ، أما الآن وقد تمتعت الكنيسة بحريتها واستندت إلى عون الامبراطورية ، فلم يكن ثمة ما يحول دون عقد مجمع مسكونى يحضره ممثلون من كل رقاع العالم المسيحى . ولذلك انعقد المجمع فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م ، ولأول مرة

فى تاريخ الكنيسة اجتمع — على ما يقال — ثلاث مائة وثمانية عشر أسقفاً من أحبار الكنيسة ، قدموا من فلسطين وسورية وآسيا الصغرى ومصر وأفريقية وأسبانيا وبلاد القوط ، ولم يستطع أسقف رومية الحضور لكبر سنه وضعف صحته فأوفد اثنين من رجاله نائبين عنه . وكان بين المؤتمرين نساك من الصحراء ، ورجال بدت على جسومهم آثار الاضطهاد والتعذيب ، بل كان هناك أيضاً نفر من الفلاسفة الوثنيين الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى هذا المحفل العظيم . وكان آريوس هناك — رجلا أسمر البشرة ، نحيف القوام ، شاحب الوجه ، كليل العينين ، معقوص الشعر ، يرتدى ثياب الناسك الخشنة . وكان صوته جذاباً ، ساحراً فى قوة الكلام وحس التعبير . وإلى جانب أسقف الاسكندرية وقف شماس شاب ، له شعر أسمر مائل إلى الاحمرار ، وله لسان زلق قوى الحجة حلو الحديث . وقد أحضره الأسقف معه ليكون كاتم سره . ومع أنه كان شاباً فى مقتبل العمر ، فقد ذاع صيته بكتابين قيّمين أخرجهما للناس . أما ذلك الشاب فهو اثناسيوس بطل المسيحية فيما بعد .

وفى وسط القاعة أقيم عرش ، وضعت عليه نسخ من بشائر الانجيل ، وفى أحد أطراف القاعة مقعد صغير مذهّب وقف عنده الامبراطور قسطنطين فى ثيابه الأرجوانية المذهبة ، ينتظر الاذن من الأساقفة قبل الجلوس .

وقد ألح الامبراطور عند افتتاح المؤتمر على المصالحة والهدوء ، ولكن المناقشات اتخذت طريقاً عنيفاً ، واشتد الجدل والحوار حول مسائل الخلاف الكثيرة . وجاء دور مشكلة آريوس، فاستعان أسقف الاسكندرية وأنصاره بأقوال السفر المقدس وبقانون إيمان بسيط كان قد صاغه يوسيبيوس أسقف قيصرية . ولكنهم رأوا أن آريوس وأتباعه قد يقبلون هذه الألفاظ ولكنهم يعنون منها شيئاً آخر ، فبحثوا واجتهدوا حتى عثروا على لفظة يونانية (homoousion) ومعناها «جوهر» ليثبتوا بها أن المسيح من جوهر الله ، ومعادل له ، وصاغوا بعض عبارات قانون الايمان الذى عرف فيما بعد فى التاريخ بقانون الايمان النيقوى ومطلعه :

«أؤمن . . . و برب واحد يسوع المسيح ابن الله . . . إله من إله ، مولود غير مخلوق ، ذو جوهر واحد مع الآب . . . » .

وبذلك فضّ المؤتمر النزاع القائم . وقرر إبعاد آريوس وأتباعه إلى حين ، وحرق الكتاب الذى أودعه اراءه الملحدة .

وفى الكنيسة المسيحية اليوم ثلاثة قوانين إيمان تنطوى كلها على عقائد واحدة وإن اختلفت فى الصياغة طولا وقصراً . أو إيجازاً وإسهاباً . وأقدمها وأوجزها هو قانون إيمان الرسل ، وهو يعبر بعبارة مختصرة بسيطة عما كان يعلّم به الرسل الأولون عن الله الآب ، وربنا يسوع المسيح ، والروح القدس ، والكنيسة ، والغفران ، والحياة الأبدية . والثانى هو قانون الايمان النيقوى ، وسمّى هكذا لأن فى مجمع نيقية اتفق أحبار الكنيسة على صياغة ألفاظ معينة للتعبير بها عن طبيعة المسيح . وهو أطول من قانون إيمان الرسل ، وتتلوه بعض الكنائس فى عبادة الشركة المقدسة . أما الثالث فهو قانون إيمان اثناسيوس ، ولئن كان لم يكتبه بنفسه ، فانه يعبر عن إيمان القديس اثناسيوس ، ويقال إنه كتب فى القرن السادس ليُتلى كتسبحة بعد المزامير ، وهو لا يستعمل الآن إلا نادراً ، لأنه مطول مفصل .

ولم تسجل فى محاضر المجمع النيقوى الأقوال التى تفوه بها الشاب اثناسيوس ، ولكن الذى نعرفه أنه منذ ذلك التاريخ غدا رجلا عظيما فى تاريخ الكنيسة ، يعجب به الكثيرون ، ويبغضه الذين لم يكونوا معه على وفاق فى الرأى . وبعد المؤتمر بسنة واحدة ، سيم أسقفاً على كرسى الاسكندرية ، وقضى فترة من الزمن يكتب المؤلفات ويرعى شعبه فى هدوء وسلام . وبعد ذلك انقلبت حياته سلسلة من المخاطر والمعارك فى سبيل الايمان ، وذلك لأن قسطنطين وخلفاءه على العرش ، عادوا إلى محاباة آريوس وراحوا يضطهدون اثناسيوس وأنصاره اضطهاداً مراً ، فطرد إلى المنفى خمس مرات على أثر الدسائس التى حاكها أعداؤه والتهم التى أثاروها ضده . ومرة لجأ إلى حماية أسقف رومية ، وأكثر من مرة عاش طريداً متخفياً فى أديرة صحراوات مصر ، يتنقل من مكان إلى آخر متنكراً ، والرهبان يخفون أمره ويتسترون عليه . ومن مخابئه بعث برسائل إلى أصدقائه الذين كانوا يبكون كنائسهم التى أُنتزعت منهم وسلّمت إلى الآريوسيين .

ومرة أحاط الجند بكنيسته ، وذبحوا العابدين ذبح الأغنام ، وأخرجوا المذبح والستائر وأحرقوها فى الطريق العام ، ونجا هو بحياته . ومرة فر فى زورق

فطارده أعداؤه ، ولكنه نجا من أيديهم بحيلة غريبة . وكانت أشد الضربات على نفسه هجر أصدقائه له ، وقبولهم عقيدة آريوس ، لا لأنهم آمنوا بها حقاً ، بل خشية العقاب والموت . وكاد يكون وحده فى هذا النضال القاسى ، ولكنه ما تردد ولا تزعزع ، وخلد بعده المثل المأثور «اثناسيوس ضد العالم كله» لوصف كل بطل يناضل وحده فى معركة عنيفة .

انتصرت الآريوسية مدى حين فى الشرق بفضل تعضيد الامبراطرة الذين ارتدوا عن الايمان القويم ، ولكنها لم تستطع البقاء طويلا ، وذلك لأنها انقسمت على نفسها شيعاً وأحزاباً . وجاء الامبراطور ثيودوسيوس — وكان من أنصار اثناسيوس — واستدعى مجمعاً مسكونياً ثانياً فى القسطنطينية (سنة ٣٨١ م) فأقر مرة أخرى قانون الايمان النيقوى أساساً لعقائد الكنيسة الجامعة . وانطفأت شعلة الآريوسية من تلقاء نفسها ، لأنه أعوزتها قوة المقاومة واحتمال عواصف التاريخ . وكانت تلك الهرطقة المحاولة الأولى لاحلال الفلسفة العقلية المنطقية محل الايمان المسيحى ، فباءت فى آخر الأمر بالخيبة والفشل . وانتصرت العقيدة النيقوية التى ميزت، وفى الوقت نفسه وحدت جوهر الآب والابن ، وصاغت عقيدة الثالوث المقدسة ، عقيدة الوحدانية الالٰهية فى ثلاثة أقانيم . وعندنا أن انتصارها يرجع إلى أنها قد أعلنت — وفى الوقت نفسه أخفت فى وقار وخشوع — سرّ طبيعة المسيح . وبهذا السر العميق تعلق رجاء الكنيسة مدى الأجيال ، وهو سرٌّ وقفت أمامه الانسانية خاشعة متهيبة تحاول الوصول إلى أغواره ، ولكن هيهات أن تفلح ، فان الالٰه الذى يدركه العقل البشرى ويحيط به إحاطة تامة يبطل أن يكون إلهاً .

وبعد مجمع نيقية المسكونى ، انعقدت مجامع مسكونية أخرى لفض الاشكالات الدينية التى ثارت حول طبيعة المسيح وذاته ، وغير ذلك من الخلافات الكنسية ، وسميت تلك المجامع مسكونية لأنها ضمّت ممثلين من كافة الهيئات والعناصر المسيحية . ففى سنة ٣٨١م انعقد مجمع القسطنطينية ، وفى سنة ٤٣١م مجمع أفسس ، وفى سنة ٤٥١م مجمع خلقيدونية .

***

وكما حفل هذا القرن بالحوادث البارزة حفل أيضاً بالشخصيات العظيمة .

فهو القرن الذى برز فيه أمبروز و إيرونيموس ، والآباء الكبدوكيون الثلاثة العظماء ، وهو القرن الذى استهله اثناسيوس وختمه أوغسطينوس . ونرانا هنا مضطرين إلى ذكر بعض أولئك العظماء المجاهدين الذين كان لهم شأن خطير فى تطور الحوادث فى تلك الفترة من التاريخ المسيحى :

يوحنا فم الذهب :

من الشخصيات البارزة فى تلك الفترة القديس يوحنا فم الذهب (٣٤٧—٤٠٧) وقد رسم شماساً فى سنة ٣٨١م ، فكاهناً فى مدينة أنطاكية سنة ٣٨٦م وقد ذاع صيته كواعظ قدير . وكانت الجماهير الحاشدة تهرع إلى سماعه ، بحيث هيأ زحامها فرصة للنشالين والسارقين ، واضطر فى آخر الأمر إلى أن يحذر جماهير سامعيه ليتركوا أكياس نقودهم فى دورهم . وقد خلعت عليه فصاحته وزلاقة لسانه لقباً عرف به فى التاريخ « فم الذهب » أو « ذو الفم الذهبى » . وفى سنة ٣٩٧م سيم أسقفاً على كرسى القسطنطينية ، فبدأ بذلك متاعبه وأعباء حياته . ولم يكن الاقبال عليه هناك أقل منه فى أنطاكية ، ولكن خشونة طباعه وحدته فى التشهير بالأشرار قد أثارت ضده عداء رجال البلاط والكهنة وطبقات الأغنياء . وقد أغضب بصفة خاصة الامبراطورة التى شبهها فى إحدى عظاته ، مرة بايزابل الشريرة وأخرى بهيروديا الخليعة . وكان بطريرك الاسكندرية ، ثاوفيلس ، عدواً له ، فأصدر عليه حكماً فى مجمع محلى عقده على مقربة من القسطنطينية . وقد تآمر عليه هؤلاء الأعداء وأفلحوا فى الحصول على حكم بنفيه فى سنة ٤٠٣م ولكن محبة الشعب له وتعلق العامة به حالا دون تنفيذ هذا الحكم ، واضطر أرباب السلطان إلى إعادته خشية نشوب ثورة الدهماء . وكل هذا لم يرهبه ولم يفقده شيئاً من شجاعته فى الحملة على الأشرار وفضح أعمالهم ، حتى آل الأمر إلى نفيه فى السنة التالية ، وبقى فى منفاه حتى قضى نحبه من فرط ما عانى من سوء المعاملة والقسوة الوحشية .

ويحسب يوحنا فم الذهب أوفر الكتاب إنتاجاً بين الآباء الأولين ، وأكثرهم تقوى وورعاً وقداسة ، لم يدانه أحد فى اكتساب قلوب عامة الشعب ،

ولكنه فشل فى استمالة رجال الحكم والسلطان إليه . وموقفه من هذه الناحية أشبه بموقف زميل فى الغرب معاصر له ، هو القديس أمبروز أسقف ميلان الذى ألمحنا إلى ذكره فى هذا الفصل .

الأسقف سينسيوس :

ولعله من الشائق حقاً أن نذكر اسم زعيم آخر من طراز غير الطراز الذى نعرفه ، يمثل لنا صورة تختلف كل الاختلاف عن الصور التى ألفنا رؤيتها فى القرون الأولى من تاريخ المسيحية — أما ذاك فهو الأسقف سينسيوس وكان من مواطنى ليبيا فى أفريقية الشمالية التى سميت فى التاريخ القديم « سيرانيكا » . وقيل عنه انه من سلالة الاغريق الذين غزوا هذه الرقعة الأفريقية قبل ألف عام من ذلك التاريخ . وبعد أن درس فى مدرسة الاسكندرية تحت قدمى هايبشيا الفيلسوفة التى أعجب بها كل الاعجاب ، انتقل إلى موطنه ، وانصرف إلى إدارة أملاكه الواسعة ، وقضى معظم وقته فى الفلاحة والكتابة والدرس والصيد . وفى موضوع الصيد والقنص كتب أول مؤلفاته ، وكان قنص النعام من أعز مطالبه . كذلك قرض الشعر ودرس علم التنجيم واخترع منظاراً لقاع البحر .

ولما غزت بلاده قبائل قطاع الطرق الذين خرجوا عليها من مجاهل الصحراء تولّى هو تدبير الدفاع ، فسلح الفلاحين والزراع وعبيده الذين يملكهم ، وابتكر أسلحة جديدة للدفاع عن الوطن .

وفضلا عن هؤلاء الغزاة من الخارج ، فان أهل « سيرانيكا » قد أوقعتهم الأقدار تحت يد حاكم ظالم مغتصب . ولذلك لما خلا كرسى الأسقفية فى « بتولمايس » (وهى الآن ميناء صغيرة تقع بين درنة وبنغازى) ، أجمع الشعب كله على اختيار سينسيوس لهذا المنصب ، ووافق على ذلك أساقفة الولاية كلهم ، كما وافق تيودور أسقف الاسكندرية ، وكان رئيساً لهؤلاء . أما سينسيوس نفسه فقد تمنع وتردد، وحسب نفسه غير أهل لهذه الوظيفة ، وخشى أن يحرم ملذات الصيد والقنص واللذات الأخرى التى استهوته . وعلى قوله « جثيت على ركبتىّ طالباً الموت أولى من كرسى الأسقفية » .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

وبعد لأى نزل على إرادة الشعب ، ولكنه اشترط أن يحتفظ بزوجته ، وكان الأساقفة لا يتزوجون عادة . وفى هذا كتب يقول : « إن الله نفسه ، وشريعة البلاد ، ويد ثاوفيلس المباركة ، قد وهبتنى هذه الزوجة ، ولذلك أعلن أمام الملأ أنى لن أنفصل عنها ، وأرجو أن يرزقنى الله نسلا صالحاً يمجده على الأرض » .

وقد سيم أسقفاً على بتولمايس مسقط رأسه فى سنة ٤١٠م ووقع له ما كان يخشاه . فلم يعد يجد فراغاً من الوقت لاشباع نفسه بالأمور التى أحبها ، وقضى حياته فى كفاح مع السلطة الحاكمة لتبتعد عن كل تدخل فى الشئون الدينية ، وفى كفاح أيضاً مع الغزاة الذين مانتئوا يغيرون على البلاد بين الفينة والفينة ، وذلك لأن عبء الدفاع عن الوطن ظل على منكبيه حتى بعد رسامته نزولا على رغبة الشعب . وهو أول أسقف دون التاريخ اسمه بين صفوف المحاربين ، وإن يكن قد فعل ذلك دفاعاً عن شعبه ضد السلب والنهب والقتل .

على أنه مع هذا كله ، قد قام بواجباته الأسقفية فى مدته القصيرة على أحسن ما يؤدى المرء واجبه فى نشاط وإخلاص وولاء .

القديس مارتن :

ومن قبل أشرنا إلى القديس أمبروز فى الغرب وهو من زعماء الكنيسة فى تلك الفترة من تاريخها . بقى أن نذكر اثنين آخرين وهما القديس مارتن والقديس إيرونيموس .

ويحسب مارتن عالماً من علماء الكنيسة ، وإن لم يكن من كتابها البارزين . وقد ولد سنة ٣١٥م فى مكان يقرب من مدينة بودابست الحديثة . وقد استمالته المسيحية من بدء حياته وأراد أن يكون راهباً ، ولكن والده حال بينه وبين ذلك ، وأمره أن ينخرط فى سلك الجندية حيث قضى سنوات فى الجيش العامل . وفى يوم من أيام الشتاء القارصة — وهو مع فرقته فى مدينة أميان بفرنسا — تقدم إليه شحاذ يكاد يكون عارياً وطلب إحساناً . ولم يكن لديه شىء من النقود ، فانتزع مارتن عباءته وشقها نصفين وأعطى نصفها لذلك

الشحاذ المسكين . وخيِّل إليه فى تلك الليلة أنه شهد المسيح نفسه مرتدياً هذه الشقة من العباءة . وكانت تلك الرؤيا الحد الفاصل بين حياة قديمة وأخرى جديدة ، فطلق خدمة الجيش وصار تلميذاً لأحد الأساقفة ، وأنشأ فى سنة ٣٦١ أول دير فى بلاد الغال ، أى فرنسا الآن .

وفى سنة ٣٧١م سيم أسقفاً على أبرشية « تور » فى فرنسا . ولما رأى كثرة طلابه ومريديه ، اختلى إلى غار فى جرف يشرف على نهر اللوار ، لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق وعر منحدر . وهناك تبعه ثمانون من طلابه واحتفر كل منهم لنفسه غاراً فى الصخرة يأوى إليه ، وقد ارتدوا جميعاً جلود الأغنام ، ولم يأكلوا إلا وجبة واحدة فى اليوم ، وأفرطوا فى حياة التقشف والزهد . وكان معظم الفلاحين فى أبرشيته وثنيين ، فجعل همه الأول إهداءهم إلى دين الحق ، وأخذ على عاتقه أن يهدم الهياكل الوثنية ويقيم الكنائس على أنقاضها . وكان رحيماً شفوقاً باراً بالفقراء والمذنبين . وحدث مرة أن الكونت أفيتانوس حاكم الولاية جاء إلى « تور » ومعه نفر من الأسرى كان قد حكم عليهم بالاعدام . فذهب مارتن فى تلك الليلة إلى باب الكونت وأخذ يصيح حتى أيقظ صاحب البيت ، ولما خرج ألفى الأسقف مارتن مطروحاً على عتبة الدار ويداه ممدودتان بالتوسل والاستعطاف . فرفعه الكونت وطيَّب خاطره ووعده أن يستبقى حياة الأسرى إكراماً له واستجابة لطلبه الصامت .

وحدث مرة أخرى أن شخصاً يدعى « بريسكلان » وزملاء له اتُّهموا بالهرطقة ، فجئ بهم أمام الامبراطور مكسيموس وألح الأساقفة الذى دانوهم بالهرطقة على إعدامهم . ولكن مارتن احتج على المجئ بالمتهمين أمام سلطة عالمية وأصر على أن فى حرمانهم العقاب الكافى . ولم يغادر بلاط الامبراطور حتى وعده بالعفو عنهم . ولما ذهب أقبل الأساقفة الآخرون وأقنعوا الامبراطور بالعدول عن وعده ، وفعلا قطعت رأس بريسكلان وآخر معه . وكانت هذه أول مرة أُهرق فيها دم إنسان بسبب الهرطقة .

ولما بلغ الخبر أسماع الأسقف مارتن غضب غضباً شديداً وأبرم على نفسه عهداً ليقطعنَّ كل صلة بالأساقفة الذين حملوا الامبراطور على إتيان هذه الفعلة الشائنة . وأراد بعد ذلك أن يتشفع لدى الامبراطور عن نفر آخر من أنصار

« بريسكلان » كان قد حكم عليهم بالاعدام . فأبى الامبراطور إجابة التماسه إلا إذا أعاد صلته المقطوعة بالأساقفة الآخرين ، فاضطر إلى الاذعان إبقاء على حياة المتهمين ، ولكنه فعل ذلك تحت وخز ضمير لم يهدأ له روع إلى آخر حياته .

ومات فى سنة ٤٠١م وودعه إلى مقره الأخير ألفان من الرهبان الذين أحبوه وأخلصوا له . وكانت صفاته وأخلاقه فى عصره مصدر قوته وعظمته وعلو كعبه بين عامة الشعب الذين رأوا طرازاً جديداً من القداسة وإنكار الذات والغيرية .

القديس ايرونيموس :

ومن أبطال تلك الفترة القديس ايرونيموس ، وهو صاحب ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية . وقبل عصره كانت الترجمات اللاتينية لأسفار العهد القديم منقولة عن الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية . فتولى ايرونيموس ترجمة أسفار العهد الجديد عن اليونانية ، ونقل أسفار العهد القديم عن الأصل العبرى ، وقد تعلم العبرية لهذا الغرض بعد جهاد طويل شاق وعمل متواصل مضن . وقد بقيت ترجمته المرجع المعترف به فى الكنيسة الغربية إلى عهد الاصلاح ، وما فتئت حتى اليوم الترجمة الرسمية فى الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلا عن هذا العمل الجليل الخالد ، ترجم أيضاً بعض كتابات أوريجانوس وكتب عدة بحوث لاهوتية . وكان له شغف شديد بكتابة الرسائل ، وقد خلد للكنيسة تراثاً لا يفنى من الرسائل الحافلة بشتى المعلومات عن حياة الكنيسة فى عصره .

وكان قد اعتزم فى أيام شبابه على أن يصير راهباً ، ولكنه لم ينفذ هذا العزم فعلا إلا بعد أن رأى رؤيا فى خلال مرض أصابه وهو فى أنطاكية . وفى تلك الرؤيا تمثل نفسه واقفاً أمام كرسى دينونة الله ، وسمع سؤالا : « من أنت ؟ » فأجاب « أنا مسيحى » . ولشد ما كانت دهشته أن يسمع الصوت يقول له :

« أنت تكذب . لست مسيحياً » . وبعد هذه الرؤيا بقليل بدأ حياة النسك فى صحراء قريبة من أنطاكية ، حيث قضى خمس سنوات . وفى وصف حياة التقشف كتب يقول : « تهرّأ جسمى من لفحات الشمس المحرقة ، واكتنفتنى الحيّات والعقارب ، واصفر وجهى من الصوم ، وتشوهت أعضاء جسمى من الجلود الخشنة ، واسودّ لون جلدى من فرط الاهمال حتى صار كلون عبد حبشى . كان نصيبى طول اليوم الدموع والتأوهات . . . » .

على أن زملاءه النساك الآخرين فى الصوامع والخلوات ، لم يكونوا راضين عنه ، واتهموه فى عقيدته ، وحاول عبثاً أن يدفع عنه هذه التهمة بالاقرار والاعتراف ، وأخيراً اضطر إلى أن يعود إلى العالم وبعد أن قضى زمناً فى رومية ، انطلق إلى فلسطين فى سنة ٣٩٦م وعاش هناك راهباً إلى آخر حياته فى سنة ٤٢٠م .

القرن الخامس

[بدء النزاع بين الغرب والشرق — انهيار الدولة الرومانية الغربية — رومية تنازع القسطنطينية — بندكت ورهبنته] .

رأينا فى فصل سابق أن دستور الكنيسة ونظمها وضعت على أسس النظام الامبراطورى فى الدولة الرومانية ، فكان للمدينة وما حولها أسقف محلى ، وكان لعاصمة الولاية أسقف يشرف على عدد من الأبرشيات الصغرى ، ومن القرن الرابع تألفت وحدات من الولايات المتقاربة على نحو ما اتبع فى الامبراطورية ، وأقامت عليها كبيراً للأساقفة ، أطلق عليه فيما بعد لقب « بطريرك » .

وكان هذا التنظيم مما عُنى به مجمع نيقية ، وأقر سلطان أسقف عاصمة الولاية metropolitan بالاشتراك مع المجامع الاقليمية ، على أساقفة وكنائس ولايته . على أنه كان لبعض تلك الأبرشيات الرئيسية مقام ممتاز خلعته عليها التقاليد التاريخية ، فأقر المجمع أيضاً الامتيازات التقليدية التى تمتعت بها تلك الكنائس ، وقد خصّ بالذكر كنائس رومية والاسكندرية وأنطاكية ، عواصم الامبراطورية الثلاث . فكان لكرسى الاسكندرية سلطان على مصر والبلدان المجاورة ، ولكرسى أنطاكية سلطان على سورية والأقاليم المتاخمة لها فى الامبراطورية الشرقية ، ولكرسى رومية سلطان على إيطاليا وما جاورها .

والآن يظهر أسقف القسطنطينية — أو بيزنطة — قوة جديدة فى دستور الكنيسة . فبعدأن صارت بيزنطة — كما كانوا يسمونها قديماً — العاصمة الثانية للامبراطورية أحسّ أسقفها أن من حقه بأن يحتل مكاناً بين أساقفة المدن

الأخرى الكبرى ، وخاصة بسبب علاقاته مع السلطات الامبراطورية . وفى مجمع القسطنطينية الذى انعقد فى سنة ٣٨١ م. أُعطى أسقف بيزنطة رتبة فى الكنيسة تلى رتبة أسقف رومية مباشرة، وفى مجمع خلقيدونية فى سنة ٤٥١م تقرر أن تضم إليه الأبرشيات الثلاث الكبرى فى تراقية وآسيا الصغرى وبونطس، وبذلك خضع له أساقفة هرقلية وأفسس وقيصرية .

كذلك راعى مجمع نيقية مكانة أسقف أورشليم ، فخلع عليه كرامة ممتازة ، لأن أورشليم هى مهد المسيحية وأم الكنائس كلها . وما حل النصف الأخير من القرن الخامس حتى غدت الكراسى الخمسة الكبرى فى رومية والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية وأورشليم مراكز الرئاسات العليا للعالم المسيحى التى يُرجع إليها فى تصريف شئون الكنيسة المسيحية ، وصار أساقفتها « بطاركة » وأن يكن لقب « بطريرك » لم يعرف رسمياً قبل القرن التاسع . ولكن خول اللقب الجديد على أى حال ، لكل من هؤلاء الخمسة ، رتبة «الأب الأعظم» أو «بابا» المسيحية. والآن تبدو فى الأفق مشكلة أخرى، هى مشكلة الرئيس الأعلى للكنيسة ، ومن سيكون بين هؤلاء الخمسة الرئيس الأكبر للمسيحية كلها ...

ويشهد التاريخ على أن من غرائز الامبراطورية الرومانية فى كل تاريخها أن تقبض على أعنة العبادة الدينية الرسمية وتجعل رجال الدين الرسميين آلات طيّعة يأتمرون بأمرها . وأسقف القسطنطينية هو الآن أسقف البلاط الامبراطورى يتنقل بين مظاهر الأبهة والجلال ، وهو صنيعة الامبراطور الجالس على العرش ، ولا تسنده فى كرسيه تقاليد ولا امتيازات كنسية كما هو الحال فى رومية أو أنطاكية مثلا ، فكل سلطته مستمدة من العرش ، وكل كسب لهذا الأسقف هو فى الواقع كسب للعرش . لذلك حمل العرش هذا الكرسى — وهو أحدث الكراسى المسيحية — فوق أجنحة النسور ، وسما به ليمسك بين يديه سلطاناً على الكنيسة . وكان معنى القرارات التى اتخذها مجمع القسطنطينية (سنة ٣٨١م) ومجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م) ، أن رئيس الكنيسة الأعلى ليس أسقف رومية ولا أسقف الاسكندرية ولا غيرهما ، بل الامبراطور ذاته . وكأنما كان عبثاً أن تناضل الكنيسة لوضع دستورها ونظامها لكى تقدم فى آخر الأمر تاجاً لرئيس أرضى .

أفلم يكن فى الكنيسة سلطة ما تتحدّى الامبراطورية ،وتدافع عن استقلالها ضد رئيس هذا العالم ؟

هنا انبرى أسقف رومية للنضال مع القسطنطينية ، وقد أيده فى هذا النضال كل الموارد والتقاليد الكنسية ، وذلك لأن قضيته فى تلك الفترة كانت قضية حرية الكنيسة . وكان الحديث متواتراً منذ القرن الثانى أن كنيسة رومية قد أسسها الرسولان بولس وبطرس ، وأن أسقف رومية هو خليفة بطرس ، أمير الرسل . وإذا كان بطرس هو الصخرة التى أقيمت عليها الكنيسة ، وجب إذاً ان يكون أسقف رومية خليفته هو صخرة الكنيسة . (ومن ذلك التاريخ نشأت فكرة الخلافة الرسولية التى تتشبث بها الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم) .

***

رأينا كيف تطورت سلطة أسقف القسطنطينية تطوراً سريعاً ، وارتقى من رتبة أسقف بسيط خاضع لكرسى هرقلية إلى رتبة علت به فوق الأساقفة الآخرين . ورأينا كيف أخضع مجمع خلقيدونية لسلطانه ثلاثاً من الأبرشيات الكبرى ، ثم أخضع له أيضاً الكنائس الأخرى ، ليصير — وهو ليس أقدم ولا أعظم الكراسى الدينية — سيداً على الجميع وأسقفاً للأساقفة . فكيف تم له ذلك كله ؟

عند موت الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م انقسمت الامبراطورية الرومانية بين ولديه الشابين : اركاديوس للامبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة ، وهونوريوس للامبراطورية الغربية وعاصمتها رومية . وكان اعتلاؤهما العرش فاتحة عصر جديد فى التاريخ ، هو بداية انهيار الامبراطورية بغزوات برابرة الشمال من قبائل القوط والفاندال والهون . وفى سنوات ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ م على التوالى حاصر ألاريك قائد البرابرة مدينة رومية ثلاث مرات . وفى المرة الأولى قبل الفدية . وفى المرة الثانية سلّمت المدينة وأقام على العرش صنيعة من صنائعه ، ثم سار بحافله إلى « رافنا » مقر الامبراطور للمطالبة بتأييد سلطانه . وإذ يرفض طلبه ، يعود أدراجه ليدخل المدينة عنوة ، وتمسى رومية الخالدة ، سيدة العالم ، فريسة سائغة للسلب والنهب بأيدى أولئك البرابرة .

على أن ألاريك ورجاله كانوا قد عرفوا المسيحية — وإن تكن مسيحية آريوس — فأمر جنوده بعدم المساس بحياة أحد من الناس وصيانة الكنائس الرسولية . ويروى أحد مؤرخى ذلك العصر قصة مأثورة تدل على الاحساس الدينى فى نفوس الغزاة : قال إن جندياً دخل مسكن عذراء مسيحية عجوز للسلب والنهب ، وأمرها أن تسلم ما لديها من كنوز . وكانوا قد أخفوا عندها آنية الكنيسة الكبرى وزينتها . فأظهرت فى هدوء وجلال ما لديها من كنوز للجندى الذاهل — آنية من الذهب الخالص كبيرة الحجم دقيقة الصنع . وقالت له : «هذه ملك القديس بطرس ، وأنا امرأة لا حول لى ولا طول لا أستطيع صيانتها ، ونفسى طاهرة تقية ، فخذ هذه الآنية إن شئت وقدم حساباً لله . . .» .

فما كان من هذا الجندى إلا أن بعث برسالة إلى قائده ألاريك . وتلقى منه الأمر أن تؤخذ هذه العذراء الطاهرة ومعها الكنوز فى حراسة الجند إلى الكنيسة الكبرى لتوضع الآنية فى مكانها .

ولكن القصور والهياكل الوثنية نُهبت كل كنوزها وذخائرها ، وأمسى كثيرون من أفراد الأسر العريقة عبيداً أرقاء ، وهرب نفر كبير إلى مدائن أفريقية ومصر والشرق حتى غصت بهم .

وكان أسقف رومية غائباً فى « رافنا » يستنجد عبثاً بالامبراطور . ولما عاد وجد رومية القديمة قد عبثت بها أيدى الدمار والتخريب ، والمجتمع الرومانى القديم قد تبعثر وتشتت . أما الكنائس وبيوت الشعب فلم يمسها ضر . انهارت رومية الوثنية ، وقامت على أنقاضها رومية المسيحية . وغدا الأسقف أعظم رجل فى رومية ، وزاد على الأيام سلطانه ونفوذه ، واحتفظ بأمواله وأملاكه وكنائسه .

أما الدولة الشرقية فكانت أوفر حظاً من الغربية ، ولئن تكن قد فقدت بعض أطرافها ، إلا أنها بقيت محتفظة بعاصمتها ودستورها وحضارتها ودينها إلى القرن الخامس عشر .

***

والآن لنعد إلى منشأ النزاع بين الشرق والغرب :

كانت الامبراطورية الغربية — حتى قبل انهيارها — قد أسست ظلا وأمسك الامبراطور الشرقى فى بيزنطة أعنة السلطان على العالم الرومانى .

وكانت رومية فى ذلك الحين الكرسى الرسولى الوحيد فى الغرب ، يرتبط بوشائج من الاتحاد مع أفريقية اللاتينية وقرطاجنة وأسبانيا وبلاد الغال ، وكان له النفوذ الأعلى فوق الكنائس كلها . ولا يفوتنا أن رومية كانت عاصمة العالم يومئذ ، المدينة الخالدة ، سيدة المدائن كلها . وكان لجماعة رومية المسيحية منذ عهد الرسول بولس فضل السبق والتقدم على الجماعات الأخرى حتى فى الشرق . فكل الخلافات العقائدية التى ثارت فى القرون الثلاثة الأولى قد بتّ فيها بعد استشارة الكنيسة فى رومية ، ونبتت فكرة الأسقفية ، والقانون الكنسى ، والكنيسة الكاثوليكية الجامعة ، فى رومية أولا ، وهى الكنيسة الأم للمسيحية الكاثوليكية (ونقصد بذلك المسيحية الجامعة) . فضلا عن ذلك فقد كان لها من سعة الموارد المالية ، وكثرة عدد الأعضاء ، والسخاء فى الاعانات ، ما قوى نفوذها ، لا فى الغرب فقط ، بل فى اليونان وآسيا ، وانتقل هذا النفوذ من الكنيسة إلى أسقفها ، حتى لقد استطاع فى نهاية القرن الثانى أن يصدر حكم الحرمان على كنيسة آسيا الصغرى فى مسئلة الخلاف حول موعد الاحتفاء بعيد الفصح كما رأينا من قبل .

بكل هذه الموارد الروحية والتقليدية والمادية ، تقدم أسقف رومية للنضال ضد مطالب القسطنطينية ، التى كانت مطالب الامبراطورية . وكان إعلان القسطنطينية عاصمة ثانية للامبراطورية قبل قسمتها الضربة الأولى التى وجهت للحد من نفوذ أسقف رومية ، فكلما مال مركز الثقل فى الامبراطورية إلى الشرق ، زادت القسطنطينية نفوذاً ، وغدا أسقفها الرئيس الروحى الأعلى الذى تسير وراءه كل الشعوب اليونانية فى الشرق ، وقد بدا هذا الميل بازراً فى مجمعى القسطنطينية وخلقيدونية .

وقد أفادت رومية من شىء آخر فى هذا النضال ، فالهرطقة الآريوسية كانت قد سوّيت فى مجمع نيقية ، ولكن جلس خلَف قسطنطين على العرش فاحتضن هذه الهرطقة التى ألفت مرتعاً خصيباً فى كل ربوع الشرق . وكان من جراء هذا الانتكاس أن عُزل اثناسيوس من كرسى الاسكندرية ، وفر إلى رومية طالباً

معونة أسقفها وحماه ، وبينا حاد الشرق ، ظل الغرب أميناً للايمان النيقوى بزعامة أسقف رومية ، ولم يكن اثناسيوس هو الأسقف الوحيد الذى استأنف قضيته أمام رومية ، فان أساقفة الشرق الآخرين الذين آثروا الاعتصام بالايمان القويم ضد الهرطقة الآريوسية حذوا حذوه ، وقد هيأ هذا كله فرصة لرومية لتتدخل كرئاسة عليا فى منازعات الكنائس كلها حتى الشرقية . وأصدر مجمع فى رومية برئاسة أسقفها يوليوس قراراً باعادة اثناسيوس إلى كرسيه وبطلان قرار عزله . وقد اعترض أساقفة الشرق الموالون للآريوسية على هذا القرار ، ولكن اعتراضهم لم يغير من الأمر الواقع شيئاً ، وهو أن كرسى رومية قد غدا الآن ذا نفوذ وكرامة بين الكنائس كلها فى الغرب والشرق . وأفلح أسقف رومية فى دعوة مجمع عام فى سنة ٣٤٣م فى مدينة صوفيا — عاصمة بلغاريا الآن — وقد انقسم الأساقفة حول الخلافات العقائدية ، وانشطر المجلس، فعقد أساقفة الشرق الآريوسيين مجمعاً خاصاً لهم فى «فيلبوبوليس» ، وظل الباقون فى مجمع صوفيا حيث أجمعوا على إعطاء أسقف رومية حق البت فى قضايا الاستئناف التى تقدم له من الأساقفة المعزولين . وفى مجمع صوفيا هذا تأيدت السلطة البابوية ، وأقر الغرب وبعض أساقفة الشرق سلطة وزعامة أسقف رومية .

وفى ختام القرن الرابع انتهى الخلاف الناشب بهزيمة الهرطقة الآريوسية ، وكان انتصار قانون الايمان النيقوى انتصاراً لرومية . ألم توصم أهم الكراسى الأسقفية فى الشرق بوصمة هذه الهرطقة البغيضة ؟ وأية كنيسة غير كنيسة رومية حملت لواء الأرثوذكسية الصحيحة فى هذه المعارك كلها ؟ والآن تتحداها القسطنطينية بكرسيها ، فتستمد رومية من ماضيها ومن نضالها الطويل وتقاليدها عزيمة لكبح جماح السلطة الزمنية التى تروم الافتئات على السلطة الروحية .

ثم كانت تلك السيول الجارفة من الشعوب الجرمانية فى الشمال التى زحفت إلى الجنوب واكتسحت أمامها الامبراطورية الغربية كما تقدم ، وانتزعت منها سيادتها وأذلت كبرياء رومية . وكان سقوط الامبراطورية فى الغرب فرصة أتاحت للكنيسة التخلص من السلطة الزمنية التى كانت قد تركزت فى القسطنطينية . فلما أقر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م) سلطان القسطنطينية ومنح أسقفها حق الزعامة والتقدم ، احتج مندوبو أسقف رومية احتجاجاً قوياً ، ووقف

الخصمان وجهاً لوجه . وقد توقف سير التاريخ فى المستقبل على نتائج هذا الصراع ، فقد كان بداية المقاومة العنيفة التى أدت فى آخر الأمر إلى شطر الكنيسة إلى معسكرين : الكاثوليكية واليونانية .

بدأت المسيحية كتلة واحدة هائلة عظيمة ، مثلها مثل دوحة وارفة الظلال نمت من حبة خردل صغيرة ، وتوزعت ثمارها فى المشارق والمغارب ، وجاءت الشعوب لتحتمى تحت أغصانها . وبعد القرون الأولى لاحت سحب قاتمة تنذر بهبوب زوبعة عاصفة ، ومن وسط هذا القتام نفذت الصاعقة التى شطرت جذع الدوحة العظيمة إلى قسمين . من أجل مطامع أسقفين ، وبسبب انقسام الامبراطورية الرومانية نصفين ، لاتينية ويونانية ، وبسبب قيام عاصمة ثانية فى القسطنطينية إلى جانب روسية القديمة ، انشطرت الكنيسة المسيحية الواحدة شطرين . . .

وكان هذا الانقسام بداية الأوجاع التى نعانيها اليوم ، وأول بادرة من بوادر الغمّة الأليمة التى تبسط ظلمتها على القلوب المخلصة الأمينة ، والتى أفقرت الكنيسة الجامعة فى كل نواحى حياتها . وحين نفكر فى الانقسام الأول فى تاريخ الكنيسة بين الشرق والغرب ، من ذا الذى تخامره ريبة فى أن الكنيسة الشرقية قد تألمت من فقدانها الاتجاهات العملية القوية فى كنيسة الغرب ، كما أن الكنيسة الغربية بجنوحها إلى النزعة القانونية الجامدة كانت تنتفع كثيراً لو أنها اتحدت بالكنيسة الشرقية التى امتازت بنزعتها الفلسفية التعبدية القوية . ألم يكن هذا الانفصال الذى بدت بوادره فى هذه الفترة عاملا لافقار الكنيستين معاً ؟ ثم هناك الانقسام الآخر فى عهد الاصلاح بين الكنيسة الكاثوليكية الكبرى وبين الكنائس البروتستانتية — الذى سيجئ عنه الكلام فيما بعد — فان الكنيسة اللاتينية ظلت خاضعة لتلك النزعة القانونية الجامدة ولم تتأثر بالحوافز الحرة فى البروتستانتية ، بينما جنحت الكنائس البروتستانتية ذاتها إلى التعدد شيعاً وطوائف تحصى بالمئات ، لأن ميولها إلى الحرية لم تتزن بتلك المؤثرات القانونية المركزة فى الكنيسة الكاثوليكية .

الراهب بندكت :

كان القرن الخامس فاتحة انهيار الامبراطورية ، وكان أيضاً بداية النزاع بين الغرب والشرق ، وكان فقيراً فى الحركات الجديدة ، وفقيراً أيضاً فى الشخصيات البارزة . على أنه من وسط هذه الغمائم يخرج نور يشق سدفة الظلام ، ذلك أن رجلا إيطالياً يدعى « بندكت » عريق المحتد ، نهض واتخذ طريقه إلى كهف على مقربة من أحد قصور نيرون الخربة فى « سبياكو » ، وهناك أقام فترة من الزمن يصوم ويصلى ، كما فعل القديس أنطونيوس المصرى من قبل .

وكانت فكرة الرهبانية قد انتقلت من الشرق إلى الغرب ، وذلك لأنه لما سافر القديس اثناسيوس إلى رومية سنة ٣٣٠ م صحب معه راهباً من وادى النطرون يدعى أمونيوس . وكانت الرهبنة فكرة لم تخطر على الغرب ببال ، فاستهواهم ما فيها من تعبد وروحانية ، وابتعاد عن شرور العالم ومنكراته ، وسمو الروح الانسانية فى هدأة النسك والاعتزال . ولما اعتزم أتباع القديس إيرونيموس التزام العفة وضبط الشهوة لم يعتزلوا فى أديرة فى أول الأمر ، ولكنهم ذهبوا إلى خلوة فى فلسطين كما فعل معلمهم إيرونيموس .

ولم تتخذ الرهبانية فى الغرب شكلا منظما إلا يوم هرع الراهب بندكت إلى ذلك الكهف فى سنة ٥٠٠ م وتبعه جمهور من تلاميذه ومريديه . وبعد إقامته ثلاث سنوات فى ذلك الكهف طرده أعداؤه من « سبياكو » ، فانطلق مع أتباعه إلى جبل كاسينو على مقربة من نابولى ، وهناك هدم هيكلا قديماً للاله أبولو وأقام على أنقاضه ديراً ، هو الأول فى تاريخ المسيحية فى الغرب(١) . ومن هذا الدير خرج رهط من الرجال ، لم يحملوا سيوفاً فى أيديهم ، بل أمسكوا بدلا عنها المحاريث لاستغلال الأرض واستنباتها ، والأقلام لكتابة الرسائل والمؤلفات . وبهذه الوسيلة الهادئة المسالمة تغلبوا على الغزاة ، وأعادوا إلى الامبراطورية مجدها البائد .

---

(١) دير جبل كاسينو هو الدير المشهور الذى دارت حوله معارك عنيفة بين الألمان والحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وقد اتخذه الألمان حصناً لمناعته ، وتهدم منه جزء كبير بقنابل المحاربين ومدافعهم .

وكان دير بندكت طرازاً جديداً من الأديرة . فهو قد عرف أن كثيرين قد يرتضون طائعين مختارين أن يهبوا أنفسهم لخدمة الله كرهبان ، ويهجروا مقتنياتهم وحياتهم الزوجية السعيدة ، ولكن قليلين هم الذين يقدرون على معاناة حياة التقشف وشظف العيش التى ألفها رهبان الصحراوات فى الشرق . ولذلك نظم قواعد ميسورة لا إعنات فيها ولا إذلال ، ودبر أن يعيش الرهبان فى أسر صغيرة ، تخضع كل أسرة لرئيس تطيعه وتحترمه . ويبقى الجميع فى أديرتهم ، ولا يتجولون فى الأرض كما كان يفعل بعض الرهبان . على أن يكون كل دير مستقلا بنفسه .

كانت الطريقة ميسورة خالية من الافراط فى القسوة والمشقة ، فكان الرهبان يستيقظون فى الثانية صباحاً ، ولكنهم كانوا يأوون عند مغيب الشمس . وكانت ثيابهم نظيفة مريحة لائقة ، وأباح لهم كل أصناف الطعام العادية ، ما عدا لحوم ذوات الأربع . وكانوا يتناولون وجبتين فى اليوم نصف السنة ، والنصف الآخر وجبة واحدة . ولمدة ست أو سبع ساعات فى اليوم كانوا يعملون بأيديهم فى الحقل أو المصنع ، ولمدة ثلاث ساعات يقرأون ويكتبون ويدرسون سير رهبان صحراوات مصر . على أن أهم المطالب التى فرضها «بندكت» على رجاله كانت الصلاة والتعبد . فكانوا يصلون معاً ست مرات فى اليوم ومرة أثناء الليل وفى أيام الآحاد يمارسون فريضة الشركة المقدسة .

على هذه الحال عاش بندكت ورهبانه مدة خمسة عشر عاماً . وفى كل سنة كان ينزل إلى سفح الجبل ليتحدث مع أخته « سكولستكا » التى كانت قد أنشأت ديراً للعذارى على غرار الدير الذى أنشأه أخوها للرجال .

وفى سنة ٥٤٣ م مات هذا الرجل الصالح ، وبعد ست وأربعين سنة من هذا التاريخ أغار اللومبارديون على إيطاليا ، ففر الرهبان البندكتيون من جبل كاسينو إلى روسية يحملون معهم نظامهم وطريقتهم فى الحياة .

وراح أولئك الرهبان يشيدون الأديرة فى كل مكان ، يشيدونها أولا على نسق منزل ريفى رومانى ، تحيط الأبنية بالفناء ، وتجاوره حديقة وطاحون ومستشفى ومخبز . وكان لكل دير كنيسته ، وقاعة للطعام ، ومنامة ، ومغاسل ومخازن ومطبخ .

وقد عكف الرهبان المجاهدون إلى شق أخاديد الأرض وإصلاحها وغرس الأشجار وتحويل الغابات والأراضى البور إلى حقول ومراع تنبت فيها الحنطة غذاءً للناس والعشب غذاءً للبهائم . وإليهم وفد أهالى القرى طلباً فى العون واستمتاعاً بالصداقة والمودة . وعلى مر الزمن أضحت تلك المساكن البسيطة والأديرة البدائية أبنية فخمة تحيط بها الضياع والقرى والمدائن . ونشط الرهبان فى الخدمة ، فلم يقتصروا على تعليم الناس الدين المسيحى ، بل أطعموهم إبّان المجاعات ، لأن نشاطهم وأعمالهم جعلتهم من الأغنياء ، وأنشأوا المدارس للأحداث ، والمدارس للرهبان ، وكتبوا بالخط الأسفار القديمة وأودعوها مكتبات الأديرة ، وكذلك احتفظوا بكثير من مؤلفات الأقدمين الوثنية ، فأنقذوا بذلك ما أمكن إنقاذه من حطام العالم القديم . وظلوا ردحاً من الزمن يعلمون الشعب القراءة والكتابة ، والفلاحة والبناء ، والنقش والتصوير .

ولم يبدأ أولئك الرهبان حياتهم ليكونوا معلمين أو فلاحين أو فنانين ، ولكن فى سبيل « خدمة الله » ألفوا أنفسهم مسوقين إلى خدمة الناس . على أنهم جعلوا « خدمة الله » همهم الأول . ففى ساعات النهار ، وفى بكور ساعات الليل ، كانوا ينشدون ويرنمون الأغانى والتسابيح الدينية بألحان موسيقية محببة ، وكانوا يكتبون الأسفار المقدسة فى صفحات من القرطاس مزينة بألوان زاهية متلمعة .

من ثمّ نرى الرهبانية تنتقل أولا من مصر إلى بلدان الشرق الأخرى ، وتتخذ مواطنها فى سواحل فلسطين الجنوبية وبادية الشام وبرية قورش وجبل الرها والجزيرة وطور عبدين وجبل الموصل وجبل ماردين وضواحى قيصرية كبدوكية وطور سينا .

وقد استمسك رهبان الشرق بعبادة الله ، وروضوا أنفسهم على التقوى وإذلال النفس ، والاقتصار على القليل من الطعام الذى يمسكون به الحياة ، والاقبال على العمل الشاق ، وكانوا يقضون الساعات الطوال .

ومن الشرق تنتقل الرهبانية إلى الغرب كما أسلفنا . على أن الأديرة فى الغرب لم تستطع محاكاة أديرة الشرق فى التصلب والتشدد فى الامتناع عن أنواع المآكل المغذية ، وتسامحت فى كثير من المواد التى حسبها الراهب الشرقى متعة للجسد . كذلك ذهبت الرهبانية فى الغرب فى جهادها وتفكيرها

إلى حد بعيد ، حتى غدت خلايا الأديرة أشبه بمنائر تشعُّ منها العلوم والثقافة ، وتحولت الأديرة مدارس للتعليم والتهذيب والعمل فى الحقل والمصنع ، وخرجت منها مؤثرات كان لها أكبر الفضل فى ترقية الحياة الاجتماعية والعلمية والعقلية والروحية . وانتقل أولئك الزاهدون من خطة الاعتكاف عن العمل إلى خطة أخرى ، اتجهوا فيها إلى تهذيب العالم ، وبث روح الحياة والتجديد فى البيت والدولة والكنيسة .

القرن السادس

[الامبراطورية الرومانية الشرقية — جريجوريوس العظيم — مولده ونشأته — ميله إلى حياة الرهبنة والتعبد — رحلته إلى القسطنطينية — إعتلاؤه الكرسى البابوى — نفوذه وسلطانه — لمحة عن المسيحية فى بريطانيا] .

اندثر عرش الامبراطورية الرومانية فى رومية ، وتولى ملوك الفرنجة من قبائل الشمال سلطان الحكم فى الامبراطورية الغربية . ولكن بقيت سلطة أسقف رومية — أو البابا — مرعية مهيبة الجانب . أما خلفاء أباطرة الرومان فقد احتفظوا بعرشهم فى بيزنطة باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية . وفى أوائل القرن السادس نهض أحدهم ، وهو يوستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) فاستعاد كثيراً من الولايات التى اقتطعها الغزاة من جسم الامبراطورية ، واسترد إيطاليا نفسها ، وأخضعها للعرش البيزنطى ، واستجلب إلى عاصمة ملكه ثروات هائلة : بنى منها الكنيسة العظمى الرائعة فى بيزنطة على النمط الشرقى التى سمّيت « كنيسة الحكمة المقدسة » (أيا صوفيا) ، واستن قانونه المشهور المأخوذ من القوانين الرومانية القديمة . وما يزال قانونه باقياً حتى اليوم أساساً لكثير من قوانين الشعوب المتحضرة . وفى خلال حكمه حاول اللمبارديون والبلغار والفرس تدمير الامبراطورية مرة أخرى ولكنهم باءوا بالفشل .

وقد حاول هذا الامبراطور الشرقى بعد إعادة إيطاليا إلى ملكه أن يخضع أسقف رومية (البابا) لسلطانه ويجعله أداة طيعة فى يده كعادة أباطرة الرومان . وبلغت به الرغبة الجامحة حد الاقدام على عزل أحد الباباوات فى سنة ٥٣٧ م

وترحيله إلى القسطنطينية ، ثم نفيه إلى جزيرة نائية بعد ذلك حيث قضى نحبه . وقد أصرَّ بعد ذلك على أن يكون انتخاب البابا تحت إشرافه و برضائه . على أن استيلاء الامبراطور الشرقى على إيطاليا لم يدم طويلا ، ففى سنة ٥٦٨م تنحدر من الشمال قبائل اللومبارديين ، وكانوا أشد قبائل الغزاة بأساً ، وفى هذا يقول جبون المؤرخ الشهير : « لمدة مائتى سنة ظلت إيطاليا نهباً مقسما بين اللومبارديين وبين والى «رافنا» (١) عامل امبراطور بيزنطة . وفى هذا النزاع الرهيب لم يستطع البابا توطيد سلطانه الأدبى الروحى ، وعانى الكرسى الدينى فى رومية أشد العناء » .

على أن هذه الفترة القاتمة من التاريخ تنجب فى القرن السادس رجلا يمسك دفة السفينة فى بحر متلاطم الأمواج ، ويقوى بسحر شخصيته وقوة نفوذه على رفع لواء المسيحية فى الغرب — ونعنى به البابا جريجوريوس الأول — الذى يخلع عليه التاريخ لقب «العظيم» .

وينبرى هذا «العظيم» لابرام معاهدة صلح وسلام بين اللومبارديين فى إيطاليا الشمالية وبين امبراطور القسطنطينية الذى رضى بنصيبه فى إيطاليا الجنوبية وعاصمتها « رافنا » . وتخلو رومية من العرش الامبراطورى ، ويخلو الجو فيها للسلطة البابوية ، وينتهز جريجوريوس هذه الفرصة فيبسط نفوذه السياسى على حساب الشريكين اللذين تراضيا على قسمة إيطاليا . ولو أن عرش الامبراطورية ظل فى رومية كما كان ، ولو أن القسطنطينية صارت عاصمة أوربا ، لتبدل مصير البابوية كسلطة زمنية ، ولما حظيت بهذا الشأن الرفيع الذى كان من نصيبها فى القرون الوسطى .

وقد بسط جريجوريوس العظيم سلطانه فى رومية مدة أربعة عشر عاماً ، وكان له اليد الطولى فى تكييف الحوادث . وبقوة نفوذه على المستعمرات اللومبارديه ، وعلى الادارة والحكم ، صان عقائد الكنيسة وحقوق البعثات الدينية والأديرة ، حتى ليحسب بحق أعظم سياسى فى الكنيسة فى بكور القرون الوسطى .

---

(١) «رافنا» هى المدينة التى جعلها يوستنيان الامبراطور الشرقى عاصمة للاقليم الذى استرده من إيطاليا وكرسيا للوالى من قبله .

ولد هذا العظيم فى رومية حوالى سنة ٥٤٠ م وكانت رومية التى شهدتها أيام صبوته بائسة مهلهلة ، قد أعمل فيها البرابرة القوطيون معاول التخريب . ولم يبق فى قصورها إلا حفنة من كبار الموظفين المدنيين . على أنه كان قد شيِّد بها كنائسها السبع الفخمة ، وبينها الكنيستان الكبريان اللتان بنيتا إحياء لذكرى القديسين بطرس وبولس على مكانى استشهادهما كما تقول التقاليد ، كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان والقديس بولس فى الطريق إلى أوستيا : ولم يكن فى نظر مسيحيِّ القرن السادس بقعة أقدس من هذه البقاع التى أقيمت عليها كنائس الشهداء الاولين ، ولا شىء أعز من رفات الرسل الذين شهدوا المخلص بعيونهم ولمسوه بأيديهم .

وكان أبوا جريجوريوس تقيين ، ومن الأثرياء ، من طبقة أعيان الرومان . وقضى أيام شبابه فى بيت أبيه قبالة قصور رومية التى هجرها ساكنوها هرباً من البرابرة الغزاة . وتلقى الشاب علومه الكلاسيكية فى الأدب اللاتينى والمنطق والبيان كما كان يفعل أبناء الطبقات العليا فى ذلك العصر . ثم التحق بوظيفة حكومية ، وفى بدء عهده بالخدمة كان الغزاة اللومبارديون قد أخذوا يزحفون من الشمال ، وما جاءت سنة ٥٧٣ م حتى كانوا على أبواب رومية . وكان جريجوريوس فى تلك السنة عمدة المدينة ، وهى أكبر وظيفة مدنية ، يرأس شاغلها مجلس الأعيان ، ويتولى القضاء المدنى الأعلى فى دائرة قطرها مائة ميل من العاصمة . وهو الذى يتعهد بتموين العاصمة بالحبوب ، ويُعنى بموارد المياه ومصارفها ، ويتزعم الموظفين الباقين فى رومية ، وله سلطة مالية واسعة .

وقد أكسبته هذه المهام خبرة واسعة فى شئون الادارة والتنظيم . وكما أن روح الآداب الكلاسيكية قد انسابت إلى عالم القرون الوسطى بواسطة عقلية أوغسطينوس وكتاباته ، كذلك غدت فنون الادارة والتنظيم تراثاً للكنيسة فى القرون الوسطى بواسطة جريجوريوس العظيم .

وكان ميسوراً له أن يشغل وظيفة الوالى فى « رافنا » عاصمة الامبراطور البيزنطى فى إيطاليا ، ولكنه ضحى بكل هذه المطامع والآمال الكبار ، وعدل عن الاستمرار فى معارج الرقى المادى ، ومال إلى حياة الكمال المسيحى . ففى سنة ٥٧٤ م باع جريجوريوس إرثه فى صقلية وأسس هناك ستة أديرة . ووهب

باقى ميراثه للفقراء ، ولم يحتفظ إلا بقصر أبيه كدير خاص له وللاخوة الذين جمعهم حوله . وصار فيما بعد الحامى الأعظم للرهبان ، والمدافع عن حقوقهم وامتيازاتهم . وقد استهوته حياة الرهبنة وعكف إلى الصوم والصلاة والتأمل ، حتى كان يشعر أحياناً أن روحه الحبيسة فى الجسد — على حد قوله — كانت تنطلق إلى علياء السماء خالصة من سجنها البشرى ، وتهفو إلى الموت كوسيلة للدخول إلى الحياة الكاملة .

ظلّ جريجوريوس أربع سنوات يتدرب على الحياة التى كان مقدراً لها أن تطبع أعمق الأثر فى حياة أوربا فى القرون الوسطى ، ولكن فى سنة ٥٧٨ م أراد البابا أن يرفعه إلى مرتبة سامية فى الكنيسة ، فأخرجه من الدير وعينه شماساً « سابعاً » . وفى ربيع السنة التالية أوفده البابا بلاجيوس ليكون مندوباً عنه فى القسطنطينية ، وليحث الامبراطور على إيفاد المعونة والمال والجيوش لانقاذ إيطاليا من غزوات اللمبارديين ، ولكنه لم يوفّق فى هذه المهمة . ولئن يكن قد عاش فى قصر — وهو فى القسطنطينية — إلا أنه لم يغير حياة الرهبنة والتف حوله نفر من الرهبان مسوقين إليه بمحبته وعطفه . ولعل هذا الانزواء هو الذى منعه عن تعلم اليونانية فى القسطنطينية ، وكان بلاط الامبراطور ما يزال لاتينيا فى صبغته ، وكانت اللاتينية إلى ذلك الحين لغة الحياة العامة فى الشرق .

وعند عودته إلى رومية عين رئيساً لديره القديم ، ويقى فيه من سنة ٥٨٦م إلى سنة ٥٩٠ م ومن بين رهبانه الذين يذكرهم فى رسائله أربعة عينوا فيما بعد أساقفة أحدهم أوغسطينوس أول رئيس أساقفة فى كنتربرى بانكلترا . وأثناء مقامه فى الدير هذّب محاضراته عن سفر أيوب التى كان قد ألقاها على رهبانه فى القسطنطينية ، وكان دائم الاتصال بالبابا بلاجيوس .

وفى سنة ٥٩٠ م توفى البابا بلاجيوس ، فأجمع القساوسة والشعب على انتخاب جريجوريوس ، وأقر الامبراطور الشرقى هذا الانتخاب ، ورسم فى خريف تلك السنة فى كنيسة القديس بطرس . وظل أربعة عشر عاماً جالساً على كرسى الأسقفية فى رومية — يدفع ، ما وسعته الحيلة ، أذى اللمبارديين عن إيطاليا الوسطى . وكان دائماً يعدّ أذهان قومه إلى توقع أحداث رهيبة بأيدى أولئك اللمبارديين القساة . وكان قد رأى بعينه المسيحيين يربطون من أعناقهم

كالكلاب ويباعون عبيداً فى أسواق بلاد الغال ، وسمع بأذنيه شكاوى القرويين المريرة الساكنين فى المناطق الشمالية ، وشهد اللاجئين الجياع وهم يفرون زرافات إلى رومية طلباً فى المأوى والغذاء . على أن هذه الأحداث كلها قد شحذت همته للعمل والجهاد ليل نهار فى تخفيف آلام رعاياه ، والحد من نزوات الغاصبين ، وصيانة كرامة الكرسى الرسولى ، والحث على الاعتصام بأسباب البر والتقوى والهدوء ومعاناة الآلام فى جلد وشجاعة .

وفى عهده أفلحت البابوية فى الاحتفاظ ببعض وظائف الحكومة المدنية ، وضمّ شمل كنائس الغرب تحت رعويته ، وإدارة أملاك الكنيسة وأموالها مستقلة عن الدولة ، ومحاولة انتزاع السلطة الدينية العليا من بطريرك القسطنطينية وتركيزها فى رومية كمركز للمسيحية العالمية ، وإرسال الوفود والبعثات إلى أنحاء أوربا لدعوة الشعوب إلى المسيحية ، ومحاربة الهرطقات ونظريات الالحاد . ففى عهده انتقلت أسبانيا من الآريوسية إلى المسيحية الحقة ، وخلصت أفريقية الشمالية من نظريات الهراطقة والملحدين .

وقد حاول بسط سلطانه على كنائس المشرق ، لأنه كان يعتقد أن صاحب الكرسى الرسولى فى رومية هو المسئول عن إدارة الكنيسة فى العالم كله كخليفة للرسول بطرس . وزعم أن من حقه تأديب الأساقفة والبطاركة الذين يحيدون عن الايمان القويم ، وان قرارات المجامع ليست لها قوة التنفيذ إلا إذا أقرها الكرسى الرسولى . وكان أشد منافسيه فى ذلك العصر بطريرك القسطنطينية الذى استند إلى سلطة الامبراطور . وقد شجر الخلاف بينه وبين هذا البطريرك حول مسائل أهمها الخلاف على لقب « المسكونى » الذى خلعه بطريرك القسطنطينية على نفسه . وقد احتج جريجوريوس على هذا الادعاء ، واستعان ببعض أساقفة المشرق ، وعنف الامبراطور على السكوت ومداراة البطريرك . ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح .بل ان الامبراطورة كتبت إلى البابا تأمره أن يرسل رأس القديس بولس أو بعض بقاياه لايداعها كنيسة تعتزم بناءها تكريماً للرسول الكبير ، فأجابها أن فى نقل رفات القديسين تدنيساً لكرامتهم وإثارة لعواطف الشعب وأبى عليها هذا المطلب .

ولم يكن جريجوريوس كاتباً مبتكراً ولا لاهوتياً متعمقاً . ولكن كتاباته

استندت إلى عقائد الايمان ، و إلى الأسفار المقدسة ، و إلى مؤلفات أوغسطينوس التى كانت موضع إعجابه وتقديره . واستقى فكرته عن الكنيسة من أوغسطينوس فى كتابه « مدينة الله » ، وحسب الكنيسة ملكوت السماء على الأرض كما صورها الانجيل . وقد بقيت كتاباته — على بساطتها — ذخراً للأجيال المتعاقبة ، واحتلت مكانتها فى الأديرة وفى مكتبات الكنائس ، حتى لقد أُطلق عليه « الدكتور الرابع فى الكنيسة » .

ولعل أعظم مآثره وأشهرها فى التاريخ تلك البعثة التى أوفدها لدعوة أهل بريطانيا إلى المسيحية . ولا بدَّ لنا من كلمة تمهيد قبل ذكر هذا الحادث :

المسيحية فى بريطانيا :

قبل أن يضع الراهب العظيم بندكت قواعد رهبانيته ، كان قد انتشر فى بلاد الغال و إيطاليا أديرة على غرار الأديرة التى قامت فى صحراوات مصر . و إلى هذه الأديرة فى الغرب دلف الحجاج والمسافرون للانصات إلى تعاليم الرهبان ، والأخذ عنهم فى مسالك الحياة ، ودراسة الكتب التى حفلت بها مكاتبها . وكانت تلك الأديرة بمثابة مراكز لنشر الدعوة يجئ إليها المسافرون ويعودون إلى أوطانهم حاملين رسالة المسيحية إلى شعوب أوربا .

وفى سنة ٤١٢ م قدم إلى أحد تلك الأديرة فى بلاد الغال بريطانى يدعى «بترك» . وكان قد نشأ مسيحياً ولكن القرصان اختطفوه من حضن أبويه وهو بعد حدث صغير وحملوه إلى جزيرة إيرلندا الوثنية . وهناك تمكن من الفرار والقدوم إلى الدير . وقد كان حينما جاء رجلا خشناً لم ينل قسطاً من الثقافة والعلم ، ولكنه بقى فى الدير زمناً طويلا ، وتتلمذ للحبر الجليل الأسقف جرمانوس ، حتى صار راهباً فكاهناً ، وأوفد إلى إيرلندا أسقفاً لها لنشر الدعوة بين أهلها . ويقول عن نفسه فى اعترافاته انه لم ينفك عن سماع هاتف داخلى يدعوه للذهاب إلى تلك البلاد الوثنية وبذل حياته من أجلها . وما كان الايرلنديون كلهم يدينون بالوثنية ، لأن أسقفاً آخر كان قد سبقه إلى تلك البلاد ، ولكنه لقى من عنت الزعماء والحكام ما عرقل سعيه وخيَّب آماله ولم يفز إلا بالقليل من المهتدين على يديه .

وكانت حياة «بترك» جهاداً طويلا ومغامرة مضنية بين تلك القبائل المتبربرة ، ولكنه قضى بين ظهرانيهم ثلاثين عاماً ، ومات بعد أن صارت إيرلندا كلها مسيحية ، فيها عشرات من الأديرة ، منها خرج المرسلون والدعاة لنشر الدعوة فى البلدان الأخرى .

ويحدثنا التاريخ أن الشعب الايرلندى كان كثير الشغف بالموسيقى والرياضيات ، وأحب الثقافة اليونانية ومال إليها ، وكتب الكتب الخطّية القديمة بخطوط جميلة تفنن فى إبداعها وتزيين صفحاتها بصور رائعة دقيقة . ومن هؤلاء الارلنديين خرج سيل لا ينقطع من الدعاة والمرسلين إلى بلاد الغال وألمانيا وانكلترا ونروج وإيسلنده ، حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم الخشنة المتقشفة .

ومن أحد تلك الأديرة خرج الأمير الراهب «كولبا» إلى جزيرة أيونا تجاه ساحل اسكتلندا ، ليعيش هناك ، مع مائة وخمسين من صحابته فى أكواخ صغيرة مقببة حول كنيسة صغرى ، فى الصلاة والدرس ونسخ الكتب والتعبد لله . وكانوا يقومون بزراعة الأرض وصيد الأسماك لاعالة أنفسهم ، وفى الوقت نفسه يعلمون هذا الدين الجديد لأهل أسكتلندا . وقد كان مسيحيون قليلون فى اسكتلندا قبل يومهم ، أقبلوا إلى هذا الدين على يد راهب من رهبان تور فى بلاد الغال ، ولكن جزيرة أيونا هذه كانت منارة الدعوة التى توزع منها النور ، لا على اسكتلندا وحدها ، بل على الجزء الشمالى مما يعرف الآن بانكلترا .

وكان الدين الجديد قد وصل إلى جنوب بريطانيا فى تاريخ مبكر مع الغزاة الرومان ، وكان فيها أساقفة من بنيها فى سنة ٣١٤م ولما كان بترك يجاهد فى إيرلندا ، تلقى معلمه جرمانوس وزميل له رسالة ليقبل إلى معونة الكنيسة فى بريطانيا التى كانت قد وقعت فى أحابيل الحيرة والاضطراب بسبب تعاليم بيلاجيوس الذى نشر آراء يناهض بها آراء القديس أوغسطينوس . وسرعان ما عاد المرسلان إلى بلاد الغال بعد أن قاما بواجبهما حتى كان الغزاة الانجلوسكسون قد اكتسحوا البلاد للمرة الثانية وساقوا الأهلين أمامهم إلى ويلز وسومرست وكورنول على الشواطئ الجنوبية ، وعبر بعضهم بحر المانش ليستوطن الاقليم الشمالى من فرنسا الذى أطلق عليه « بريتانيا » وما يزال

معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم . ومن ثمّ صارت انكلترا الجنوبية بلاداً وثنية مرة أخرى .

وحدث أن جريجوريوس العظيم كان يجوب سوق مدينة رومية للعبيد ، فوقع نظره على غلمان شقر الوجوه تلمعت شعور رءوسهم بلون ذهبي . ولما سأل عن موطنهم الأصلي ، اعتزم أن يحمل إليهم رسالة الدين الجديد ، وقال بأسلوبه الفكه وفي سرعة خاطر إن أولئك الانكليز Angles لا بد يصيرون يوماً ملائكة Augels ، وإن بلادهم ستنقذ من الغضب الآتي ، وترفع أناشيد التسبيح للاله الحي . وكان متأهباً أن يرحل هو بنفسه إلى انكلترا ، ولكن قومه أبوا عليه هذه المغامرة . وبعد عشر سنوات سنحت له الفرصة فاهتبلها ، وذلك لأن ملك كنت السكسوني اثلبرت كان قد تزوج من أميرة مسيحية من بنات الفرنجة Franks تدعى برثا ، فأوفد جريجوريوس راهباً من خيرة رجاله يدعى أوغسطينوس ومعه خمسون من الرفاق لحمل رسالة الانجيل للأسرة الملكية في تلك البلاد . ونزل الراهب على شواطئ الجزيرة واتخذ طريقه إلى مقر الملك يحمل معه صليباً من فضة وعلماً من خشب نقشت عليه صورة الصلب ، وكتبه الثمينة (الكتاب المقدس في مجلدين والانجيل وبعض سير الرسل والشهداء وتفاسير العهد الجديد) . وهناك تقدم إلى الملك في موكب في العراء مقدماً له هذا الدين الجديد . على أن الملك الوثني لم يفهم شيئاً ، ولم يقبل الدين . ولكنه أباح للراهب ورفاقه أن ينشروا الدعوة بين الشعب كما يشاءون ، وأقاموا فترة من الزمن في كنتربرى ، وشيدت الملكة برثا كنيسة صغرى لعبادة الله . واقتضى الحال جهوداً مضنية بطيئة ، واستمر الجهاد مائة عام قبل أن تصبح انكلترا كلها مسيحية . ولكن منها انتشرت بعدئذ الدعوة في رقاع أخرى ، فتزوج ادوين ملك نورثمبريا من ابنة الملكة المسيحية برثا ، وهذه حملت معها إلى الشمال راهباً يدعى بولينوس أفلح في حمل الملك وكهنته الوثنيين على اعتناق المسيحية . وقد اعتمد أدوين في البقعة التي يقف فيها الآن أسقف يورك لعبادة الله . وظل الراهب بولينوس وشماسه جيمس يذرعان البلاد شمالا وجنوباً فآمن بدعوتهما أكثرية الأهلين ، ولكن الملك الوثني «بندا» أغار على نورثمبريا وقتل ملكها وأمعن تقتيلا وتعذيباً في الشعب ، فهرب الراهب

بولينوس مع الملكة وأطفالها ، وظل الشماس جيمس فى مركزه متحدياً الغزاة وبطشهم .

وخيّل الآن كأنما جهود أوغسطينوس والدموع والآلام التى بذلت فى سبيل هداية انكلترا قد ذهبت ضياعاً ، وتوقع الناس أن تعود انكلترا إلى سابق وثنيتها ، ولكن أميراً شاباً انكليزياً يدعى « ازوالد » — كان قد فر من وجه أعدائه إلى جزيرة أيونا وتعلم الدين الجديد هناك — عاد إلى انكلترا وطنه ودافع عن نورثمبريا ورد عنها الغزاة الوثنيين وكسب المعركة ، ثم بعث إلى أيونا يطلب معلماً مسيحياً فأوفدوا إليه الراهب « ايدان » الذى أحبه الأهلون حباً خالصاً لدماثة خلقه ووداعته وصفاء نفسه .

وبعد ثمانية أعوام ثار « بندا » ملك الشمال مرة أخرى وقتل ازوالد بحد السيف ، ولكنه كان آخر الملوك الوثنيين الذين عرفتهم البلاد ، وأخذت المسيحية تزدهر بعد موته ، ويقوى نفوذها ، ويسلب الناس سحر تعاليمها ، وغدت انكلترا بعد ذلك موطن كثير من مشاهير العلماء وكبار المرسلين الذين ذكر التاريخ أسماءهم مقرونة بالتجلة والاكبار .

وفى سنة ٦٦٨ م قدم إلى انكلترا ثيودور الطرسوسى ، وهو راهب يونانى ، موفداً إليها كرئيس أساقفة ، وقد وحد انكلترا كلها وقسمها إلى أبرشيات أسقفية ، وحمل معه كتباً قيمة من مؤلفات هوميروس ويوسيفوس ويوحنا فم الذهب .

وفى مدرسة اكستر ، وهى إحدى المدارس الدينية الكثيرة التى أنشأها المرسلون المسيحيون ، تهذب الراهب بونيفاس الذى عبر البحر مسوقاً بهاتف داخلى لنشر الدعوة فى هولندة وألمانيا ، والذى صار فيما بعد رسول ألمانيا وأسقفها .

القرن السابع

[اللغات القومية فى الامبراطورية الشرقية — هرقل وانتصاراته — يوستنيان — العرب والكنيسة الشرقية — العالم يوحنا الدمشقى — كنائس المشرق] .

كان لانقسام الامبراطورية الرومانية بعد عهد قسطنطين إلى شطرين — الشرقية بلغتها اليونانية والغربية بلغتها اللاتينية — أثر عميق فى تاريخ الكنيسة . وقبل أن يحدث الانقسام فى الكنيسة بالذات ، بدأت المجموعة المسيحية اللاتينية والمجموعة المسيحية اليونانية تسير كل منهما فى اتجاه خاص على أساليب من الفكر مختلفة ، وتحت تأثير عوامل فى الحياة متباينة . ولما نزلت قبائل الجرمان المتبربرة من الشمال ومزقت شمل الغرب اللاتينى وانتزعته من سلطان الامبراطور الرومانى الذى كان مقره بيزنطة ، سارت الكنيسة فى الغرب فى مسرى مستقل واتخذت طريقتها الخاصة فى التاريخ .

وقدّر لتاريخ المسيحية فى مستقبل الأجيال أن تتصل اتصالا وثيقاً بعالم الغرب، وأن تكون المسيحية اللاتينية من أهم العوامل فى تطور هذا التاريخ . أما المسيحية الشرقية فقد انطوت على تقاليدها وجمدت فى تفكيرها ، وكان لهذا الجمود أثره البالغ فى مستقبل تاريخها . أجل ، برز فى هذه الفترة كتاب أجلاء أمثال الآباء الكبدوكيين ، الذين كانوا فى المرتبة الأولى من مفكرى عصرهم وقد أخصبوا الفكر المسيحى بكتاباتهم ومؤلفاتهم . كذلك برز فيما بعد القديس يوحنا الدمشقى (٦٧٦ — ٧٥٧م) ذلك اللاهوتى البارع الذى حلل العقائد المسيحية تحليلا فلسفياً كما فهمته الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن يمكن القول إجمالا ان سير التفكير والابتكار فى الكنيسة الشرقية كاد يقف تماماً .

وكانت الامبراطورية الشرقية البيزنطية حلقة من حلقات الامبراطورية الرومانية القديمة، فظلت الكنيسة خاضعة للبلاط الامبراطورى فى بيزنطة كما كان حالها فى عصر قسطنطين وخلفائه ، وأسست شبه مصلحة من مصالح الدولة ، وخلعت على الامبراطور صفة مقدسة ، ولم يكن لبطريرك القسطنطينية — وإن لقّب بالمسكونى — مكانة البابا فى عالم الغرب .

وفى بعض ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية نشطت اللغات القومية بين عامة الشعب وبقيت اليونانية لغة الخاصة والطبقات العليا ، ولما انتشرت المسيحية بين عامة الشعب ، ظهرت مؤلفات مسيحية بهذه اللغات القومية : السريانية فى الجزيرة وبين النهرين ، والأرمنية فى أرمينية ، والقبطية فى مصر ، والأثيوبية فى الحبشة . وكان معظم هذه المؤلفات المسيحية الشرقية ، إما منقولة نقلا عن اليونانية ، أو مقتبسة من الآراء والتقاليد المسيحية اليونانية . على أنها تميزت ببعض الصفات القومية ، وكان من أثر ذلك ظهور نزعات قومية فى شئون الكنيسة تحدياً لكرسى القسطنطينية . ولم يكن انفصال جمهرة المسيحيين فى مصر ، عن الأرثوذكسية اليونانية الشرقية فى القرن الخامس بسبب المشكلة التى يسمونها «الطبيعة الواحدة» فى ذات المسيح ، إلا ناشئاً فى الواقع عن تلك النزعة القومية التى أحست بها بعض الولايات الشرقية .

وفى أوائل القرن السابع يعتلى الامبراطور هرقل عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية — أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب . وقد كان وخلفاؤه الخمسة من أسرة واحدة اشتهر ملوكها بالخلق الكريم والكفاية فى الحكم . وأفلح مؤسس الأسرة هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) فى توطيد الأمن فى ربوع إمبراطوريته ودفع غزوات الفرس .

وكان الفرس قبل اعتلائه العرش قد أغاروا فى عهد عاهلهم خسرو الساسانى على الجزيرة وبين النهرين وسورية ، وعبروا آسيا الصغرى وأقبلوا على خلقيدونية فى سنة ٦٠٨ م . وفى السنة التالية فتحت لهم قيصرية فى كبدوكية أبوابها . وبعد أن اعتلى هرقل عرش الامبراطورية زادت هجماتهم شدة فدخلوا سورية فى سنة ٦١٢ واستولوا على دمشق فى سنة ٦١٣ ، وعلى فلسطين فى سنة ٦١٤ وحمل عاهلهم الصليب الأصلى من بيت المقدس . وفى

سنة ٦١٦ اجتاحوا مصر ثم توغلوا فى آسيا الصغرى وحصنوا مدينة أنقرة لحماية خطوط مواصلاتهم .

وقد ظل هرقل مدة اثنتى عشرة سنة يتلقى هذه الضربات بما فى طاقته من صبر وجلد ، ولكنه كان طيلة الوقت يعد عدته وينظم جيشه ويوحد جبهته الداخلية تأهباً للضربة القاضية . وقد استجاب الشعب إلى ندائه ، وعضّده البطريرك سرجيوس ، بطريرك القسطنطينية يومئذ ، فوضع تحت آمرته كل كنوز الكنيسة وأموالها ، وألهب حماسة الشعب فى حرب صليبية جديدة لاسترجاع الأماكن المقدسة ، وإعادة الصليب الأصلى الذى صلب عليه المسيح ، وكان قد نهبه عاهل الفرس من بيت المقدس كما تقدم .

وفى خمس حملات متواليات يحطم هرقل شوكة الفرس ، فيسترد أذربيجان فى سنة ٦٢٣ ، وأرمينية فى سنة ٦٢٤ ، وكيليكية فى سنة ٦٢٥ ، وفى سنة ٦٢٦ يهزم جيوش الفرس وحلفائهم الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية . أما حملته الخامسة والأخيرة فقد استرد بها الجزيرة (بين النهرين) فاستولى على نينوى سنة ٦٢٧ واقتحم عاصمة الفرس سنة ٦٢٨ وحمل من هناك الصليب الأصلى فى موكب ظافر إلى القسطنطينية ، ثم أعاده بنفسه إلى بيت المقدس . وغدا هرقل بفضل هذه الانتصارات المتوالية عظيما من قادة الحروب الذين شاد التاريخ بذكرهم ، وكلل بالمجد هاماتهم . وتم له فى سنة ٦٢٩ عقد صلح مع دولة الفرس .

وكان عليه الآن أن يعيد إلى الامبراطورية وحدتها الدينية ، ويرد إلى أحضان الأرثوذكسية الولايات التى انفصلت بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة وهى سورية وأرمينية ومصر التى أنشأت بعد انفصالها كنائس مستقلة . ويرجع تاريخ هذه المشكلة إلى مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) وكان قد قرر فيما قرره من قواعد الايمان أن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين . واعتصمت القسطنطينية بهذه العقيدة ، ولكن بعض كراسى المشرق ، مسوقين فى الأغلب بنزعات قومية ، تحدوا القسطنطينية وتشبثوا بعقيدة الطبيعة الواحدة . وكان الامبراطرة فى موقف حرج ، فهم إذا هادنوا الولايات الشرقية أغضبوا رومية والغرب ، وإذا ضغطوا على الشرق تمردت عليهم هذه البلدان التى بدأت تختمر فيها المشاعر القومية . على أن بعض الامبراطرة ارتضوا السير مع المشرق ، ففى سنة ٤٨٢

أصدر الامبراطور زينو قانوناً حابى به القائلين بالطبيعة الواحدة ، وقد أدى هذا إلى قطيعة بين الشرق والغرب استطالت إلى أربعين عاماً .

على أن الامبراطور يوستنيان الأول وخلفاؤه (٥١٨ — ٦٠٩) ينتهجون سياسة جديدة ، ويصالحون الكنيسة الغربية ، ويلجأون إلى أساليب العنف والارهاق لحمل ولايات المشرق التى شقت عصا الطاعة على الرجوع إلى أحضان الأرثوذكسية .

وكان يوستنيان مؤسس هذه الأسرة أعظمهم شأناً ، وكان هو نفسه من أنصار قانون مجمع خلقيدونية ، ولكن زوجته ثيودورا كانت من أنصار الطبيعة الواحدة . ويقول أحد المؤرخين ان هذه المرأة الغريبة الأطوار بدأت حياتها ممثلة وعاهراً ، وعرف عنها الخلاعة والتهتك . ويقول انها كانت جذابة تنفذ نظراتها الخارقة إلى أعماق القلوب ، وإن تكن قصيرة القامة صفراء اللون . وبعد زواجها من الامبراطور عافت رذائلها السابقة ، وأنشأت داراً لكفالة الساقطات لتكفر عن ذنوبها الماضية . وقد اشتهرت بالبخل والقسوة وحب السلطان ، وكانت صاحبة النفوذ فى البلاط الامبراطورى ، فاضطر يوستنيان تحت تأثيرها أن يخرج عن تقاليد أسرته ويصدر وثيقة يسترضى بها أنصار الطبيعة الواحدة ، ويحاول فى الوقت نفسه أن يضمن رضاء بابا رومية . ثم عقد مجمعاً عاماً فى سنة ٥٥٣ م أقر وثيقته ، وكان ذلك المجمع مظهراً لسلطان الدولة التى أكملت يومئذ إرادتها على الكنيسة ، لأن الامبراطور هو الذى استدعاه ورسم خطته ووضع قراراته .

على أن خلفاء يوستنيان عادوا إلى تقاليد الأسرة ، فراحوا يضطهدون أنصار الطبيعة الواحدة ، ويمعنون فى القسوة عليهم والبطش بهم فزادت القطيعة ، وقويت النفرة ، فانفصلت الكنيسة فى أرمينية . أما فى سورية فكان بها كرسيان أحدهما يدين بالولاء لقرارات مجمع خلقيدونية ، والآخر يعتصم بنظرية الطبيعة الواحدة . وأتباع هذا الكرسى أطلقوا على أنفسهم «يعاقبة» نسبة إلى كاهن يدعى « يعقوب البردعى » كان قد رسمه أسقف القسطنطينية السجين لخروجه على قرارات مجمع خلقيدونية ، وبعد رسامته فرّ الكاهن بمعونة أحد أمراء العرب النصارى الغساسنة إلى سورية متخفياً فى ثياب شحاذ . ويقال إنه رسم أكثر من ثمانين أسقفاً وألوفاً من الكهنة .

واعتنقت مصر أيضاً عقيدة الطبيعة الواحدة ، وكان الشعور القومى فى تلك الفترة مضطرماً ، فلما عزل بطريرك الاسكندرية ، نظر الشعب إلى خليفته كأنه صنيعة الغاصبين ، وظل الشجار محتدما مائتى سنة بين الملكيين — وهم حزب الامبراطورية الناطق باليونانية — وبين المصريين الوطنيين — وهم أبناء الشعب الذى كان يتكلم لغة مصرية قبطية ويعتصم بعقيدة الطبيعة الواحدة . وقد استنكر الشعب إملاء الأجنبى الغاصب ، وأبغض حكم دولة الروم بغضاً شديداً حمله على أن يفتح ذراعيه للعرب الغزاة فى سنة ٦٤٢ م — وقد بقيت الكنيسة القبطية حتى اليوم على عقيدة الطبيعة الواحدة ، وما يزال هذا الفارق قائماً بين الكنيستين القبطية واليونانية .

***

قلنا ان هرقل حاول — بعد أن هزم دولة الفرس — أن يستعيد وحدة الامبراطورية الدينية ، ولم تخل هذه المحاولة من أساليب القهر والاعنات . وكانت فى المشرق أربع بطريركيات : القسطنطينية وكانت يونانية فى صبغتها ، وأنطاكية وكانت سريانية فى لغتها وإحساسها ، والاسكندرية وكانت قبطية مصرية ، وأورشليم وكانت فى ذلك العصر أقل الكراسى شأناً . وبينما رنت أنطاكية بأبصارها إلى بطرس الرسول مفاخرة بأنه مؤسسها ، وبينما اعتزت الاسكندرية بنسبها إلى مرقس الرسول ، فان القسطنطينية تشامخت لأنها كانت مقر الامبراطور ومركز السلطان فى الامبراطورية . وقد وضعها مجمع خلقيدونية فوق جميع الكراسى ماعدا رومية ،وقد سعت سعياً حثيثاً لبسط سلطانها على البطريركيات الأخرى . وكان طبيعياً أن يطمح أسقف العاصمة الامبراطورية فى هذه السلطة الاتوقراطية ، ولكن البابوية لم تفلح فى الشرق مثلما أفلحت فى الغرب بسبب الحزازات العنصرية واللغوية ، ولم تكن اللغة اليونانية فى الشرق لغة جامعة فى العبادة الدينية كما كانت اللغة اللاتينية فى الغرب .

***

من ثمّ نرى الكنيسة فى الشرق تعبث بها أيدى التفرقة بالجدل الدينى ،

وتتسرب إليها عوامل النفرة والانقسام لأسباب، فى ظاهرها دينية كمشكلة الطبيعة الواحدة ، وفى باطنها قومية عنصرية . ونرى الدولة موهنة العزمات بعد حملاتها المتوالية على الفرس . وفى هذه الأزمة تقف الدولة والكنيسة معاً أمام قوة جائحة تطلع من البادية ، هى قوة العرب التى اكتسحت أمامها دولة الروم ، وأصابت الكنيسة الشرقية بطعنات فى الصميم ، فلم تقو على الصمود بسبب جمودها وتخاذل فروعها وضعف شرايين الحياة فيها .

وقد بدأت غزوات الاسلام فى النصف الأول من القرن السابع ، فاجتاحت أولا دولة الفرس التى كانت موطن النساطرة المسيحيين ، وقد أتمت القضاء على دولة الفرس فى سنة ٦٥١ م حينما فر آخر ملوكها «يزجرد» إلى ما وراء تخوم بلاده ، وفى سنة ٦٣٤ م سقطت دمشق بأيديهم ، واستولوا على بيت المقدس سنة ٦٣٧ م ، وفى سنة ٦٣٨ م أغاروا على مصر فاستولوا على الاسكندرية وأحرقوا مكتبتها. ويقال إن أقباط مصر رحبوا بقدومهم للتخلص من إعنات قياصرة الروم ، وان العرب أكرموا البطريرك القبطى المصرى بنيامين ، وأحسنوا إليه ومنحوه السلطة الدينية على رعاياه .

وبعد استيلائهم على الاسكندرية تيسر للعرب القيام بحملات بحرية ، فحاصروا القسطنطينية (٦٦٨ — ٦٧٤) ولكنهم ردوا عنها خائبين . وسقطت قرطاجنة بأيديهم فى سنة ٧٠٣ وبسقوطها دانت لهم دولة الفاندال فى أفريقية الشمالية . وفى سنة ٧١١ م عبروا البحر إلى اسبانيا فاجتاحوها كلها ، وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار فى فرنسا لتكتسح دولة الفرنجة فى الغرب كما قضوا على دولة الروم فى الشرق ، لولا أن تصدى لهم «كارل مارتل» فأنقذ الكنيسة الغربية من المصير الذى حلّ بالكنيسة الشرقية .

وكانت أمة الروم خصيبة المواهب ، لم تدانها أمة من قبل ولا بعد فى غزارة الخيال وعمق التفكير وروعة الثقافة ، فالحمال فى الطرقات تفلسف ، وحوانيت الحلاقين والحانات والفنادق تجاوبت فى جنباتها أصداء المنازعات والمناقشات الجدلية حول أسرار الدين ، وحفلت أحاديث العامة بالمشاكل الدينية واللاهوتية . ولكن تلك الأمة العريقة ، التى بزت كل أمم الأرض فى التفكير وخصوبة العقل قد اجتاحتها دولة العرب ومزقتها شر ممزق بحيث لم تقم لها قائمة

من بعد . وعلى أثر هذه النهضة العربية شهد الشرق ثقافة عربية بدلا من الثقافة الاغريقية . وقد تفوقت تلك الثقافة العربية على ثقافة القرون الوسطى فى الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة ، وكان لها بعض الفضل فى إحياء ثقافة القرون الوسطى . وقد امتازت ثقافة العرب بالهدوء فى التفكير وبالخيال الشعرى الشرقى الخلاب ، على أنها كانت بلا شك دون الثقافة الاغريقية القديمة .

ذهبت دولة الروم وقامت على أنقاضها دولة العرب . وبسقوط دولة الروم سقطت معها الكنيسة اليونانية الشرقية . نعم بقيت قائمة كراسى الاسكندرية وأنطاكية والقدس ، وتمتعت بالتسامح الذى منحه إياها العرب ، ولكن قوة التطور والنماء وقفت جامدة فى بيزنطة والاسكندرية .

وكانت مشكلة الايقونات والصور فى الكنائس إحدى المشاكل التى أثارت الانقسام بين الأحبار والزعماء . وقد بدأها الامبراطور ليو — وهو ذلك الجندى الباسل الذى أنقذ القسطنطينية وصدّ العرب عنها — فأصدر فى مستهل القرن الثامن مرسوماً يقضى بتدمير كل التماثيل فى الكنائس ومحو الصور والنقوش . وكانت تلك قد غدت أشبه بعبادة الأوثان . وأمل الامبراطور من وراء هذا الاصلاح أن يستميل اليهود والمسلمين إلى المسيحية النقية . ولكن نفوذ الرهبان وحاجة الشعب إلى المظاهر الخرافية ، كانت أقوى من الامبراطور وجيشه ، واتفق أساقفة أورشليم وأنطاكية والاسكندرية على إبقاء الصور والايقونات . وكان قرارهم فاصلا فى مجمع نيقية (سنة ٧٨٧ م) وهو المجمع المسكونى السابع الذى اعتبر الايقونات والصور ذكريات مقدسة . وكانت حجتهم فى هذا الابقاء أن الصورة للأمىّ الجاهل هى بمثابة الكتاب لمستعلم .

***

وفى أواخر القرن السابع يظهر — كما أسلفنا القرن — العالم الكبير يوحنا الدمشقى وهو من أشهر العلماء اللاهوتيين الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية . ولد فى دمشق فى أواخر القرن السابع ، وكان اسمه العربى «المنصور» ، وأطلق عليه لفصاحة بيانه وذلاقة لسانه «صابُّ الذهب» . وكان والده سرجيوس

مسيحياً ، ولّى وظيفة من وظائف الدولة فى حكم خلفاء بنى أمية فى دمشق ، وقد خلفه ابنه يوحنا فى وظيفته هذه .

وكان الدمشقى من زعماء حزب الصور والأيقونات ، فكتب وهو بعد فى وظيفته سلسلة بحوث دفاعاً عنها . وقد استبدت به نزعة روحية داخلية ، فطلّق وظيفته الحكومية ، وتنازل عن كل مقتنياته العالمية ، وهرع إلى دير مار سابا على مقربة من القدس ، حيث قضى بقية حياته . وقد رسم كاهناً بيد بطريرك بيت المقدس ، وفى أواخر حياته جال فى سورية يخطب دفاعاً عن بقاء الأيقونات والصور فى الكنائس ، وزار القسطنطينية فى عهد الامبراطور قسطنطين كوبرونيموس معرضاً حياته لخطر داهم .

وقد جمع عقائد الكنيسة فى سفر لاهوتى فلسفى رتيب ، وعالج نظريات الهراطقة والملحدين وحللها تحليلا بارعاً ، وأفرد قسما فى أحد مؤلفاته لعقائد الاسلام ، وكتب حديثاً ثنائياً على لسان مسيحى ومسلم ، وضع على لسان كل منهما أدلته المنطقية لاثبات دينه ، وقد دل هذا الحديث الجدلى على تعمق فى علم اللاهوت وبراعة فى المنطق والاقناع .

وكان من بواعث الفرقة بين الشرق والغرب كلمة أضيفت إلى العبارة الخاصة بالروح القدس فى قانون الايمان النيقوى وهى « المنبثق من الآب والابن » . فلقد اعترض الشرق على الغرب لاضافته كلمة «الابن» ، وأصر على أن تبقى العبارة « المنبثق من الآب » فقط . وللقديس يوحنا الدمشقى رأى للتوفيق والمصالحة ضمنه إحدى رسائله ، فلقد اقترح أن تصاغ العبارة « المنبثق من الآب بالابن » إرضاء للفريقين . ولم يصغ أحد إلى نصحه يومئذ ، لأن منشأ الخلاف فى الواقع بين الكنيستين الشرقية والغربية ، لم يكن هذه اللفظة ولا غيرها من عقائد الدين ، بل هو حب الرئاسة ، والتنازع السياسى ، والتباين الفكرى واللغوى بين اليونان واللاتين كما سنرى فيما بعد . على أنه بعد انقضاء قرون طوال ، أخذ أنصار وحدة الكنيسة فى القرن العشرين يفكرون جدياً فى هذا الرأى الذى شرحه يوحنا الدمشقى اللاهوتى الشرقى فى القرن السابع .

وكانت أبحاثه ومصنفاته آخر مجهود عقلى للمسيحية اليونانية . وبعد هذا

التاريخ انطفأت شعلة النتاج الفكرى فى الكنيسة الشرقية ، وأمست عالة على الدولة . وكلّ الذى فعلته الكنيسة الشرقية بعد ذلك أن سلّمت عناصر ثقافتها القديمة وعقائدها تراثاً إلى العناصر الصقلبية التى كانت قد بدأت تهرع إلى المسيحية من كل الجوانب . ولكن الصقالبة قد أعوزتهم القوة الكافية لاحياء العالم اليونانى ، فبقيت أمة اليونان والكنيسة اليونانية على ما هى عليه من ضمور وموات . ولا نغالى إذا قلنا ان الكنيسة الشرقية كما نشاهدها اليوم فى روسيا — قبل البلشفية على الأقل — وفى بلاد البلقان وفى بلدان الشرق الأدنى ما زالت على الحالة التى كانت عليها فى القرن السابع . ولكن من دواعى سرورنا أن نهضة جديدة أخذت تدب فى حياتها فى بعض الأنحاء . ولنا ملء الثقة أن يوقظها روح الله لتنهض إلى حياة جديدة ، وتستعيد مجدها التليد ، وترفع من جديد لواء الثقافة المسيحية بما عهد فيها من خصب وعمق وابتكار .

طوائف المشرق :

ولعلّه من الشائق هنا أن نسجل لمحات خاطفة من تاريخ بعض طوائف المشرق ذات الشأن فى تاريخ المسيحية قبل أن ننتقل فى القرون التالية إلى قصة نشر الدعوة المسيحية فى الغرب ، وعهد شرلمان الكبير ، ورهبانية القرون الوسطى والبابوية :

الأقباط :

القبط من أعرق الشعوب الشرقية ، فهم سلالة الفراعنة تتصل مدنيتهم بأقدم أزمنة التاريخ . ومن المآثر الغراء التى خلدها التاريخ فى أول عهد المسيحية زيارة الأسرة المقدسة لوادى النيل . وتقول التقاليد إن الأقباط أخذوا المسيحية عن الرسول مرقس الانجيلى الذى يعتبر كاروز الديار المصرية وأول أساقفتها . وقد برز من بينهم علماء أعلام أمثال أوريجانوس وأثناسيوس وكيرلس وغيرهم الذين كللوا بالمجد والفخار هامة الكنيسة فى القرون

الأولى من تاريخ المسيحية ، وحملوا لواء العلوم الدينية فى ربوع الشرق ، وبذلوا دماءهم رخيصة فى سبيل الاعتصام بالدين الجديد .

وقد سجل التاريخ مناظرات يؤسف لها بين كرسىّ الاسكندرية والقسطنطينية حول مسائل تناولتها المجامع المسكونية ، وخاصة فى نيقية وخلقيدونية . وأدى هذا الخلاف فى آخر الأمر إلى انشقاق الأقباط ومعهم السريان والأرمن عن الكنيسة اليونانية الشرقية ، واستقلال كل منها بشئونها الدينية وتنصيب أساقفتها. وكانت مصر قبيل الفتح العربى ولاية تابعة للدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة ، فلم يكن منهم إلا أن أبطلوا استعمال اللغة اليونانية فى كنائسهم ، ومهدوا للعرب سبيل الاستيلاء على مصر فى عام ٦٤٠م — وقد أراد الفاتحون الاعتراف بهذا الجميل، فظاهروا البطريرك القبطى بنيامين، وطردوا البطريرك اليونانى من البلاد لتفصم بذلك كل الصلات مع كرسى بيزنطة .

ولئن كان الأقباط قد لقوا بعض التسامح فى بدء الفتح العربى ، فان الولاة الذين أقيموا عليهم فيما بعد كانوا شرًّا من أمبراطرة اليونان ، فساموهم كل صنوف الاذلال والعسف ، ولما اشتد الضغط ثار القبط غير مرة ولكن ثوراتهم قمعت بالقسوة والعنف ونكل بهم أشد تنكيل ، حتى اضطر الأساقفة إلى الهجرة ، ودان خلق كبير منهم بالاسلام فراراً من الاضطهاد والموت .

وفى أوائل القرن الثامن تحولت كتابة الدواوين من القبطية إلى العربية ، وطرد الأقباط من وظائفهم لأقل سبب ، ولكن الحكام كانوا يعيدونهم فى أحوال كثيرة كلما أحسوا بعدم إمكانهم الاستغناء عن خدماتهم والحاجة إلى خبرتهم ودرايتهم .

وفى أوائل القرن الرابع عشر ثار المسلمون على القبط بتحريض أحد الدراويش فهدموا كنائس القطر المصرى وأحرقوها بالنار ، وحدث شغب عظيم كان يقتل فيه الأقباط فى الطرقات أينما ساروا وأقفلت معابد القبط مدة سنتين كاملتين ، ولم يكن يجرؤ أحد على الخروج من داره إلاّ خفية . وهنا تدخل الامبراطور البيزنطى وحمل الخليفة الناصر على الكف عن هذا الاضطهاد ، فهدأت الحال إلى حدّما ، ولكن حظر على القبط ركوب الخيل أو البغال أو لبس العمامة البيضاء ، ومن خالف الأمر حكم عليه بالموت . وكان الدهماء

لأوهى الأسباب يشنون الغارات على الأقبـاط ويهدمون كنائسهم وينهبون منازلهم ، وكانت الحكومة تشجع على هذا الاضطهاد فى بعض الأحيان لحمل الأقباط على اعتناق الاسلام ، كما حدث مثلا فى عهد الخليفة المتوكل فى القرن الرابع عشر وغيره من الأسلاف .

وبعد العرب دانت مصر للعثمانيين ،فلم يكن الأقباط بأوفر حظاً فى عهدهم ، فدان كثيرون منهم بالاسلام ابّـان الفتح التركى ، وتناقص عددهم بسبب اضطهاد باشاوات الترك الذين كانوا يسلبونهم أموالهم ، وقيل إن عددهم نقص فى القرن السابع عشر إلى مائة وخمسين ألفاً بعد أن كانوا عند الفتح العربى سبعة ملايين (وفى رواية أخرى ٢٥ مليوناً) .

وجاء نابليون بعد الترك. وقيل ان نابليون أعلن إسلامه فى مصر وتبعه فى ذلك قائده الجنرال ميتو الذى سمّى نفسه عبد الله وتزوج بابنة أحد عامة الشعب . ولم يأت القائد الفرنسى ورجاله هذا العمل حباً فى الدين بل استرضاء للمسلمين ، وكان من جرّاء هذا أن ذلّ الأقباط فى عصر الفرنسيس كما ذلوا فى عهد اليونان والعرب والترك .

إلى أن جاء عهد محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة فأحسن معاملتهم . وأكرم كثيرين من رجالهم ، وانتفع بهم فى خدمة الدولة ، فتنفسوا الصعداء فى عصره وعصور خلفائه ، وتمتعوا بالحرية الدينية التى حرموها دهوراً طويلة . ويبلغ عددهم اليوم قرابة مليونين نسمة ، وما تزال الكنيسة القبطية محافظة على تقاليدها القديمة ، مجاهدة فى سبيل الاحتفاظ بحرياتها الدينية كاملة .

النساطرة :

النساطرة نسبة إلى نسطور ولد فى مرعش وتلقى علومه فى المدرسة الأنطاكية وسيم أسقفاً للقسطنطينية فى أوائل القرن الخامس ، وأغلب الظن أن هذه الشيعة كانت أكثر فروع الكنيسة نشاطاً وجهاداً فى فترة القرون الوسطى ، وبثت الدعوة فى الجزيرة وبين النهرين وبلاد الفرس والهند والصين .

وحدث فى أوائل عهده بالأسقفية أن أتهم نسطور بالهرطقة والمروق عن

العقائد القويمة المتعلقة بشخص المسيح وطبيعته . فقام عليه رجال الدين واتسع نطاق الخلاف ، وأحيل الأمر على مجمع أفسس (سنة ٤٣١) وكان زعيم هذه الحركة كيرلس الاسكندرى يعاونه أساقفة أورشليم وفلسطين وقيصرية ورومية ، وقد حكم على نسطور بالادانة وقرر الامبراطور نفيه إلى مدينة تانيس فى صحراء مصر حيث توفى هناك فى سنة ٤٤٠ .

على أن مبادئ نسطور وعقائده لم تندثر ، فان كثيرين من أشياعه فى أنطاكية وسورية أخلصوا لها ، وفروا إلى بلاد الفرس على أثر الاضطهاد الذى قام ضدهم ، وهناك استقبلهم الأكاسرة بحفاوة وإكرام وأعانوهم على بث الدعوة فى بلادهم ، ومن ثم صارت الكنيسة الفارسية نسطورية فى عقيدتها . على أن الباعث لم يكن دينياً بحتاً ، فان دولة الفرس كانت منافسة لدولة الروم قروناً طوالا ، وكان حكامها من عبدة الشمس ، واضطهدوا المسيحية التى هى دين أعدائهم ومنافسيهم فى الشرق ، ولكنهم أكرموا وفادة هؤلاء الفارين نكاية فى أمة الروم . وكان أعظم من جاهد لنشر الآراء النسطورية فى بلاد الفرس شخص يدعى «برسوم» أسقف نصيبين ، ودأب فى جهاده وسعيه حتى حمل فيروزشاه ملك الفرس على فصل النساطرة عن مذهب قياصرة الروم أعدائهم ، ومن ذلك العهد استقل النساطرة — أو الكلدانيون وهو لقبهم القديم — فى شئونهم الكنسية وانفصلوا عن الكرسى الأنطاكى .

وقد كان النساطرة أنشط الدعاة الذين عرفتهم المسيحية إلى ذلك العصر ، فبثوا الدعوة فى العراق والجزيرة وكردستان وبلاد الهند والصين ، وأنشأوا الأديرة والكنائس فى هذه الأقطار كلها ، وظهر بينهم أساقفة وكتّاب وعلماء كثيرون ، وأقاموا الكراسى الأسقفية فى أنحاء الصين وسمرقند والهند وسورية وبلاد العرب وفارس .

ولما سقطت المدائن بيد العرب سنة ٦٣٧م تبعثر النساطرة الذين فى العراق ، وفرّ كثيرون منهم إلى الصين ، فاستقبلهم ملك البلاد أحسن استقبال وأباح الحرية للمسيحيين ، وانتشرت المسيحية فى أنحاء البلاد بسرعة فائقة وخيّل فى القرن الثامن أن الصين ستنجب للعالم «قسطنطيناً» آخر ليجعل

المسيحية الدين الرسمى ، لولا تلك التقلبات السياسية التى أساءت إلى الكنيسة كل الاساءة وماتت المسيحية الصينية النسطورية ، على أن التاريخ يروى فى القرن الثالث عشر ذكر كنيسة مسيحية ناشطة فى ولاية المغول ، وقصة راهب صينى قام برحلة من بكين لزيارة الكنيسة فى الغرب وبلاط ملك الفرنجة .

ويروى الرحالة «مارك بولو» البندقى انه التقى بالنسطوريين فى أشهر المدائن التى مر بها فى رحلته إلى الشرق الأقصى ، وفى بداية القرن الرابع عشر كانت لهم أساقفة فى كل أنحاء آسيا ، ولكن الضربة القاصمة أصابتهم بيد الطاغية تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر الذى كاد يمحوهم من الوجود ، وفرّ الأحياء منهم إلى جبال كردستان ، وكذلك قتل الأكراد منهم فى منتصف القرن الثامن عشر خلقاً كثيراً ، وفى خلال الحرب الأوربية الكبرى ذاقوا الأمرين بيد الأتراك ، ولم يبق منهم إلا أربعون ألفاً لجأوا إلى العراق فى نهاية الحرب ، ولم يكن حظهم خيراً من حظهم فى البلدان الأخرى .

وفى جنوب الهند ما تزال حتى اليوم كنيسة نسطورية يرجع تاريخها إلى القرن السادس ويبلغ عدد أعضائها نحو ثلث مليون .

والحق قد جاهد هؤلاء النساطرة فى القرون الوسطى جهاد الأبطال لنشر الدعوة المسيحية فى رقاع آسيا ، وعانوا فى هذا السبيل ما عانوا من اضطهاد وموت وتشريد وتقتيل ، ولولا الثورات السياسية فى تلك القارة وتقلبات التاريخ السيئة الطالع ، لكان لهم اليوم شأن آخر .

السريان :

أما السريان فهم أحفاد الأشوريين القدماء ، وقد اعتنقوا المسيحية فى القرن الأول ، فى الوقت الذى اعتنقها فيه الكلدانيون ، وكان موطنهم فى أول عهدهم بالمسيحية بين النهرين وشمال العراق وكردستان وسورية . وحل بهم زمن انقسمت فيه وحدتهم إلى قسمين ، غربيين وشرقيين ، يفصل بين القسمين نهر الفرات ، فمن كانوا إلى غربه أطلق عليهم السريان

الغربيون ، ومن كانوا إلى شرقه أطلق عليهم السريان الشرقيون .

وكانوا فى أول عهدهم خاضعين لأسقف أنطاكية كسائر طوائف المشرق. ولما ظهرت فى عالم الجدل اللاهوتى المسيحى نظرية «الطبيعة الواحدة» التى دانها مجمع خلقيدونية (٤٥١) رفضوا قراراته وانشقوا عن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ، وكان شأنهم فى هذا شأن القبط والأرمن .

وقد حاول قياصرة القسطنطينية ردَّ السريان إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية بشئ من العنف والشدة . فلم يزدهم هذا إلا صداً ونفوراً . وعرف السريان كطائفة مستقلة منذ القرن السابع الميلادى .

وبعد الفتح العربى ، خضع السريان لسلطتين ، الذين فى الشرق خضعوا للعرب ، والذين فى الغرب للدولة البيزنطية . وهؤلاء الأخيرون مالوا أخيراً إلى الأرثوذكسية اليونانية . أما الشرقيون فقد اضطر كثيرون منهم إلى اعتناق الاسلام لأسباب سياسية وفراراً من الجزية ، وإن يكن بعض زعمائهم البارزين عاد إلى المسيحية فيما بعد . وفى القرن الثانى عشر انقسمت طائفة السريان إلى شيع ثلاث بسبب تنافس الرؤساء والبطاركة ، وكانت لهم ثلاثة كراسى : أحدها فى ماردين ، والثانى فى كليكية ، والثالث فى طور عبدين ؛ وعلى أثر هذا الانقسام ضعف شأن الطائفة كلها ، ولاذ كثيرون من الأعضاء بالحبر الرومانى ، ولذلك تجد بينهم اليوم كنيسة للسريان الكاثوليك .

وفى خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) نكبوا بالفواجع والمآسى ، فاستشهد منهم حوالى ثمانين ألفاً بسبب دينهم ، وقضى كثيرون من الجوع والوباء ، ويقدر عدد الباقين منهم فى ديار الشرق بأكثر من مائة وعشرين ألفاً ، مبعثرين فى العراق وما بين النهرين وسورية وفلسطين .

وبقى منهم فى بلاد الهند عدد وافر يقدر بأكثر من ثلث مليون لهم أساقفة من الهنود تحت إشراف قاصد بطريركى شرقى برتبة مطران .

وقد نبغ فى هذه الطائفة كثيرون من العلماء والكتاب ، أصابوا القدح المعلى فى دراسة اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية .

الأرمن :

الأرمن من الطوائف الشرقية القديمة ، وتقول التقاليد القديمة انهم أخذوا المسيحية عن الرسولين تداوس و برثلماوس ، والثابت فى التاريخ أن ملكهم اعتنق المسيحيةفى أوائل القرن الرابع ، وصارت الأمة الأرمنية من ذلك التاريخ شعباً مسيحياً . على أن المسيحية لم ترسخ أقدامها فى بلاد الأرمن إلا بعد أن ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الأرمنية على يد النابغة الأرمنى القديس مسروب الذى كان كاتماً لأسرار الملك . وقد تمكن هذا العالم من اختراع الحروف الهجائية الأرمنية دون استعارة شئ من لغات أخرى ، وقام بالترجمة هيئة مؤلفة من مائة وستين شخصاً ، نقلوا أولا العهد القديم من اللغة اليونانية إلى الأرمنية عن النسخة السبعينية وقد استغرقت الترجمة قرابة ثلاثين عاماً .

وقد عانى الأرمن فى تاريخهم ألواناً من التعذيب والاضطهاد ، وحلّقت الاضطرابات السياسية ببلادهم التعيسة ، فخضعت أولا للفرس ، ثم لليونان ، ثم للعرب ، وأخيراً للأتراك . وفى كل هذه التقلبات كانت أرمينية ميداناً للقتال وسفك الدماء ، وقد أرغمهم الفرس والعرب ، لأسباب سياسية ، على أن يقطعوا علاقاتهم باليونان والكنيسة الأرثوذكسية ورفض قرارات مجمع خلقيدونية ، ووقف الأرمن من القرن السادس إلى التاسع موقفاً حرجاً كانوا فيه كريشة فى مهاب رياح السياسة . وبعد أن انتصر الامبراطور هرقل على الفرس انعقد مجمع أرضروم ، وحضره الامبراطور نفسه ، وعادت الكنيسة الأرمنية مرة أخرى إلى أحضان الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية . ولكن لما استولى العرب على أرمينية فى سنة ٦٩٣ فترت العلاقات بين الكنيستين للأسباب السياسية عينها ، وعمت البلاد اضطرابات فى هذه الفترة قيل انه قتل فيها من الأرمن ما ينوف على مائة ألف نسمة ، وهاجر كثيرون إلى بلاد القوقاس ، وفرّ غيرهم إلى بولندا وسلدافيا وهنغاريا فى أوربا ، والذين آثروا البقاء فى الأناضول موطن أجدادهم وأسلافهم نزحوا إلى الجنوب واستوطنوا كيليكيا وسمّوها أرمينية الصغرى .

وكانت القرون الستة التى قضاها الأرمن بعد خروجهم من تحت سلطان

اليونان — حافلة بالشدائد والمحن والنكبات ، وظل الكرسى الدينى يتنقل من مدينة إلى أخرى لا يستقر فيها على حال . وعانى الأرمن فى القرن الأخير من الويلات مالم يخطر على بال إنسان ، وأعملت فى رقابهم سيوف الأتراك فى خلال الحرب العظمى ، ولكن بقوا مع ذلك أمناء لدينهم وكنيستهم وقوميتهم . ويقدر عددهم اليوم بحوالى مليون نسمة موزعين على خمس بطريركيات .

الأحباش :

من الشعوب القديمة فى التاريخ ، وقد أطلقت كتب التاريخ على بلادهم «ايثوبيا» . وسماها العبرانيون «بلاد كوش» . وقد ضمت فى تاريخها القديم بلاد الحبشة الحالية وجزءاً من مصر والنوبة وكردفان . وتقول التقاليد إن أول ملوكهم كان إبناً لسليمان الحكيم ، وذلك — على قولهم — إن سليمان أحب ملكة سبأ ونظم فى وصفها قصيدة «نشيد الانشاد» ، ثم تزوجها وعادت إلى بلادها وهى حامل فولدت غلاماً أسمته «منليك» . فلما كبر أرسلته إلى أورشليم فخشى سليمان الفتنة من وجوده عنده ، فنصبه ملكا على الحبشة وأعاده إلى والدته . وفى سنة ٩٥٥ ق.م انتقل الحكم إليه ، ويزعمون أن الأسرة المالكة من هذه السلالة ملكت حتى الآن ٢٩٠٠ سنة .

ومن مفاخرهم المأثورة التى يتباهون بها أن الخصى الحبشى وزير كنداكة ملكة الحبشة كان من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية فى الشرق ، وتعمد على يدى فيلبس فى سنة ٣٧ ب.م (اع ٨ : ٢٦ — ٤٠) .

على أن انتشار المسيحية فى بلاد الأحباش يرجع الفضل فيه إلى القديس فرومنتوس أول أسقف رسم على الحبشة فى القرن الرابع . وهم الذين نشروا المسيحية فى بلاد اليمن . وفى سبيل ذلك استشهد كبير من كبرائهم يدعى القديس «أزقير» مازالوا يحيون ذكراه فى عيد سنوى حتى اليوم . وكذلك هم الذين نشروا المسيحية فى بلاد النوبة فى القرن السادس ، وظلت النوبة مسيحية إلى القرن السادس عشر حين أغار عليها الترك وأخذت المسيحية

تضعف شيئاً فشيئاً حتى كادت تتلاشى فى أيام المهدى فى القرن التاسع عشر.

وللأحباش مآثر أخرى فى الدفاع عن النصارى ، فلما ثارت قبائل حمير على نصارى العرب فى القرن السادس ، تدخل الأحباش وعزلوا الملك الذى أساء معاملة نصارى نجران ، وأقاموا ملكاً نصرانياً حكم وأسلافه مدة أربع وسبعين سنة ، وشيدوا لهم كنيسة جميلة فى نجران ضموا تحت جدرانها عظام شهدائهم وأقاموا عليهم أسقفاً اشتهر فى التاريخ بالخطابة والعلم .

كذلك حاموا عن القبط غيرة مرة فى التاريخ ففى عهد الخليفة الناصر (١٣٢٠م) لما اشتد الضغط على الأقباط ، بعث إليه ملك الحبشة برسالة تهديد متوعداً إياه أن يقطع مجرى النيل عن مصر إذا لم يكف عن اضطهاد الأقباط .

وكانت الكنيسة الحبشية — وما زالت ، تابعة لكرسى الاسكندرية — أى بطريرك الأقباط — يعين فيها مطراناً من قبله نائباً عنه ، وقد وقعت حوادث فى التاريخ أدت أكثر من مرة إلى توتر العلاقات بين الكنيستين ، بل التقاطع والنفور . وفى التاريخ الحديث فقدت الحبشة استقلالها مدة خمس سنوات لما أغار عليها موسولينى الزعيم الايطالى ، ولكنها استعادت استقلالها فى الحرب الأخيرة (١٩٣٩—١٩٤٤) بمعاونة الجيوش البريطانية ، وعاد الامبراطور إلى عرشه بعد صلوات ودموع وآلام .

ويقال إن عدد الأحباش يزيد الآن عن عشرة ملايين ثلثاهم مسيحيون والثلث الباقى مسلمون ويهود .

الموارنة :

ذكرنا لمحة عن الكنيسة السريانية . والواقع أن سلالة السريان أشبه بشجرة متفرعة إلى ثلاثة أغصان : السريان المشارقة وهم الذين أسميناهم النساطرة من الكلدان ، والسريان المغاربة الذين أطلق عليهم لقب اليعاقبة ، والموارنة وهم الفرع الثالث من هذه الشجرة .

وقد روى الانجيل الكريم قصة المرأة الفينيقية الغريبة التى نالت من المسيح مبتغاها بفضل إخلاصها وحلو منطقها وقوة إيمانها (مر ٧:٢٦) ويقولون

إن هذه المرأة من سلالة الموارنة الأقدمين . كذلك تقول التقاليد إن الموارنة أخذوا المسيحية من الرسل رأساً . وفى القرون الأولى من تاريخ الكنيسة كانوا تابعين للكرسى الأنطاكى ، وظلوا مخلصين له على حين انفصل عنه السريان الآخرون من نساطرة ويعاقبة بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة والطبيعتين . وقد عرَّضهم هذا الولاء لكثير من ضروب الاضطهاد على أيدى بنى جنسهم السريان ، ففرَّ كثير منهم إلى فينيقية واعتصموا بجبال لبنان ولاذوا بحمى الراهب يوحنا مارون ، واستقرت الطائفة فى تلك البقعة الجبلية المنيعة ، ورسم يوحنا مارون أول أسقف عليها فى سنة ٦٨٥م ، وظل الموارنة ردحاً طويلا من الزمن حريصين على استقلالهم الروحى والمدنى على الرغم مما بذله قياصرة الروم وخلفاء العرب . وصمدوا أمام هذه القوى كلها معتصمين بمناعة ربى لبنان وقمم جباله ، ويبقى تاريخ الموارنة قرابة خمسة قرون لا يعرف عنه شئ .

ولما فتح الصليبيون سورية رحَّب الموارنة بهم واتحدوا معهم على خصومهم ، وأعلن نفر كثير منهم انضمامه إلى الحبر الرومانى فى روميـة ليتخلصوا من مضايقة قيصر بيزنطة . وظل أساقفة رومية يستميلونهم بشتى الأساليب حتى امتلكوا قلوبهم شيئاً فشيئاً ، وأنشأوا لهم مدرسة لاهوتية فى رومية لتخريج القساوسة ومعلمى الدين . واكتسب الموارنة عطف ملوك أوربا الكاثوليك فمنحتهم فرنسا حمايتها فى القرن السابع عشر . وما يزال الموارنة حتى اليوم طائفة كاثوليكية شرقية ، وما يزال بطريركهم صاحب الكلمة المسموعة والرأى النافذ فى لبنان . ويبلغ إحصاء هذه الطائفة قرابة ثلث مليون ، تدير المئات من المدارس المفلحة التى يتخرج منها فى كل عام ألوف من الطلاب .

القرن الثامن

[القبائل الجرمانية تعتنق المسيحية — كارل مارتل و بونيفاس — بونيفاس الانكليزى أول أسقف على ألمانيا — فضله على البابوية] .

رأينا فى القرن السابع ما آل إليه حال الكنيسة فى الشرق . ولم يكن حال الكنيسة فى الغرب خيراً منه . فان الامبراطورية العظيمة التى رفرفت أعلامها على العالم دهراً طويلا قد انهارت ، وأخذت تزحف عليها قبائل الجرمان محطمة فى طريقها كل ما شيدته الحضارة الرومانية ، حاملة معها المظاهر البربرية من الحراج والغابات فى ألمانيا .

قد أقبل الليل وتناهى النهار ، وغدا ما كان بالأمس — زاهراً رائعاً مجيداً من فن وأدب وعلم وجاه — أثراً بعد عين .

قد أقبل ما أسماه التاريخ بالقرون المظلمة ، ولم يكن فى الأفق بارقة تومئ إلى انبثاق الفجر الجديد . على أن شعاعاً من نور شق سدفة الظلام ، ذلك لأن الامبراطورية قد انهارت حقاً ، ولكن دون الكنيسة . ففى الشرق اندثرت الكنيسة مع الامبراطورية وضاعت ثقافة هذه وتلك . أما فى الغرب فقد بقيت الكنيسة صامدة ، وفى عالم يسوده الدمار والخراب وقفت شاهدة مستمسكة بتاريخها الماضى ، فأنقذت نظمها وتقاليدها وعقائدها من العالم القديم ، وسلمتها إلى جيل جديد ، وابتلعت الغزاة فى أحضانها ، وضمتهم إلى صدرها ، فغدا الغالب مغلوباً ، وأقبلت القبائل الجرمانية إلى اعتناق المسيحية التى اضطهدتها من قبل ، فأنقذت بذلك الكنيسة وأنقذت ثقافتها ، وبقيت تلك الثروة العقلية الدينية سليمة لم يمسسها ضر . والفضل فى ذلك يرجع إلى خلايا الأديرة الصامتة وإلى العلماء

الرهبان الذين اكتنزوا فى عقولهم وفى أديرتهم ذلك الذخر الثمين إلى أن حان الوقت الذى أخرجوه فيه من مخابئهم لينير عالماً جديداً . وامتزجت العناصر التوتونية والجرمانية بالعناصر اللاتينية لتكوّن للعالم المسيحى تاريخاً .

فى العصور الأولى تولّت الكنيسة الشرقية زعامة المسيحية . والآن قد انتقل هذا الصولجان من الشرق إلى الغرب . وأنه لمن المؤلم حقاً أن يسجل المؤرخ المنصف — وخاصة إذا كان شرقياً — أنه بينما ضعفت الكنيسة الشرقية أمام غزوات العرب ولم تقو على استمالتهم وإدماجهم فيها لضعفها وتفرق كلمتها وتشاحن رؤسائها ، فان الكنيسة الغربية قد أفلحت فى ترويض برابرة الجرمان وضمّهم إلى أحضانها .

***

ولئن تكن الامبراطورية الرومانية قد انهارت ، فان الفكرة فى إحيائها ظلّت حلماً من الأحلام العذبة طوال القرون الوسطى ، وبقى شبح الامبراطورية الرومانية قائماً أمام الجرمان الغزاة المثل الأعلى ، يعللون النفس بتحقيقه ، وإحياء تلك العظمة الدارسة التى بهرهم نظامها البديع . تلك كانت أحلام الجرمان فى القرون الوسطى ، ولعلها لم تبرح خيالاتهم طوال العصور حتى يومنا هذا . وما تلك الحروب المتعاقبة التى أغرقوا فيها أوربا جيلا بعد جيل إلا متنفساً لتلك الفكرة التى سحرتهم واختمرت فى عقولهم وقلوبهم بانشاء امبراطورية عالمية يكونون فيها السادة الحاكمين كما كان الرومان من قبل . ولم تكن فكرة إحياء الامبراطورية مطمح أنظار السادة الجرمان فقط ، بل حلماً براقاً صورته كتابات العلماء وخيالات الشعب بصور غامضة ، أدت فيما بعد إلى مغامرات البطولة الخالدة وإنشاء دولة الفرنجة Franks أولا، ثم الامبراطورية الجرمانية ثانية .

وكانت المسيحية التى اعتنقتها القبائل الجرمانية آريوسية — أى مستمدة من تعاليم آريوس التى وُسمت فى القرون الأولى بالهرطقة والالحاد — وذلك لأن الامبراطورية الشرقية كانت فى خلال القرن الرابع أميل إلى الآريوسية ، وكانت القبائل التى قطنت نهر الدانوب مثل القوط والفاندال والبورجنديين

قد تلقت مسيحيتها عن تلك الامبراطورية الشرقية . وها نحن نرى الآريوسية — بعد أن شجبت واختفت من الامبراطورية الرومانية — ظلت حيّة بين العناصر الجرمانية التى اعتنقت المسيحية. ومن هنا ثار النزاع الدينى ، فضلا عن النزاع القومى ، بين القبائل الجرمانية القاهرة ، وبين رومان الامبراطورية الرومانية المقهورين .

على أن مملكة واحدة فى أوربا حافظت منذ البداية على مبادئ الدين الصحيح ، وهى مملكة الفرنجة ، فان ملكها «كلوفيس» اعتنق المسيحية على مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، وتبع فى ذلك دين الملوك والنبلاء والأساقفة فى بلاد الغال وممالك أوربا الأخرى . وتعاون هؤلاء كلهم مع كلوفيس على خلع نير الهراطقة الآريوسيين ، وآثر الكل أن يتجمعوا تحت لواء ملك الفرنجة ، واتحدت الولايات الأوربية المتفرقة وصارت مملكة واحدة ، شملت فيما بعد العالم الجرمانى الرومانى ، وعُرفت فى التاريخ بامبراطورية «كارل العظيم» .

وإلى جانب مملكة الفرنجة القوية قامت أيضاً كنيسة « افرنجية » كان لها من القوة ما هيأ لها سبيل التقدم والتطور من نواح كثيرة . ولكن ما حلّ القرن السابع حتى كانت الكنيسة قد ناءت تحت عبء ثروتها المادية وسطوتها الزمنية ، ولعب أسقف رومية دور السيد الآمر ، وتزعم ثورة الطبقة الأرستقراطية ضد الأسرة المالكة ، وأهملت الشئون الروحية ، وبطل استدعاء المجالس الكنسية ، وكثرت المنازعات والدسائس فيها . وفى مستهل القرن الثامن أصاب الهيئة الدينية انحلال سريع ، وتمكن «كارل مارتل» من إخضاع الكنيسة لمطالب الامبراطورية ، واستخدم أموالها وثرواتها لتنفيذ مآربه عند الحاجة .

من ثم افتقرت الكنيسة فى ذلك العصر إلى من يصلحها وينهضها من كبوتها. فمن عساه أن يكون ذلك. هل ترجع إلى سيدها وحاميها أسقف رومية ؟ كان أسقف رومية نفسه موزع الميول ، يميل إلى اليونانيين تارة ، وإلى اللومبارديين تارة . ومن ناحية أخرى طغت على سلطته المملكة الجرمانية ، ومملكة أسبانيا ، ومملكة الفرنجة ، فى بلاد الغال ، ومملكة اللومبارديين فى إيطاليا ، ونزعت منه كل سلطان على الكنيسة . وانحلت الكنيسة الغربية إلى كنائس قومية لا تربطها وشيجة ، ولا ترعاها رأس . فهناك الكنيسة الأسبانية ، والفرنجية

واللومباردية ، والانجلوسكسونية . وفقدت البابوية ذلك السلطان الأعلى الذى كانت تفرضه على كنيسة الغرب كلها . فمن ذا الذى يقيل الكنيسة من عثارها ويرد إليها وحدتها ؟

كانت ألمانيا فى القرن السادس وثنية . وكان فرضاً واجباً على كنيسة الفرنجة أن تدخل المسيحية إلى ألمانيا جارتها ، ولكنها لم تفعل . وكان ذلك من بواعث انحطاطها وضعفها ، وكل كنيسة تكتفى بذاتها وتنطوى على نفسها ، ولا تبث الدعوة خارج نطاقها ، تفقد حيويتها ويدركها الفناء. وقد قدّر لألمانيا أن تتناول المسيحية من الجزر البريطانية ، فان رهباناً من إيرلندا واسكتلندا رحلوا إلى ألمانيا فى أوائل القرن السابع متفرقين ، وكانوا من الكلت يتكلمون لغة غريبة ، وجعلوا مهمتهم نشر الانجيل فى ربوع ألمانيا ، وحملوا معهم عاداتهم ، وأساليب حياتهم ، ومسيحية ذات طابع كلتى خاص تختلف عن المسيحية اللاتينية فى الغرب ، فهم قد أباحوا زواج الكهنة ، واحتفوا بعيد الفصح على طريقتهم الخاصة على غير ما نسجت عليه كنيسة الغرب . وفضلا عن ذلك لم يعترفوا بالدستور الأسقفى ، وهو النظام الكنسى الذى كان مرعياً فى كل العالم المسيحى يومئذ ، فكان الدير محط تعليمهم ومركز سلطانهم ، فأنشأوا فى ألمانيا كنائس تميل إلى نظام الرهبنة أكثر من أى نظام آخر ، نظمت على النسق الكلتى الخاص . وبذلك تأسست فى ألمانيا كنيسة ذات طابع خاص ، ونشأ عنصر جديد من عناصر التفرقة والانحلال فى العالم المسيحى الغربى .

وفى مستهل القرن الثامن تعرضت الدولة ذاتها فى الغرب إلى خطر داهم ، ذلك لأن الدولة القوطية الغربية قد اكتسحها العرب أمامهم فى سنة ٧١١م وتوغلت جحافلهم حتى عبرت جبال البيرينيه وبلغت نهر اللوار فى فرنسا ، وفى الوقت نفسه أخذ المهاجرون الصقالبة يزحفون من الشرق للاستيطان فى حوض نهر الرين .

فأين الحمى وأين المصير ؟ قد انهارت مملكة «كلوفيس» القوية وتقاسم المملكة النبلاء الذين شقوا عصا الطاعة ، واستقل كل منهم بالأمر فى ولايته . وابتلع العرب أسبانيا وجزءاً كبيراً من فرنسا ، وسادت الفوضى كل أنحاء الغرب ، فاغتصب الأشراف والنبلاء والأساقفة ورؤساء الأديرة ، كل منهم على قدر ما استطاع من نفوذ وسلطان .

باتت الكنيسة ، بل المسيحية كلها ، فى خطر داهم . ولكن فى هذه الساعة الحرجة الكالحة ، ينهض رجلان لينقذا الغرب من ورطته ، أحدهما سياسى والآخر مصلح دينى — هما كارل مارتل وبونيفاس.

وكانت معركة بواتيه (٧٣٢ م) التى هزم فيها كارل مارتل العرب إيذاناً باحياء الامبراطورية المفككة الأوصال ، وكان ظهور بونيفاس مرسلا إلى ألمانيا من قبل الكرسى البابوى علامة لاحياء الكنيسة . . .

بونيفاس الانكليزى :

رأينا كيف دخلت المسيحية إلى ألمانيا أول ما دخلت ، وكيف أنشأ الرهبان الوافدون من الجزر البريطانية جماعات مسيحية مبعثرة ، فى مناطق متباعدة لا رئاسة لها ولا نظام فيها . أما الزعيم المسيحى الذى أضفى الفضل على الكنيسة فى ألمانيا وهولندا فى القرون الوسطى فهو الرسول يونيفاس ، وقد كان أنجلوسكسونياً فاستطاع أن يحمل رسالة المسيحية إلى قبائل التيوتون بلغتهم الأصلية ، ومنذ حداثته تضرمت فى نفسه رغبة ملحّة لحمل رسالة الانجيل إلى أرض آبائه وأجداده التى رحلوا منها أولا قبل أن يستوطنوا الجزر البريطانية .

وكان بونيفاس أول أسقف انكليزى ختم حياته بدم الاستشهاد بين الوثنيين فى ألمانيا . ولم تكن حدود أوربا الوسطى فى القرن الثامن كما عرفنا اليوم على الخريطة . فقد كانت مملكة الفرنجة التى حكمها الدوق كارل مارتل تشمل — حسب التخوم الحالية — فرنسا الشمالية وألمانيا الغربية . وكان بين الفرنجة المسيحيين ، وبين سكان الأقليم المعروف الآن بهولندا (والذى سمى يومئذ فريزية) عداء شديد وحروب متوالية . فلما رحل بونيفاس أولا إلى هولندا يحمل رسالة المسيحية إلى قبائلها الوثنية استقبله ملكها على غير رحب وأقصاه عن بلاده .

وفى الوقت الذى صار فيه بونيفاس رئيس أساقفة ألمانيا، كان وليُّه ونصيره كارل مارتل يصدُّ الغزاة العرب عن أوربا الغربية . ففى الشمال أنقذ الأول بجهاده السلمى شمال أوربا من غزوات البرابرة وثبَّت فيها أقدام المسيحية ، وفى

الجنوب أقام الثانى بجهاده الحربى سداً منيعاً حال دون انهيار المسيحية فى أوربا الجنوبية ...

ولد بونيفاس فى أسرة من سراة السكسون يمتون بصلة القرابة للأسرة الملكية فى ويسكس (١) . وأطلق عليه أبواه إسما سكسونياً «وينفريد» أى الجميل الجذاب . وكان الصغير يصغى فى حداثته إلى الزائرين الذين كانوا يغدون إلى دار أبيه ، ويروون قصص الأسفار والمخاطر فى البلدان الأجنبية ، وقد أثارت هذه القصص الدم السكسونى فى عروقه ، وأحس بهاتف يدعوه إلى عبور البحر لزيارة البلدان الأجنبية .

وفى ذات يوم وفد إلى الدار طائفة من الغرباء — زمرة من رهبان إرلندا — وقد بدت عليهم علائم الاعياء والتعب من وعثاء السفر ، وأخذوا يقصون على الحاضرين الروايات المثيرة ، وراح الصبى السكسونى يصغى فى انتباه ولهفة إلى روايات القوم ومغامراتهم عن حمل الرسالة المسيحية عبر البحار إلى القبائل الهولندية والجرمانية فى رقاع القارة ، وكان لتلك الليلة أبلغ الأثر فى توجيه حياته فى مستقبل الأيام .

تلقى وينفريد علومه فى مدرسة الدير كعادة ذلك العصر ، وتعلم الشعر والتاريخ والكتاب المقدس ، حتى غدا عالماً كبيراً وقدر له عارفوه أنه سيكون يوماً رئيس ذلك الدير . ولكن أحلاماً كانت تجوس فى خواطر الصبى لم يعرف كنهها أحد ، واضطرمت فى قلبه رغبة ملحة أن يحمل رسالة المسيحية إلى القبائل الوثنية فى بلاد الجرمان التى هاجر منها آباؤه وأجداده قبل أن يستوطنوا هذه الجزر . وفاتح بعض رفاقه ، ولشدّ ما كانت غبطته أن يرتضوا الرحيل معه فى هذه المغامرة الكريمة .

نزل وثلاثة من رفاقه سفينة غشيمة الصنع من الخشب ، حملتهم إلى ساحل هولندا ، على أنهم لم يلقوا ترحاباً ، ذلك لأن ملك البلاد كان مشتبكاً فى حرب شعواء مع كارتل مارتل المسيحى ملك الفرنجة ، فأغلظ لهم القول وأمرهم بمغادرة البلاد ، فقفلوا راجعين فى سفينتهم الخشبية إلى شاطئ انكلترا .

---

(١) Wessex ويسكس ولاية فى انكلترا وكانت مملكة فى ذلك العهد . وهى بلد السكسونيين الغربيين كما أن Essex و Sussex هما بلدا السكسونيين الشرقيين والجنوبيين على التوالى .

على أن هذه الصدمة لم توهن عزيمته ، بل فكر فى وسيلة أخرى لتحقيق حلمه ، ورام أن يزور المناطق الواقعة على ضفاف نهرى الالب والرين حيث تسكن القبائل السكسونية ، ولكنه آثر أن يعرج أولا على رومية ليستأذن البابا ويلتمس تعضيده لنشر الدعوة فى أوربا الوسطى .

رحل عن طريق فرنسا ، متخذاً الطريق الذى يسلكه عادة الحجاج الذاهبون إلى رومية ، وكانت رحلة شاقة خطرة فوق معابر جبال الالب الثلجية . وفى إيطاليا تعرض هو وزملاؤه إلى هجمات قبائل اللومباردیين . ولما مثل الشاب السكسونى الصافى الذهن ، القوى الفؤاد ، أمام البابا جريجوريوس الثانى ، أعجب به أيما إعجاب ، وبارك مهمته .

وراح وينفريد يجاهد فى نشر الدعوة بين قبائل الجرمان المتبربرة ، فلبىّ الدعوة كثيرون ، ولما بلغ الأمر أسماع البابا استدعى وينفريد وأقامه أسقفاً على الكنيسة الناشئة فى ألمانيا والمناطق الواقعة شرق ضفاف نهر الرين ، وأعطاه البابا أيضاً رسائل توصية للدوق كارتل مارتل ليقدم كل معونة ممكنة للمرسل الانكليزى بين القبائل السكسونية . وفى هذه الزيارة خلع على وينفريد الاسم اللاتينى بونيفاس .

ولما عاد بونيفاس إلى عمله بين قبائل السكسون فى ألمانيا ، وجد بعضهم راسخين فى الدين الجديد ، ولكن آخرين حاولوا اتباع الدين الجديد مع احتفاظهم بدينهم القديم فى الوقت نفسه . وكان القوم يعيشون وسط الغابات والحراج ، فآمنوا أن أرواح الغابات والأنهار والبرك تحاول دائماً إيقاع الأذى بهم ، فأراد بونيفاس أن يطمئن قلوبهم وينزع الخوف منها ، وأن يظهر لهم أن آلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن إيذائهم .

وكان بين أشجار الغابة بلوطة ضخمة ، جبارة ، قالوا عنها «بلوطة الرعد» وقدسوها لأحد آلهتهم ، وكان المسيحيون أنفسهم يقدسون هذه الشجرة . فاستدعى إليه بونيفاس الوثنيين والمسيحيين ، وتقدم أمامهم والفأس بيده ، وطفق يكيل لها الضربات ولم يعبأ بما شهد على وجوههم من علائم الغضب والوجوم . وكانت الشجرة جوفاء من الداخل ، فلم تلبث طويلا حتى انكفأت وسقطت . وأمر بونيفاس بعد ذلك أن يُبنى بأخشاب هذه البلوطة الجبارة أول كنيسة مسيحية لمجد الله فى تلك البلاد .

ظل بونيفاس يجوب البلاد ، سائرا على قدميه ، أو ممتطياً جواده ، يدعو الناس ويعمدهم ، ويعمل بيديه أحياناً لتطهير بقعة من الأرض فى الغابة لاقامة كنيسة عليها . ولما اتسع نطاق عمله بعث إلى وطنه يطلب الأعوان والمتطوعين من رجال ونساء . وكانت له ابنة عم أمدته وأصحابه فى الجهاد بالكتب والملابس . فلما بلغها نبأ الحاجة إلى مجاهدين ، كانت أول من لبى النداء للعمل بين فتيات الجرمان فى الغابات والحراج ، وخرج فى أثرها من أديرة بريطانيا العظمى سيل جارف من الأراملى والعوانس ، وأمهات وأخوات وبنات عمومة المرسلين الذين نزحوا إلى ألمانيا ، ولم يلبث أولئك الجرمان الكواسر الذين ولغوا فى الدماء والعراك حتى خروا على ركبهم طائعين وادعين عند أقدام رسل الرحمة ودعاة المحبة والخير .

ولما بلغ بونيفاس الخامسة والسبعين من عمره ، ألقى رداء الأسقفية جانباً ، وارتدى ملابس الرهبان الخشنة وشرع مع اثنى عشر من صحابته فى آخر مغامرات حياته . وقد أحسّ فعلا أن نهايته وشيكة ، فأقام من يخلفه للاشراف على العمل فى غابات ألمانيا ، وسار مع تلاميذه الاثنى عشر إلى هولندا ، البلاد التى دعته أولا بهاتف روحى إلى ركوب البحر . وظل يعمل هناك سنتين كاملتين بين أشد القبائل شراسة وقسوة ، وتنقل فوق الأنهار والمستنقعات ومجارى المياه ، يبنى هنا وهناك الكنائس الخشبية لمن يقبلون دعوته المسيحية ، وبدت فى الأفق بوادر الفوز والنصر ، وأقبل إليه كثيرون يلبون دعوته .

ولكن حدث فى يوم من أيام الصيف من سنة ٧٥٥ م أن نصب بونيفاس وأصحابه خيامهم على شاطئ نهر استعداداً لاقامة عبادة خاصة يثبّت فيها عدداً غفيراً من المسيحيين الهولنديين ، وكانت المروج المنبسطة أمامهم متلمعة بالأزاهير الوادعة المتفتحة لاستقبال نور شمس الصباح . وفيما هو يترقب بفارغ الصبر مجئ الناس ، أقبل بغتة — عوضاً عن مواكب المسيحيين — عصابة مسلحة بالتروس والرماح ، تدك الحشائش بأقدامها ، وتصيح صيحات الحرب الرهيبة ، فلما رأى أصحابه هذا المنظر المخيف ، نهضوا للدفاع عن سيدهم . أما بونيفاس فخرج من خيمته ، و برباطة جأش استقبل أولئك المتوحشين المسلحين الذين أرادوا القضاء على المرسلين وكل جهودهم ، والتفت إلى زملائه مخاطباً

إياهم فى هدوء وسكينة : « أيها الاخوان : كونوا أبطالا ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولا يقدرون أن يقتلوا الروح . . . تقبلوا الموت ببسالة لكى تكونوا مع المسيح إلى الأبد » .

وهجم الوثنيون على المسيحيين القلائل وفتكوا بهم عن آخرهم .

وقد أخلص بونيفاس للكرسى البابوى فى رومية الاخلاص كله ، وآمن فى غير مواربة ولا مداجاة أن خلاص الكنيسة فى الغرب متوقف على رومية ، فلم يألُ جهداً فى توطيد دعائم البابوية ، وهو صاحب الفضل فيما نعمت به من نفوذ وكرامة خلال القرون الوسطى .

ومن أجلّ أعمال بونيفاس وأبعدها أثراً ، إعادة تنظيم الكنيسة فى دولة الفرنجة ، فقد أمسك كارل مارتل كنيسة بلاده بيد من حديد ، وأبى إدخال أى إصلاح فيها . ولكن بعد موت مارتل تمكن بونيفاس فى زمن قصير من إحياء الدستور الكنسى فى مملكة الفرنجة ، وإحياء المجالس الكنسية الاقليمية تحت رئاسة رؤساء الأساقفة للاشراف على شئون الشعب . وكما فعل فى ألمانيا أخضع كنيسة بلاد الغال لسلطان البابا ، فغدا الجالس على الكرسى الدينى فى رومية الرأس الأعلى للعالم المسيحى فى الغرب ، ومرة أخرى أعيدت إلى الكنيسة الغربية وحدتها .

وكان هذا فى الواقع خيراً للكنيسة ، فان الانحلال إلى عدة كنائس قومية لم يجرّ عليها غير الضعف والخذلان أمام السلطات الزمنية . وكان لهذا الاتحاد أثره البالغ وقوته الهائلة فى الاحتفاظ برسالة الانجيل فى غضون القرون الوسطى ، والابقاء على المسيحية وسط أعاصير السياسة وأهواء الحكام ونزوات الملوك وغزوات الطغاة . وكانت وظيفة البابوية فى ذلك العصر إحياء نظام الكنيسة الجامع الشامل ، والمناداة بالمبادئ المسيحية لتهتدى بنورها شعوب القرون الوسطى .

والفضل فى توطيد زعامة البابا — كما قلنا — يرجع أكثره إلى بونيفاس الانكليزى منشئ الكنيسة الألمانية ، وفى هذا يقول « رودلف سوم » المؤرخ الألمانى نفسه ان بونيفاس لم يبع الكنيسة الجرمانية للبابا ، ولكنه زوّدها — كما زوّد المسيحية كلها — بتلك القوة الحية المنتجة التى كانت مصدراً لعظمة الكنيسة وثقافة القرون الوسطى .

القرن التاسع

[مشكلة الأيقونات — عهد شرلمان الكبير — الامبراطورية الشرقية فى القرن التاسع — الأخوان لراهبان كيرلس ومثيودوسيوس — البلغار] .

يحدثنا التاريخ أن باباوات روسية كانوا خاضعين للامبراطور الشرقى فى خلال القرن السابع. وقد تجاسر البابا مارتن الأول (٦٤٩—٦٥٥م) على حرمان بطريرك القسطنطينية لانضمامه إلى القائلين بالطبيعة الواحدة فى ذات المسيح . فأثار بذلك سخط الامبراطور ، واستدعاه إلى القسطنطينية حيث جرده من ثيابه وأسر بجرّه فى شوارع المدينة بعد أن علق طوقاً من حديد فى عنقه . وبعد ذلك زجه فى خابية رطيبة إلى أن قضى نحبه من جرّاء هذا التعذيب . وكان البابا قسطنطين (٧٠٩ م) آخر من دان بالولاء والخضوع للامبراطور الشرقى وذلك لأن مشكلة الأيقونات وانشغال الامبراطور فى محاربة العرب قد دفعتا البابا جريجوريوس الثانى (٧١٥ — ٧٣١ م) إلى خلع نير القسطنطينية ، وعقد مؤتمر عام فى روسية أصدر فيه حكم الحرمان على الامبراطور وجميع أشياعه .

من ثم يأمن البابا فى هذه الفترة هجمات الامبراطور الشرقى ، ويظفر فى الوقت نفسه بسلطانه التام على كنيسة الغرب بعد الجهود التى بذلها رسوله بونيفاس . ولكن ناحية واحدة يأتيه منها الخطر هى قبائل اللومباردين فى جنوب إيطاليا الذين حاولوا الهجوم على روسية وغزوها عنوة . فاستغاث البابا بملك الفرنجة «كارل مارتل» الذى أفلح فى خضد شوكة اللومباردين وضمن للبابا سلطته الروحية على الغرب .

وقد توثق هذا التحالف فى عهد «بيبان» خلف كارل مارتل الذى توّجه

البابا ملكا على الفرنجة ، وصار الملك شبه حام للبابوية . على أن أزهى عصر شهدته المسيحية الغربية فى القرون الوسطى هو عصر شارلمان الكبير ابن «بيبان» هذا ، وحفيد كارل مارتل العظيم . ولعله العاهل الوحيد فى التاريخ الذى قبض بين يديه على مقاليد كل الأشياء فى عصره . وقد كان محارباً من الطراز الأول ، وعند موته كان قد انضم تحت لواء ملكه الأقاليم المعروفة الآن بفرنسا وبلجيكا وهولندا ونصف ألمانيا والنمسا والمجر وأكثر من نصف إيطاليا وشمال أسبانيا وبعض الولايات الصقلبية فى الشرق . وكان أيضاً نصيراً للعلوم والفنون ، وسيد الكنيسة ، وحافظ النظام ، لم يترك شاردة ولا واردة إلا وعاها واعتنى بها .

أما فضله على المسيحية فلا ينكر ، وقد كان من سياسته أن يضم الأقاليم التى يخضعها إلى حظيرة المسيحية ، ولو بالقوة . ومن مآثره أنه أخضع نهائياً السكسونيين فى ألمانيا . وكان بونيفاس قد أنشأ هناك كنائس انضم إليها خلق كثير — أما هو فجعل المسيحية ديناً رسمياً فى تلك البلاد ، وانضمت القبائل الجرمانية الناشطة الفتية إلى الأسرة المسيحية الأوربية لتلعب دورها الخطير فى مستقبل التاريخ .

وقد بدا للناس كأن ذلك العاهل الذى امتد سلطانه السياسى إلى أبعد الحدود ، والذى أوقف جهوده على نشر المسيحية وإعلاء شأنها — يعيد إلى أوربا مظهر الامبراطورية الدارسة . فلا عجب أن نرى البابا ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦م) — الذى وقاه شرلمان شرَّ استبداد النبلاء الرومان فى إيطاليا — ينتهز الفرصة السانحة ليضع على هامة ملك الفرنجة التاج الامبراطورى الرومانى وهو جاث على ركبتيه فى كنيسة القديس بطرس فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠م ، وقد استقبل الشعب هذا الصنيع بالهتاف والتهليل ، متوقعين أنه سيعيد إلى الغرب صولجان الامبراطورية الذى ظل قروناً فى يد الجالس على عرش القسطنطينية. وكأنما قد شغل شرلمان مقام خلافة أوغسطينوس ، ودُمغت امبراطوريته بالطابع التيوقراطى ، وزعمت شعوب أوربا أن الامبراطورية الرومانية لم تمت ، وأن الله قد مسح إمبراطوراً غربياً ليعيد إليها مجدها التالد . ولم يكن هذا الشعور تحدياً لامبراطور القسطنطينية ، فان أيام الدولة الرومانية الأخيرة

قد شهدت عرشين ولم يكن فى هذا شىء من الغضاضة ، وقد اعترف إمبراطور القسطنطينية ليو الخامس (٨١٣ — ٨٢٠ م) بلقب زميله الغربى الذى خلعه البابا على شرلمان .

وقد كان هذا التتويج فى رومية بعيد الأثر فى حياة الغرب وفى حياة البابوية ، وذلك لأنه كان مدعاة للمنازعات العنيفة التى ثارت فيما بعد خلال العصور الوسطى بين السلطتين الامبراطورية والبابوية ، كما أنه قوّى فى الناس الشعور بأن الكنيسة والدولة ليسا إلا وجهين لترس واحد ، أحدهما يقود الانسان إلى السعادة الزمنية ، ويقوده الآخر إلى الغبطة الأزلية ، وكلاهما مقترنان معاً على أساس المعونة المتبادلة .

وقد نسج التاريخ حول شرلمان سلسلة من الأساطير والقصص عن شجاعته وبسالته وحسن بلائه فى الحروب ، على أن شرلمان لم يكن جندياً عظيما وحاكماً قديراً وحسب ، بل كان قبل كل شئ مسيحياً كاثوليكياً تقياً ، أصرَّ على أن يخضع أعداؤه ، لا لسلطانه الزمنى فقط ، بل لمبادئ الدين المسيحى أيضاً . وكانت القبائل فى ذلك الزمن تتبع زعماءها فى العقائد الدينية دون بحث أو تفكير ابتغاء المنافع فقط، ويروى عن زعيم من الزعماء الذين قهرهم شرلمان ، أنه تعمَّد عشرين مرة ليجمع لديه عدداً من الثياب البيضاء الأنيقة التى كانت تقدمها الكنيسة عادة للمتنصرين !

على أن شرلمان لم يرضِه أن يكون شعبه مسيحياً بالاسم فقط، فأراد أن يلقنه مبادئ الدين الصحيح ويروضه على الحياة الكريمة الفاضلة ، ولما اعتلى العرش كانت الأحوال سيئة ، فالحروب المتواصلة والغزوات المتكررة قد دمرت كثيراً من الأديرة وأفقدتها كتبها القيمة وشردت علماءها ومعلميها ، وتولّى المناصب الأسقفية رجال جهلاء لا يمتون للتقوى بصلة ، فكان أول ما عمل أن استقدم إليه فريقاً من العلماء للاستعانة بهم فى إنشاء المدارس وإصلاح الأديرة وتعليم الشعب . وكان بين الذين نالوا لديه حظوة خاصة ومقاماً ممتازاً راهب انكليزى يدعى «ألسيون» ، وقد اختاره شرلمان قسيساً خاصاً له ومعلماً للأسرة المالكة وتدريب المعلمين فى الامبراطورية .

ويمكن أن يقال ان إحدى المعارك التى فاز فيها شرلمان فوزاً مبيناً كانت

معركة الكتب . ففى تلك الأزمنة المظلمة المضطربة التى أحرقت فيها كتب كثيرة،وقتلت طائفة من العلماء ، وطرد آخرون وشردوا ، لم يكن هيناً العثور على نسخة سليمة من الأسفار المقدسة أو كتب العبادة الكنسية ، وذلك لأن بعضها قد شوّه ، والبعض الآخر نقله قوم جهلاء ، فما خلت صفحة واحدة من الأخطاء والأغلاط . أما الذين كانوا يقرأون هذه الكتب فقلما كانوا يفهمونها ، والمستمعون إليها لم يطرق آذانهم إلا خليط من الألفاظ التى لا معنى لها . كذلك اضطربت الموسيقى الجميلة الرائعة التى وضعت ألحانها فى روسية . لذلك كان همُّ «ألسيون» أن يصحح قبل كل شىء نسخ الكتاب المقدس الخطيّة وكتب العبادة التى خطّتها أيد جاهلة ، وأن يعطيها بعد ذلك إلى رهبان متعلمين لكتابة نسخ أخرى كثيرة ، وقد استغرق تصحيح الكتاب المقدس سبعة أعوام ، وقدمه « ألسيون » هدية التتويج للامبراطور شرلمان فى سنة ٨٠٠ م .

وفى الوقت نفسه استقدم شرلمان من روسية اثنين من مشاهير الملحنين لتعليم الموسيقى الصحيحة ، وأنشأ مدارس للموسيقى فى متز وسواسون ، بعث إليها كل معلمى الجوقات الموسيقية بكتبهم لتصحيح ألحانها .

وفضلا عن تصويب الكتب الخطيّة ، بذل الراهب «ألسيون» جهداً جباراً فى مدرسة القصر لتعليم شرلمان نفسه وأبنائه وبناته ومشيريه وأبناء النبلاء والأحرار الذين جمعهم شرلمان حوله لهذا الغرض . كذلك جاهد الراهب فى إحياء أو إنشاء المدارس الملحقة بالأديرة فى كل أنحاء الامبراطورية . وكان ملحقاً بكل دير مدرسة صغرى يمكن لكل مسيحى أن يتعلم فيها أركان الايمان والأدعية والموسيقى الكنسية والمزامير وقواعد النحو فى اللغة اللاتينية ، ومدرسة كبرى تنقسم إلى قسمين : أحدهما للرهبان والآخر لأفراد الشعب لتلقين بعض موضوعات الدراسة الصعبة كالفلك والحساب والموسيقى والأدب . وقد نشطت هذه الأديرة فى اقتناء الكتب والمؤلفات ، وفاخر بعضها أن يقتنى مؤلفات هوميروس وفرجيل علاوة على الأسفار المقدسة وكتابات الآباء الأولين .

ولم يكن نشاط شرلمان نفسه بأقل من نشاط معلمه ، فأصدر قوانينه الخاصة فى الاصلاح ، وأمر القساوسة أن يجمعوا حولهم الأحداث ويعلموهم ، وأوعز إلى الفلاحين أن يتعلموا الموسيقى الكنسية بانشادها وهم يحرثون الأرض و يرعون

مواشيهم ، وألهب روح الحماس والعمل فى نفوس الأساقفة ، ووضع قواعد النحو للّغة الجرمانية القديمة التى كان يتكلمها هو والشعب الانكليزى فى ذلك الزمن ، وأبى على معلمه المحبوب «ألسيون» أن يقضى أخريات أيامه فى وطنه الأصلى انكلترا ، واستبقاه فى أحد الأديرة فى فرنسا لمتابعة عمله فى نسخ الكتب وتثقيف المعلمين والرهبان حتى مات هناك فى سنة ٨٠٤ م .

وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ مات الامبراطور العظيم شرلمان ، وظلت المدارس التى أنشأها قائمة بعملها المجيد فترة من الزمن ، ولكن الحروب احتدمت بين أبنائه ، وثارت المنازعات بين النبلاء الذين كان قد خلق منهم طائفة قوية حوله للدفاع عن الامبراطورية ، ونزلت من الشمال قبائل الهون فأعملت مرة أخرى معاول التخريب والتدمير فى هذه الامبراطورية الزاهرة كما سنرى فيما بعد .

على أن معركة الكتب التى كسبها شرلمان لم تخسر بعد ذلك ، وبقيت هذه التحف الثمينة وسط الحروب والمنازعات ذخائر قيمة مكتنزة بين جدران الأديرة ليطلع منها النور مرة أخرى فى سماء أوربا .

الامبراطورية الشرقية :

هذا كان شأن الغرب فى بكور القرن التاسع . أما فى الشرق فنرى إمبراطوراً قوياً يدعى باسيل المكدونى يجلس على العرش فى بيزنطة سنة ٨٦٧م — وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية — أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب — قد حصرت نشاطها فى أوربا الشرقية — بعد أن اقتطع العرب ولاياتها الأسيوية والأفريقية وسلمت من الانهيار بارتداد العرب عن القسطنطينية . وراحت هذه الامبراطورية تصطبغ بالصبغة اليونانية البحتة فى أفكارها ولغتها ، وطفقت تقف موقف العداء حيال الغربيين (اللاتين) . وحيال مطالب الباباوات وتدخلهم فى شئون الكنيسة . وقام شجار عنيف بين الشرق والغرب حول إضافة كلمة إلى قانون الايمان (١) .

---

(١) وهى كلمة الابن التى أضيفت مؤخراً إلى عبارة قانون الايمان عن الروح القدس «المنبثق من الآب والابن» .

وبلغ الشجار ذروته يوم عُزل الأسقف أغناطيوس بسبب شجاعته فى لوم الامبراطور الشرقى وعذله على خطاياه ، ونصب أسقف آخر فى محله يدعى فوتيوس . وقد رفع الاثنان دعواهما إلى البابا فأصدر حكمه فى صالح أغناطيوس .

وظل النزاع قائماً إلى أن كانت سنة ١٠٥٣ م فأصدر البابا حكم الحرم على أسقف القسطنطينية . فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أذاع على سائر أساقفة المشرق أن الكنيسة فى الغرب قد هرطقت وحادت عن الايمان القديم ، وأن الكنيسة الشرقية هى الكنيسة الأرثوذكسية الصحيحة . ومن ذلك التاريخ أطلق عليها هذا الاسم . وكان ذلك الحادث التعيس فاتحة نزاع مرّ قاس شطر الكنيسة أخيراً إلى شرقية وغربية . وظاهر الأمر أن الشرق قد احتج على الغرب بسبب إضافة كلمة إلى قانون الايمان النيقوى دون استشارته ، واعترض على بعض العادات الكنسية المقتبسة من الغرب ومنها ضرورة بقاء الكهنة عزاباً . هذا هو منشأ النزاع فى الظاهر ، ولكن حقيقة الأمر أن هذه المنازعات مصدرها الشعور القومى ، والحسد السياسى ، وحب الرئاسة ، والتباين فى التفكير واللغة بين اليونان واللاتين .

الاخوان الرسولان :

وفى تلك الفترة أخذت الشعوب التى أخضعها إمبراطور بيزنطة فى شرق أوربا تتقرب إلى الدين المسيحى ، وهؤلاء تلقوا الأنباء فى بادئ الأمر من معلمين جهلاء ، لأن الكنيسة لم تعنَ فى هذه الفترة باعداد معلمين صالحين لاشباع حاجة الشعوب الكثيرة ، وهؤلاء شهدوا بعيونهم أحياناً رجال الكنيسة ورجال الدولة يعيشون حياة لا تختلف عن حياتهم ، ولكنهم شهدوا أيضاً كثيراً من الجمال والروعة فى حياة المسيحيين حقاً ، وكان أمراء تلك الشعوب والقبائل يطلبون تارة إلى البابا وأخرى إلى الامبراطور أن يوفد إليهم رسلا لتعليمهم الدين المسيحى .

وكانت مشكلة اللغات فى ذلك الزمن أعقد المشاكل ، فالغرب ظل محافظاً على اللغة اللاتينية كلغة رسمية ، وان تكن الأدعية والعقائد والأسفار المقدسة قد

ترجمت فى بعض الأحوال للاستعمال الشخصى . وكانت انكلترا وبلاد الغال (فرنسا) وألمانيا وسكندناوه تتكلم اللغة التيوتونية و يمكنها التفاهم بها فيما بينها . واستعملت الامبراطورية الشرقية اللغة اليونانية ، أما البلدان والأقاليم الواقعة شمال اليونان وغرب ألمانيا — ومنها بلاد روسيا الشاسعة الأرجاء — فلم تكن تفهم إلا اللغة الصقلبية .

وتلبية لنداء هذه الشعوب والقبائل أوفد ميشيل إمبراطور بيزنطة فى سنة ٨٦٣ م رسولين أخوين راهبين من سالونيك — هما كيرلس وكان كاهناً تلقى العلم على يدى الأسقف فوتيوس وكان مرة أمين مكتبة القصر الامبراطورى ، وميثودوسيوس وكان فناناً وجندياً وتولى الحكم مرة فى ولاية «بانوينا» اليونانية الصقلبية . وكانت ولاية مورافيا المسرح الرئيسى لجهودهما . وكان شارلمان من قبل قد غزا هذه الولاية وبذل رئيس أساقفة سالزبورج جهوداً لكسب أهلها إلى المسيحية ، ولكن رسله كانوا يجهلون اللغة الصقلبية ، وكان الكتاب المقدس بلغة لم يفهمها الشعب ، فلم تصادف جهودهم توفيقاً يذكر . فكان على الرسولين الأخوين — كيرلس وميثودوسيوس — أن يضعا الحروف الأبجدية للّغة الصقلبية ، وأن يترجما سفر الأعمال وبشائر الانجيل وبعض العبادات الدينية إلى هذه اللغة . ولما بلغ مسامع البابا أن العبادة تتلى باللغة الصقلبية حنق وأصدر حكمه عليهما ، ولكن الأخوين دافعا عن نفسيهما فى رومية دفاعاً روحياً مجيداً فاضطر البابا إلى إلغاء حكمه والرضاء عنهما . ومات كيرلس فى رومية فى سنة ٨٦٩ م وأما ميثودوسيوس فقفل راجعاً إلى مقر جهاده بعد أن رسمه البابا رئيس أساقفة «بانوينا» فى سنة ٨٧٠ م ، وصار بعد ذلك رئيس أساقفة مورافيا.

على أن أساقفة الجرمان الحاسدين والولاة والحكام أخذوا يعرقلون جهوده، ولكنه تغلب على كل معاكساتهم بصبره و إخلاصه . وطرد مرة من كرسيه ولكن البابا أعاده إليه ، واستدعى مرة أخرى إلى رومية متهماً بالهرطقة ، ولكن أطلق سراحه ، وأرسل إلى القسطنطينية متهماً بالخيانة ، وهنا أيضاً اتضحت براءته وعاد إلى مقر عمله مزوداً بالهدايا والكرامة . وفى أواخر حياته أوقع عداته بينه وبين أمير «بانوينا» ولكنهم فشلوا فى عرقلة جهوده ، وتغلب عليهم بصبره و إخلاصه ، وظل يجاهد حتى موته فى سنة ٨٨٥ م بعد أن شهدت عيناه اهتداء

كل الشعوب الصقلبية من دلماتيا وكرواتيا على شواطئ الادرياتيك إلى تخوم بولندا . وعلى يديه اعتنق دوق بوهيميا المسيحية .

البلغار :

وهنا كلمة عن البلغار بالذات: فالبلغاريون هم المغول الذين نزحوا من أواسط آسيا ، وكان أول الدعاة بينهم الأسرى المسيحيين الذين حملوهم معهم عند استيلائهم على مدينة أدرنة فى سنة ٨١٣ م ، وقد شهد أولئك الأسرى لدينهم وهم فى الأسر ، وختم كثيرون منهم شهادتهم بدمائهم . وحوالى سنة ٨٦٠م بعث بوريس الملك البلغارى يطلب إيفاد معلمين مسيحيين ، وذلك بناء على إلحاح أخته وتوسلها ، وكانت قد اعتنقت المسيحية وهى أسيرة فى القسطنطينية . وقبل هو وشعبه الدين المسيحى .

وحدث مرة فى إحدى رحلات ميثودوسيوس الأسقف الفنان أن استدعاه البلاط البلغارى ليرسم للأمير صورة صيد. وقال له الأمير : إجعلها كبيرة رائعة مريعة . فطلب الأسقف أن يُعطى خلوة لرسم الصورة ، ولما فرغ منها دخل الأمير قاعة القصر ، فبدلا من أن تقع عيناه على صورة الصيد ، رأى صورة القضاء — المسيح جالساً على عرشه يدين الخير والشر فى اليوم الأخير . ولما عرف الأمير معناها ، تقدم نحو الصورة وأحنى رأسه أمامها والتفت إلى الفنان وقال : «زدنى من هذه المعرفة لأكون فى اليوم الأخير فى الجانب البهىّ المنير من هذه الصورة» .

القرن العاشر

[نشأة الدولة الروسية — قصة دخول المسيحية إلى روسيا — فلاديمير — ياروسلاف] .

كانت روسيا آخر الدول الأوربية التى اعتنقت المسيحية ، وآخر الشعوب التى استنارت بالحضارة الحديثة.. وقد بدأت روسيا كدولة فى القرن التاسع الميلادى يوم أغارت بعض القبائل الشمالية من سكندناوة على المنطقة الواقعة شرق بحر البلطيق ، وقد زحف أحد قوادهم واسمه «روريك» حتى مدينة كييف فى الجنوب ، حيث أنشأ نواة الدولة التى امتدت فيما بعد وصارت الامبراطورية الروسية ، فوحد القبائل الصقلبية ، واضطر الغزاة إلى إدماج قوميتهم السكندناوية الشمالية بالصقالبة الذين كانوا تحت حكمهم ، وامتزج الغالبون والمغلوبون فى قومية واحدة . وقد أطلق الصقالبة اسم «روس» ، وهو لقب صقلبى ، على أولئك الغزاة الشماليين ، ثم تزوج ابن القائد «روريك» من سيدة اسكندناوية تدعى «أولجا» ، كانت على قسط كبير من الجمال الرائع .

وإلى سنة ٩٣٥ م كان الشعب الروسى وثنياً عاكفاً على تقديم الذبائح البشرية . والأميرة السكندناوية أولجا هى صاحبة الفضل الأكبر فى تأسيس المسيحية الروسية . ومما يقوله عنها التاريخ الروسى القديم : «مهدت الطريق للمسيحية فى روسيا ، كما يمهد الفجر الطريق لانبثاق أنوار الشمس» .

وقد عرفنا مما تقدم أن الامبراطورية الرومانية قد انقسمت شطرين فى أواخر القرن الرابع — شرقية وغربية . وراح دبيب الانقسام يسرى بين الكنيستين الشرقية والغربية لأسباب بعضها سياسية وبعضها دينية . ورأينا كيف راضت المسيحية القبائل الجرمانية التى انحدرت من الشمال إلى الجنوب للاستيطان فى

أرجاء أوربا الوسطى والجنوبية ، وانضم بعض هذه الشعوب المغيرة إلى الكنيسة الغربية بزعامة البابا فى رومية ، والبعض الآخر إلى الكنيسة الشرقية التى تزعمها فى أوربا يومئذ بطريرك القسطنطينية . وبذلك اندمج الانكليز والفرنسيس والجرمان فى أسرة الكنيسة الغربية ، أما الصقالبة الذين استقروا فى بلادالبلقان وحوض الدانوب منذ القرن السادس فتلقوا المسيحية عن الكنيسة الشرقية اليونانية وذلك بحكم اتصالهم بالامبراطورية الرومانية الشرقية .

وقد تمّ تنصير روسيا على يد الكنيسة اليونانية فى الفترة التى بدأ فيها الشقاق يدب بين الكنيستين الغربية والشرقية (وقد تم الانفصال سنة ١٠٥٤ م) . وكان لانسياب المسيحية والحضارة إلى روسيا عن طريق القسطنطينية مركز المسيحية الشرقية — لا عن طريق رومية مركز المسيحية الغربية — أثره البارز فى تطور مستقبل روسيا .

وثمة أسطورة لا يؤيدها سند تاريخى تقول ان القديس اندراوس أحد الحواريين تلاميذ المسيح انطلق شمالا ينادى برسالة الانجيل حتى بلغ مدينة «كييف» الروسية فى طريقه إلى رومية . وهناك وقف على هضاب «كييف» العالية وصاح : « أترون إلى تلك الجبال الشامخة . إن نعمة الله ستنيرها يوماً . وسيكون فيها مدن عظيمة ، وتشيد كنائس كثيرة » . ثم ارتقى أعالى تلك الهضبة وباركها وأقام هناك صليباً .

ومثل هذه الأسطورة كثير غيرها ترويها الأحاديث الروسية المتواترة . ولكن الثابت تاريخياً فى مدونات الراهب نسطور (أبى التاريخ الروسى) أن المسيحية امتدت فى روسيا فى عهد الملكة أولجا وحفيدها فلاديمير فى القرن العاشر .

ويروى التاريخ قصة شائقة حقاً عن دخول المسيحية إلى روسيا . فقد حدث أن أولجا الملكة الوالدة فى ذلك العصر ذهبت إلى القسطنطينية فى زيارة رسمية لامبراطورها سعياً وراء حق جديد . ويعتقد نسطور مؤرخ تاريخ روسيا (فى سنة ١٠٣٥م) أن بينها وبين ملكة سبأ كثيراً من أوجه شبه ، مع فارق واحد هو أنها ذهبت إلى البلاط الامبراطورى سعياً وراء حكمة سماوية بينما رحلت ملكة سبأ سعياً وراء حكمة أرضية . وهناك تعمدت بيدى الحبر الأكبر فى سنة ٩٥٧ م

وصارت عضواً فى الكنيسة اليونانية ، وقد أعجب الامبراطور بسحر جمالها ورقة أنوثتها . وأراد أن يتخذها زوجة له فأبت عليه ذلك . ولما عادت إلى وطنها حملت معها كاهناً يونانياً لنشر الرسالة المسيحية بين الصقالبة الوثنيين ، وحاولت إقناع ولدها وحمله على اعتناق المسيحية ، ولكنه خشى سخرية شعبه ، ولم يكن بطبيعته أهلا للدين المسيحى ، فقد كان محارباً قاسياً عنيفاً ، سريعاً فى الكرّ والفرّ ، ميالا إلى حياة المعسكرات . . . ولم يكن يستسيغ الطعام المطهى ، بل أحب شرائح لحم الخيل تشوى شيًّا على نار المعسكرات وتؤكل نصف نيئة .

وقد عاشت الملكة أولجا فى قصرها فى كييف مع حفيدها الصغير «فلاديمير» ، وكانت تروى له الأقاصيص الدينية التى لم يكن يملُّ سماعها وشغف بها كل الشغف . أما والده الأمير فلم يتسع له الوقت للاشراف على تربية ولده لانهماكه فى إدارة شئون الأقاليم الروسية وعهد بهذه المهمة إلى الجدة .

وكثيراً ما كان يجلس فلاديمير إلى جانب جدته أولجا ويلح عليها أن تروى له قصة الرحلة مرة أخرى ، فتبدأ له القصة من أولها ، كأنها الراهب المؤرخ نسطور يسجل «أيامه» ، فتقول :

« فى سالف الزمان قام أميران من «كييف» اسمهما «اسكولد» ، و «دِير» ، وأبحرا فى نهر الدنيبر بأسطول قوامه مائتا سفينة مسلحة لغزو مدينة بيزنطة العظيمة عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية . ولما اقتربت السفن إلى أسوار المدينة هبَّت عاصفة هوجاء ، وتلاطمت الأمواج العجاجة فحطمت السفائن الحربية كلها . وقيل يومئذ ان البطريرك — رئيس الكنيسة فى بيزنطة — كان قد رفع الدعاء إلى الله ليحمى المدينة ويقيها شر الغزاة ، فلم يفلح الأميران فى غزوتهما ، ولم تمس المدينة بسوء . وكان من آثار هذا الفشل أن اعتنق الأميران المسيحية ، وعادا إلى روسيا يدعوان إلى هذا الدين الجديد ، مبتدئين من كييف .

« وفى كنيسة كييف الصغرى سمعت لأول مرة عن الاله الحق ، وتاقت نفسى أن أستزيد من هذه المعرفة ، وأيقنت أنى سأجد ضالتى فى مدينة بيزنطة ، مقر البطريرك . فنزلت يوماً فى سفينة مع جمع من الرفاق فى نهر الدنيبر . وقد مررنا فى رحلتنا بالزوارق الصغيرة التى يصنعها سكان الغابات لحمل العسل

والشمع والغراء والكتان إلى أسواق الجنوب . ويعد عبور البحر الأسود يبلغون بيزنطة فيستبدلون سلعهم هذه بالحرائر النفيسة والجواهر التى يبتاعونها من الأغريق . أترى هذه الجوهرة الثمينة التى أعلقها فى عنقى . لقد ابتعتها فى الرحلة التى أروى لك الآن خبرها .

«وأخيراً بلغنا المدينة العجيبة ، مدينة كتدرائية القديسة صوفيا الرائعة . ليس كمثلها شىء مما أعرف أنا وأنت(١) . جدران مطلية بالذهب والفضة ، والحجارة الثمينة ، وأعمدة سامقة من الرخام الملون البديع ، وقباب هائلة متعالية فى الفضاء . وتعمدت بيد البطريرك بوليكتوس . وقد عرف شدة لهفتى على نقل هذه الأخبار المفرحة إلى شعبى ، فوضع يديه على رأسى وقال هذه الكلمات وهو يباركنى : « مباركة أنتِ بين نساء روسيا ، الأجيال الروسية تطوبك » .

وإذ تنتهى الجدة من قصتها ، كان يعلو وجهها سحابة من الكآبة والكمد، وقد عرف فلاديمير الصغير أن مبعث هذه الكآبة هو صدود والد الأمير عن الاستماع إلى جدته وإتباع الاله الحى . وحين كان يقارن الشاب فلاديمير أخلاق جدته الرقيقة الرضية بخشونة والده وغلظته ، كان يفكر ويسائل نفسه عن المصير الذى سيختاره فى الحياة بعد أن يصير رجلا .

. . . يكبر فلاديمير ، ولكنه ينسى — إلى حين — الشىء الكثير مما كان قد تعلَّمه على لسان جدته ، ويشغل فكره بالمطامع الأنانية القاسية . ولما مات والده نزع إلى الطموح والعظمة ، فضم إلى نصيبه من الأرض أنصبة أخوته ، واستأثر بكل الأقاليم التى خلفها أبوه . ويقول عنه المؤلف نسطور انه كان أشبه بسليمان فى شدة تعلقه بالنساء ، فكانت له خمس زوجات ، وثمانى مائة من المحظيات ، وغيرهن كثيرات من النساء اللواتى كان يتصل بهن فى فترات

---

(١) بنيت كنيسة «أيا صوفيا» فى القسطنطينية (بيزنطة) على النمط البيزنطى ، وتعد من أروع بدائع هذا الفن فى العالم . بناها الامبراطور يوستنيان فى القرن السادس . وكانت الكنيسة فى عهد أولجا وفلاديمير باقية على روعتها وجلالها قبل أن يسلبها جمالها وروعتها برابرة الغرب فى الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢—١٢٠٤) ولما استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م جعلوها مسجداً . ولكن الأتراك الحديثين جعلوها متحفاً بعد أن أزالوا النقوش الاسلامية وكشفوا عن رسومها ونقوشها الأصلية .

متقطعة . وكان أيضاً شديد التمسك بالآلهة القومية الوثنية ، فأقام تمثالا لأحد الآلهة كانت تقدم عند قدميه الذبائح البشرية .

على أن مؤثرات الطفولة وتعاليم جدته لم تطمس جذوتها فى نفسه على الرغم من كل هذه الضلالات . وكان قد التقى فى فتوحاته الجديدة بأقوام من المسلمين واليهود والمسيحيين ، وعرف أن أديان جميع هؤلاء تفضل دينه ، فلم يرضِه دين آبائه ، وآثر أن يبحث فى هذه الأديان ليختار منها ما يرضاه لنفسه ولقومه .

وجاءه أولا قوم من المسلمين من بلغاريا وقالوا له : «أيها الأمير . إنك على الرغم من حصانتك وإصالة رأيك لا دين لك . فخذ ديننا وقدم ولاءك لنبينا محمد» . وبعد أن ناقشهم فى أمور الدين صرفهم قائلا : «أريد شيئاً آخر» . ثم أقبل إليه قوم من رومية ، مهد المسيحية الغربية ، موفدين من البابا ، فأصغى إلى أقوالهم ولكنه لم يقتنع . ثم أقبل إليه قوم من يهود القرم وحاولوا إقناعه بقبول اليهودية ديناً له . ولكنه لما وجدهم مبعثرين مع إيمانهم أن موطنهم فى أورشليم سألهم قائلا : «كيف تعلِّمون غيركم أنتم الذين رُفضتم وتبعثرتم فى أوطان غريبة . أتريدون أن يحيق بنا هذا المكروه الذى حاق بكم ؟» . وذلك لأن فلاديمير أراد أن يوحد شعبه بعقيدة راسخة متينة لا تزعزعها الخطوب .

وآخر الكل جاءه راهب يونانى حاملا إليه نبأ المسيحية كما يعرفها فى بيزنطة . وهنا تذكر فلاديمير الروايات التى قصتها عليه جدته الطيبة القلب ، وأحس أنه يوشك أن يجد ضالته التى ينشدها . ولكنه مع ذلك آثر الحذر ، وأراد أن يقدِّر لرجله قبل الخطو موضعها ، فصرف الراهب لحال سبيله ، واعداً إياه أن يفكر فى الأمر .

وبعد ذلك يرسل فلاديمير جماعات من أشراف قومه لزيارة المساجد الاسلامية والمجامع اليهودية والكنائس الرومانية واليونانية ، لكى يروا كيف يعبد الله كلٌّ من هذه الطوائف . وبعد عودتهم استدعى فلاديمير حكماءه ومشيريه مرة أخرى ليمهدوا له بنصحهم سبيل الاختيار .

وراح المبعوثون يشرحون لأميرهم ما رأوا وما سمعوا ، ومواطن الضعف وأسباب الروعة فى كل العبادات التى رأوها . ووصفوا له فى إسهاب عبادة دينية حضروها فى كاتدرائية القديسة صوفيا بالقسطنطينية فقالوا : « ما درينا أكنا فى

السماء أم على الأرض . فان المشهد لا مثيل له على الأرض . ليس كمثله شيء ، ولا قبل لنا على وصفه . على أننا شعرنا هناك أن روح الله يسكن مع البشر . حاشا أن ننسى الجمال الذى تغذت به عواطفنا ، وحاشا أن نبقى بعد اليوم على الوثنية» .

وتذكر فلاديمير وهو يصغى إلى أقوال حكمائه قصة الرحلة التى روتها له جدته من قبل ، التى أحبها وشغف بها فى عهد صبوته . وتذكر كيف جاهدت وسعت حتى ظفرت فى بيزنطة بعبادة الله الحى . وتفوه الحكماء بأقوال عبرت عن خلجات قلبه حين قالوا : « لو كان دين اليونان باطلا ، لما قبلته جدتك أولجا وهى أحكم بنى البشر» .

بلغ خاتمة المطاف فى تفكيره ، واعتزم فلاديمير أن يصير مسيحياً ، ولكنه لم يكن قد عرف بعد معنى المسيحية الحقة . فقد كان فى مقدوره أن يتنصر فى كبيف قاعدة ملكه ، التى كان بها كنائس ومرسلون من القسطنطينية ، ولكنه كان مزهواً فخوراً ، طامعاً طامحاً ، وأراد أن يؤثر فى البطاركة والأباطرة اليونان بمظاهر حربية لاعلان مجده وعظمته . وكأنما حالت كبرياؤه بينه وبين إذلال نفسه فى أعين اليونان ، والظهور أمامهم بمظهر المتوسل الذى يلتمس الخضوع لكنيسة المسيح ،وساقه تفكيره إلى طلب المعمودية كغنيمة من غنائم الانتصار الحربى ، وكأنما أراد أن يرغم اليونان على إعطائه شيئاً من حقه ، لا منحة يلتمسها منهم التماساً . وفى سبيل تحقيق هذه الفكرة تولى قيادة جيش عرمرم وزحف به إلى «سباستبول» فى شبه جزيرة القرم ، وكانت يومئذ من أملاك الامبراطورية البيزنطية . ونذر أن يتنصر إذا استولى على المدينة عنوة واقتداراً . وبعد أن تم له النصر بعث إلى الامبراطور يطلب يد أخته «حنة» زوجة له ، مهدداً إياه بالزحف إلى القسطنطينية إذا تأبى . ويقال ان الأميرة اليونانية بكت وانتحبت أن تقع فريسة بين ذراعى رجل قاس . ولكنها قبلت بعد إذ علمت أنها ستكون الأداة لحمل الشعب الروسى على اعتناق المسيحية . ولم يمض زمن طويل حتى تعمد فلاديمير فى الكنيسة المسيحية وتزوج من الأميرة «حنة» . وبعد ذلك بنى كنيسة فى «سباستبول» ، ثم رد المدينة إلى الأباطرة الرومان أصحابها الأصليين .

يعود الأمير فلاديمير إلى روسيا مع زوجته ونفر من المرسلين اليونانيين . ويحطم التمثال الذى أقامه للاله الوثنى ويلقيه فى النهر ، ولكنه يأتى عملا يدل على أنه ما فتئ الأمير القوى الباطش ، لا الزعيم المسيحى المصلح . وذلك لأنه أصدر مرسوماً يدعو به الشعب عن بكرة أبيه للمجئ إلى ضفاف نهر الدنيبر للمعمودية . وما من شك أن بين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية عدداً غفيراً من الناس انضم إلى هذا الدين الجديد خشية غضب الأمير أو ابتغاء مرضاته . والمسيحية لا تكتسب أنصارها بمثل هذه الوسائل ، وهى أبعد الأديان عن أسباب الاغراء والوعيد .

على أنه بعد أن عرف المسيحية معرفة أفضل ، أدرك أن القوة ليست الوسيلة الملائمة لاستمالة الناس إلى المسيح ، وآثر أن يترك قومه أحراراً ، ولم يرغم من آثروا البقاء على حياتهم القديمة . وبدلا من القسر والارغام، راح يقنعهم بالملاينة والملاطفة ، وأنشأ المدارس لتعليم الأحداث ، وبنى الكنائس فى المدن ، وعين المعلمين والكهنة ، وبعث أبناء النبلاء إلى القسطنطينية لاعدادهم ليكونوا دعاة ورسلا بين الشعب . ولعل الأثر العظيم الذى خلد إسم فلاديمير ، والذى اقتبسه من بيزنطة ، هو الكتدرائية الرائعة التى شيدها فى كييف عاصمة ملكه على الطراز اليونانى ، وهى كتدرائية الشعب التى أقامها لمجد الله فى قلب المملكة الروسية .

***

هذا ما فعله فلاديمير فى القرن العاشر . على أن تنصير روسيا فعلا لم يتم إلا فى عهد ولده باروسلاف (١٠١٧ — ١٠٥٤ م) ويقول عنه التاريخ انه أحب رجال الدين وأكرمهم ، وخاصة الرهبان . وشغف بالدرس والبحث والاطلاع . وقد جمع حوله نخبة من العلماء قاموا بترجمة الكتب الدينية من اللغة اليونانية إلى الصقلبية ، وإعداد كتب كثيرة لتعليم الأحداث مبادئ الدين . وبنى كنائس كثيرة ، واختار رجال الدين بنفسه من المشهود لهم بحسن السيرة وصفاء الذهن وواسع العلم . وفى عهده ازدهرت المسيحية فى طول البلاد وعرضها وبلغت شأواً رفيعاً .

القرن الحادي عشر

[عهد الظلام فى أوربا — الوثائق المزورة — الكراسى البابوية فى القرنين التاسع والعاشر — دبيب الحياة بعد النكسة — رهبانية دير كلونى — إصلاح الأديرة والكنيسة — هلدر براند أوجريجوريوس السابع] .

مات شرلمان العظيم ، الجندى القدير والمصلح الدينى الكبير فى أوائل القرن الثامن ، فيعقب موته قرنان غرقت فيهما أوربا فى أظلم عصورها وأرهبها ، فالامبراطورية الغربية التى أنشأها على غرار الامبراطورية الرومانية قد تداعت أركانها ، وتزاحم على السلطان ملك الفرنجة و إمبراطور ألمانيا (الذى دعا نفسه خليفة شرلمان) والنبلاء الذين خلقهم شرلمان حول عرشه ليكونوا له صوناً وحمىً . وقد استقل كل من هؤلاء النبلاء بما اقتطعه لنفسه من رقعة فى أوربا ، وقضى حياته يشن الحرب على جيرانه ، وقد أحيطت قلاعهم الحجرية الهائلة بأراض واسعة يُسخر فيها الفلاحون كما لو كانوا عبيداً أرقاء ، وكان لكل نبيل أنصار من تحته يتلقون الأمر منه ، ولهؤلاء الأنصار أتباع أقل منهم شأناً يسكنون فى رقاع أصغر و يحوزون قطعاً من الأرض أقل من سادتهم الأكبرين ، الذين كانوا يؤدون لهم الطاعة والولاء فى شكل خدمات حربية . وحينما كانت تهدأ ثائرة الحروب ، كان هؤلاء النبلاء يصطنعون الحرب اصطناعاً فى شكل مباريات يقتتل فيها الشجعان والأبطال . وقد امتلأ تاريخ هذه الفترة بأقاصيص رهيبة تروى حوادث القتل والتعذيب ، ولم يكن ثمة صوت يحتج على هذه الفظائع غير صوت الكنيسة المسيحية فى بعض الفترات المتقطعة .

ففى جنوب فرنسا مثلا حاولت المجالس الكنسية أن تحدّ من هذه المعارك بين النبلاء وأتباعهم ، فوضعت قانوناً اسمه « معاهدة الله » فرض على الناس أن يكفوا عن القتال فى أيام الصوم وفى أربعة أيام من الأسبوع ، وأن يمتنعوا عن مهاجمة الأديرة ورجال الدين والحجاج والنساء ، وأن يتركوا العبيد المساكين الذين يرزحون تحت عبء العمل فى الحقول والضياع فى دعة وسلام . وكان عقاب من يخالف هذا القانون أن يحرم تناول الأسرار المقدسة ، وأن يمتنع المسيحيون عن زيارته فى حالة المرض .

مات شرلمان فى سنة ٨١٤م وتابع ولده لويس التقىّ خطى أبيه فى الاصلاح ، ولكن أعوزته تلك الشخصية الفذة ، فثار عليه أخوته ونبلاؤه وأفسدوا عليه كل أغراضه ، وضاعت جهود شرلمان ، وكأنما كانت باطلة مزيفة أنوار الفجر التى أشرقت على أوربا فترة من الزمن . فما كادت تظهر حتى أعقبتها أحلك أزمنة الظلمة فى العصور الوسطى . ولم تكن المصيبة مقتصرة على تطاحن الأمراء والنبلاء فى داخل الامبراطورية ، فان الخوارج قد أغاروا على أطرافها من كل ناحية ، ففى سنة ٨٤١ م أغار الدانماركيون أهل الشمال — وكانوا باقين على وثنيتهم الأولى — فأحرقوا مدينة روان وكل الأديرة الواقعة على نهر السين فى فرنسا ، وفى سنة ٨٤٢ م أغار العرب من الأندلس حتى بلغوا نهر الرون ونهبوا مدنه العامرة ، وفى سنة ٨٤٣ م فتكت قبائل الشمال بأسقف باريس أمام مذبحه الأعلى ، وفى سنة ٨٤٥ م أحرقوا مدينة همبرج ، وفى سنة ٨٤٧ م صعد العرب فى نهر التيبر ونهبوا كنيسة القديس بطرس فى رومية وحملوا معهم المذبح الأعلى وكل كنوز الكنيسة ، وفى سنة ٨٨٤ م كتب أحد مؤرخى اللاتين يقول : « ما انفك أهل الشمال يعذبون المسيحيين ويقتلونهم ، ويهدمون الكنائس والأسوار والمدن ، ففى كل طريق تقع العين على أجساد الكهنة والنبلاء وعامة الشعب والنساء والأطفال ، لم يخلُ طريق ولا مكان من أجساد الموتى » .

وفى تلك السنة عينها أغار المجر الوثنيون فى شرق أوربا على ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وأحرقوا المدن والأديرة وأدخلوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين ، وظلوا قرابة خمسين عاماً لعنة أوربا وسادرها المخيف . وفى كل هذه الأعاصير

عانت الكنيسة ألواناً من العسف والاذلال ، وكانت الأديرة والكنائس أهدافاً للسلب والنهب .

الوثائق المزورة :

على أن الكنيسة لم تلق سلاحها فى هذا الصراع ، وتحدَّت أعداءها فى الداخل وفى الخارج . ولكنها لم تلجأ — مع الأسف — فى هذا الدفاع إلى الأسلحة الروحية ، بل عمدت إلى تزوير أسانيد ومراسيم تؤيد سلطانها المطلق . وذلك أن راهباً من بلاد الغال أصدر فى منتصف القرن التاسع مجموعة من القوانين والمراسيم عُرفت فى التاريخ باسم Pseudo-Isidore وقد تضمنت هذه المجموعة القوانين والمراسيم البابوية الصحيحة ، ولكن دسَّت فيها قوانين مزورة نسبت إلى باباوات العصور الأولى ، وقبلها الناس كأنها وثائق صحيحة لا غش فيها ، ولم يجرؤ أحد على إلقاء ظل من الشك عليها إلاَّ فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، على أن الكنيسة فى رومية تشبثت بها ولم تعدل عنها إلا فى عهد الاصلاح فى القرن السابع عشر .

وكان الغرض من دسّ هذه القوانين المزورة حماية سلطان الكنيسة ، وصيانة أملاكها وثروتها ، والحيلولة دون التدخل فى شئونها . فمن مقتضاها لم يكن يُسمح لعلمانى ، ولو كان إمبراطوراً ، أن يتدخل فى أمر من أمور السلطة الروحية أو المجالس الكنسية ، أو محاكمة رجال الدين . وقد قضت مما قضت به أن تنتقل السلطة من الامبراطور إلى البابا أو من ينوب عنه ، وحظرت على الامبراطور أن يدعو المجالس الكنسية كما فعل شرلمان . وبينما حُرمت الدولة التدخل فى شئون الكنيسة ، فان الكنيسة منحت لنفسها حق التدخل فى شئون الدولة ، باعتبارها رقيبة أدبية على تصرفات السلطة الزمنية . ولحماية أشخاص الأساقفة أنكرت على أى علمانى أو كاهن أصغر أن يكون شاهداً فى أية قضية ضد أحد الأساقفة ، وجعلت سلطة محاكمة رجال الدين مركزة فى البابا دون سواه .

وكانت هذه المجموعة المزورة من أقوى العوامل لتدعيم السلطة البابوية فى

القرون الوسطى فيما بعد ، وصانت نظم الكنيسة من التدهور ، فلم تشارك الامبراطورية مصيرها ، وقبضت البابوية على السلطتين الروحية والزمنية ردحاً من الزمن . وفى هذه الفترة تمكنت البابوية من إملاء إرادتها على الكنيسة فى الغرب ، وعلى الملوك أنفسهم ، وعلى الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ومدت يدها إلى الشرق أيضاً ، فتنازع بابا رومية مع فوتيوس بطريرك القسطنطينية ، لأن هذا الأخير رفض الاعتراف بقرار رومية الذى قرر أن أغناطيوس — لافوتيوس — هو صاحب الكرسى الدينى الشرعى . وقد تبادل الزعيمان الحرم،وأدخلا فى نزاعهما مسائل تتعلق بالعقيدة ، وكان هذا الحادث بداية النزاع المكشوف بين عاهلى المسيحية اللاتينى واليونانى ، وراح البابا بعد ذلك يتهجم على عرش الامبراطورية فى القسطنطينية ، حتى انتهى الأمر إلى الفصل التام بين الكنيستين فى القرن الحادى عشر .

دخلت البابوية على ميراث شرلمان الكبير ، وقبضت بين يديها على سلطة واسعة النطاق فى الشئون الروحية والزمنية ، ولكن كان هذا كله على حساب حياتها الروحية التى أخذت فى الضمور والانحلال ، واعتلى كرسى البابوية فى الفترة بين أواخر القرن التاسع ومنتصف القرن الحادى عشر — أشخاص ممن لاخلاق لهم ، إذا استثنينا الفترة القصيرة التى ظهر فيها واحد أو اثنان من خلفاء بطرس ممن نعوا تلك الحالة الروحية الأليمة التى تدهور إليها زعماء الدين ، ونادوا بالاصلاح فى غير طائل ، فكانوا كواحات خضراء فى وسط تيه من البيداء المقفرة الجرداء ، أو الفترة الأخرى التى نزل فيها أوتو ملك الجرمان على إيطاليا وانتزع السلطةمن الباباوات اللاتين ونصب على الكرسى الرسولى باباوات من الجرمان .

النزاع بين السلطتين :

قلنا إن البابوية اتخذت من هذه المجموعة المزورة تكأة لتدعيم سلطانها على الدين والدنيا ، ولكن كان عليها قبل الظفر بهذا السلطان المطلق أن تدخل فى منازعات طويلة مع إمبراطور الجرمان كما سنرى فيما يلى :

بعد انحلال إمبراطورية شرلمان كانت جرمانيا أول من أعاد شكل الدولة الجديدة فى أوربا ، وتمكن ملكها أوتو الأول من طرد الغزاة الهنغاريين ، وقهر قبائل الدانمارك الوثنية فى الشمال ، وفى سنة ٩٦٢ م توج أوتو الكبير إمبراطوراً بيد البابا ، واستقر تاج شرلمان على هامة وريث كان له من القوة ما جعله سيد أوربا إلى حين . على أن الموقف السياسى الذى وُجد فيه هذا السيد الجديد يختلف عن موقف سلفه شرلمان . وذلك لأن مملكته لم تشمل إلا جزءاً من فرنسا والأقاليم الواقعة على ضفاف نهرى الألب والرين وبعض مناطق حوض الدانوب وإيطاليا ، وكانت العقيدة السياسية فى أوربا فى العصور الوسطى أن السلطة الامبراطورية لن تكون كاملة إلا إذا خضع لها العالم أو على الأقل العالم الغربى ، وهو ما لم يكن مكفولا فى حالة الامبراطور الجرمانى ، الذى لم تعترف بسلطانه البلاد الخارجة عن نطاق إمبراطوريته .

ثم إن النظام الاقطاعى كان قد طغى على دستور الدولة ، ولم يعد النبلاء والأمراء ، الذين كانوا من قبل سنداً للامبراطور وعمالا له ، تلك القوة التى اعتزت بها الدولة ، بل كانوا ملوكاً وحكاماً فى اقطاعياتهم . وخشى الامبراطور أوتو أن يغدو مجرد كبير أمراء لهؤلاء السادة المستقلين ، ولذلك احتال على الأمر بوسيلتين :

أولاهما قصر إعطاء ألقاب النبلاء على أفراد أسرته على قدر استطاعته ، وجعل مواردهم وثرواتهم ملكاً للدولة ، ولكن هذا الاجراء لم يصادف توفيقاً تاماً لأن أخاه وولده ملكى بافاريا وسوابيا شقا عصا الطاعة عليه ولم يخضعا له . أما الوسيلة الأخرى التى أفلحت كثيراً فهى استعانته بالكنيسة ، وذلك بأن أغدق الهبات والعطايا على الأساقفة ، وأجزل لهم فى الامتيازات العامة ، وخلع عليهم ألقاب الأمارة — كل هذا لكى تتحدى سلطة الأمراء الروحيين كبرياء الأمراء الزمنيين ، واحتفظ لنفسه بحق تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة ، بأن يخلع على كل منهم عند تنصيبه حلة وصولجاناً ، وبهذه الوسيلة قدر أن يعيّن من كانوا على ولاء له .

وحتى ممتلكات المؤسسات الروحية غدت إلى حد ما ملكاً للدولة ، فكل مكسب تنتزعه الكنيسة من الأمراء يعتبر فى الواقع ربحاً للامبراطورية ،

لذلك ظاهر الامبراطور أمراء الكنيسة على أمراء الاقطاعيات ، وخص الأولين بأوفر قسط من رعايته وتعضيده ، وبهذه الوسيلة توطدت أركان الامبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى ، واستمدت سلطانها من قوة الكنيسة ، وكانت الحلة الملكية التى تُخلع على الأساقفة عند تنصيبهم شعار الولاء والتبعية للملك .

قامت الامبراطورية الجرمانية على أساس عريض ، ولكنه لم يكن متيناً . أفلا يهتز وينهار يوم تنهض الكنيسة — بحكم نزعتها الروحية — للتحرر من سلطان الدولة .

قلنا فيما مضى إن البابوية بعد موت شرلمان أخذت هى الأخرى ، فى سبيل تدعيم سلطانها بالقوانين المزورة ، فى الضمور والانهيار الروحى ، ولم تفز بالسلطان المطلق إلا فى مناسبات منفردة . وأخذت تظهر من جديد فكرة الكنائس القومية المستقلة فى ألمانيا وفرنسا وانكلترا . وهنا تدخلت سلطة الامبراطور لصيانة الكنيسة من الانقسام والانحلال . وقد سادت العصور الوسطى فكرة قوامها أن الامبراطور يمتاز بفضائل روحية خاصة ، وكانت المجامع الألمانية الكنسية التى ترأسها فى القرنين العاشر والحادى عشر ممثلة للكنيسة كلها ، وكان الامبراطور — بحكم مركزه كرأس العالم الغربى — مضطراً أن يرفع من شأن البابا كزعيم المسيحية .

على أن كرسى البابوية فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر قد احتله ، كما قدمنا ، أناس جلبوا السبة والعار على العرش البابوى ، فكان فرضاً على امبراطور الجرمان أوتو الكبير وولده وحفيده أن يتدخلوا المرة تلو الأخرى لانقاذ البابوية من الارستقراطية اللاتينية التى عبثت بها ، وحاول الامبراطور عند كل تنصيب جديد أن يستخدم نفوذه لادخال حياة جديدة فى البابوية ، ولكن ذهبت ضياعاً كل جهوده ، ففى منتصف القرن الحادى عشر كان الأمراء فى رومية يتنازعون على البابوية كأنها ميراث الأسرة ، ففى سنة ١٠٣٣ م وضع على الكرسى البابوى بندكت التاسع وهو بعد صبى فى الثانية عشرة من عمره ، فلطخ الكرسى بكل صنوف الرذيلة ، وقامت ضده ثورة عامة اضطرته إلى الهرب من رومية فى سنة ١٠٤٤ م ليحل محله منافسه سلفستر الثالث . ولما عاد بندكت التاسع إلى رومية على رأس قوة مسلحة باع البابوية إلى جريجوريوس السادس

دون أن يتنازل عن السلطة البابوية . والآن قد بلغت الفضائح منتهاها ، فاضطر الامبراطور الجرمانى هنرى الثالث —خليفة أوتو الكبير— أن يتدخل ، ويايعازه وقوة نفوذه قرر المجلس الكنسى العام فى سنة ١٠٤٦ م عزل الباباوين المتنافسين ، وانتخب الامبراطور أسقفاً جرمانياً ليتولى منصب البابوية تحت اسم كليمندس الثانى ، ووضع هذا الأخير التاج الامبراطورى على هامة هنرى الثالث وخلع عليه رتبة وامتياز الأسارة الرومانية ، ومنحه حق تعيين البابا الرومانى .

من ثم غدا تعيين الباباوات من حق جرمانيا ، لا من حق رومية ، وقد أظهر الامبراطور سلطته فى تعيين ثلاثة باباوات على التعاقب ، فنظرت إليه الكنيسة — نظرتها إلى شرلمان الكبير — حاميها ورئيسها الأعلى ، ما دام من حقه أن يعين أكبر رأس فيها ليكون خاضعاً له .

على أن السلطة الروحية الكامنة فى الكنيسة لم تقبل هذا الوضع إلا إلى حين . و إن كانت قد قبلت حماية الامبراطور ورعايته ، فذلك بحكم الضرورة فقط، ولم يكن الحل ملائماً موفقاً . وذلك لأن الامبراطور مستطيع أن يحمى الكنيسة ما دامت ذراعه قوية وجانبه مهوباً ، وكان إذا تراخى وانشغل فى أمور أخرى ، تقع البابوية فريسة بين أيدى أمراء رومية الطامعين . فلم يكن بد من إصلاح روحى ، وتركيز السلطة الروحية فى أيدى أصحابها الشرعيين ، وصيانة الكنيسة والبابوية من طغيان السلطات المادية الزمنية . فهل دقت الساعة لمثل هذا الاصلاح ؟

رهبانية كلونى :

أجل ، ينبثق نور الاصلاح من خلايا الأديرة، وأخذ هذا النور يتسحب فى موجات متلاحقة ليغمر أوربا كلها ، فيجدد البابوية والامبراطورية معاً . و إليك بيان هذا :

كانت العلوم فى القرنين العاشر والحادى عشر قد اصطبغت بالثقافة اللاتينية ، وغلب على هذه الفترة الفن الرومانى فى بناء الكنائس والقصور الملكية ، وسادت الثقافة الرومانية فى التفكير والحياة . فكان فرجيل أكرم

الشعراء وأرفعهم مكانة فى ذلك العصر ، وكانت اللاتينية لغة رجال الدين والطبقات الراقية عامة ، ونقلت كثير من الأناشيد والأغانى شعراً لاتينياً .

وكما غصت قصور الملوك والأمراء بمظاهر الثقافة اللاتينية ، كذلك غصَّت بها الأديرة التى كانت بمثابة الجامعات فى ذلك العصر ، ومواطن الثقافة الأوربية. فبين جدرانها بقيت الحياة العقلية نابضة فى صدور أولئك العلماء الرهبان والأساتذة المعتزلين الذين لم يبعد عن مدى تفكيرهم فن ولا علم ، ولا دين ولا سياسة ، وقد حذقوا كل فن من فنون الحياة الفكرية من غناء وموسيقى وأدب وشعر وتصوير وكل لون من ألوان الثقافة . كانت الأديرة فى ذلك العصر مركز القوة العقلية فى أوربا .

ولكن هل كان غرض الرهبانية التسلط على العالم عقلياً ، والتمتع بكل أطايب الحياة ، ومشاطرة الأمة الترف العقلى ؟ ألم يكن مثلها الأعلى اعتزال العالم ، ونبذ كل ما فيه من مظاهر الترف ، واحتقار كل الأشياء كنفاية لا تليق بالنفس الخالدة ، لأن أشياء العالم كلها ممتزجة بالشر والخطية والفساد ؟

كان الغرض الأصلى من الرهبانية إفناء الذات ، وقمع كل الميول الشريرة والرغبات الأرضية ، وهدم كل المواهب والقوى التى تتعلق بشخص الانسان . ولكن رهبان الأديرة البندكتية فى فرنسا وألمانيا كانوا قد حادوا عن هذا المثل الأعلى ، فتسرب إلى الأديرة ، لا الشعور فقط بكل نبيل عظيم فى ذلك العصر ، بل أيضاً الاحساسات العالمية الوضيعة الدنيئة ، وتدهورت أخلاق الطلاب فى الأديرة ، بل كان رؤساء الأديرة أنفسهم ، فى بعض الأحيان ، من المذنبين . وكلما قويت فى الدير الروح القومية وشاعت فى خباياه حياة الثقافة العامة ، اختفت مظاهر الرهبانية القديمة التى قامت على الصرامة وتعذيب النفس ، وبدت عوضاً عنها أنماط من الحياة الاباحية المنهمكة فى اللذاذات ، وبطلت قاعدة الاعتزال والخلوة مع الله ، وانقلبت مواطن التقشف مراتع للترف ورفاهة العيش .

كانت تلك الأشياء كلها معاول قوية أصابت حياة الأديرة فى الصميم ، فطغت مطالب الثقافة على مقتضيات الزهد والتقشف ، وأضاعت الرهبانية لذتها

الروحية الأولى ونكهتها التى تعطرت بها النفوس التقية المتعبدة . وكان محتوماً أن تذوى رهبانية كهذه امتزجت بثقافة الرومان وتفكير فرجيل . والفضل فى هذا الانقلاب راجع إلى دير «كلونى» الذى قام على تربة فرنسا متحدياً الرهبانية التى حادت عن مبادئها القويمة .

أجل ، كان السبق فى هذا الجهاد لرئيس الدير « أودو » (٩٢٧ — ٩٤١) الذى جدد عهد الرهبنة البندكتية وأدخل قواعد الحياة الصارمة لقمع الميول العالمية الجسدية . وكان أودو هذا ابن أحد النبلاء الأتقياء. وفى بدء حياته هجر العالم واعتزل فى أحد الأديرة بفرنسا ونال لقباً دينياً سامياً ، ولكن حياة الدير لم ترقه ، ولم يعجبه مسلك زملائه الذين كانوا يرتدون الثياب الملونة الزاهية ، ويؤجلون عبادة نصف الليل حتى انبثاق نور الفجر خشية أن يعلق الوحل فى ظلام الليل بأحذيتهم المصقولة . فاعتزل الحياة وحده فى خابية مجاورة للدير، واتخذ من الأرض الصلبة فراشاً له ، وتوسد الثرى، واقتات بالخبز الجاف وقليل من البقول ، وفى خابيته انضم إليه صديق جندى ليشاطره هذه الحياة .

وراح أودو وزميله يزوران الأديرة المختلفة ، الواحد تلو الآخر ، رغبة الانضمام إلى دير يرتاحان له ، وكان ملك فرنسا قد أنشأ فى كلونى على الحدود الفرنسية ديراً جديداً نزولا على إلحاح أحد المصلحين ، واستقر الرأى على أن يكون أودو رئيساً له فى سنة ٩٢٧ م ، وقد صار دير كلونى فيما بعد مركزاً للاصلاح والتجديد ، وأشهر الأديرة فى العالم المسيحى ، امتدت روحه الاصلاحية إلى أوربا كلها ، ونسجت على منواله أديرة كثيرة فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وانكلترا ، فكان يطلب الملوك والنبلاء والأساقفة إلى رؤساء هذا الدير أن يبعثوا رهبانهم للاشراف على المؤسسات الدينية الجديدة ، وإحياء الأديرة التى أدركها الاضمحلال والفناء .

ومن المبادئ الجديدة التى أدخلها رؤساء هذا الدير على نظم الرهبنة مراعاة فترات للصمت الخاشع فى أوقات معينة ، وذلك للتسلط على النفس وإيقاظ الحياة الداخلية الروحية . وقد أحيا رهبان كلونى الفكرة الرهبانية القديمة القائمة على إنكار الذات وإذلال الجسد ، التى كانت قد اقتبستها رهبانية الغرب عن

رهابنة الشرق ، ولكنها حادت عنها وغرقت فى ماديات الحياة وترف الثقافة ، ولم يلبث أن صار هؤلاء الرهبان بأجسادهم المرهقة ، وعيونهم البراقة ، ووجوههم الشاحبة ، القديسين المكرمين بين الشعب ، لأن فيهم قد صار من جديد المثل المسيحى الأعلى كما فهمته العصور الوسطى ، وفيهم رأى الفلاح الغارق فى الشهوانية الخشنة روح المسيحية التى تغلب هذا العالم وتذله تحت أقدامها .

وصار دير « كلونى » بمثابة الأم لأديرة كثيرة انضمت إليه وقبلت إشراف رئيسه وزعامته ، ووضع دستور جديد للأديرة ، فلم يعد كل منها مستقلا فى شئونه حسب هوى رئيسه وميوله ، وغدا رئيس دير « كلونى » المشرف الأعظم والرئيس الأكبر والقائد فى نظام الرهبانية ، وامتد سلطان هذا الدير إلى الغرب كله ، فرحب بهذه الحركة الاصلاحية امبراطرة الجرمان أنفسهم ، ومدوا يد المعونة فى قلب نظام الرهبانية القديم ، وتوطيد هذا النظام الجديد حتى فى أديرة ألمانيا .

ومن هذه الرهبانية المصلحة المجددة ، انسابت القوة التى خلقت حياة داخلية جديدة فى الكنيسة ، تمكنت بها من استمالة أكثرية الشعب إلى مبادئها ، وأنقذت نفسها من قبضة السلطة الزمنية عليها ، وولدت عصر الحكم الكهنوتى الذى علا شأنه وارتفع قدره فى القرون الوسطى . فمن خلايا الدير نهض عالم القرون الوسطى . ومن هذه الخلايا عينها نبتت جراثيم الفساد التى قضت عليه فى عهد الاصلاح كما سيجئ فيما بعد .

وقد تقرر مصير المستقبل يوم ظاهر امبراطور الجرمان هنرى الثالث حركة كلونى الاصلاحية ، وأسندها بكل قوته ونفوذه ، وبعدئذ يوم تسنمت رهبانية كلونى عرش البابوية — فى شخص جريجوريوس السابع وهو الراهب هلدر براند .

***

ولم تكن المبادئ التى احتضنها دير « كلونى » مقتصرة على إصلاح الأديرة ، بل قد شملت أيضاً الكنيسة والهيئات الدينية الأخرى . وقد كان الغرض

الأساسى منها إنقاذ الكنيسة من بين براثن العالم . ولتحقيق هذا الغرض شقّ الاصلاح طريقه فى اتجاهين :

أولها أن تنبذ الكنيسة العالم ، وبعبارة أخرى أن تبرأ من إيراداتها وثرواتها وكراماتها ورئاستها وامتيازاتها وأمجادها ، وعن طريق نبذها كل سلطة زمنية تستطيع بحق وعدل أن تخلع عنها كل نفوذ زمنى قد يحاول الطغيان عليها . وقد كان هذا الاتجاه النتيجة المنطقية لمبادئ دير «كلونى» الذى نذر أتباعه الفقر والعزوبة . وقد رام المصلحون أن تتشبه الكنيسة بالدير فى الاقتداء بفقر المسيح وعزوبته ، وأصروا على أن ينبذ رجال الدين كل مقتنياتهم ، وأن يمتنعوا عن الزواج إطلاقاً ، وأن تبطل المتاجرة بالوظائف الكهنوتية التى كانت تباع وتشرى كسلع فى الأسواق .

وأما الاتجاه الثانى الذى سارت فيه موجة الاصلاح فهو فرض سيادة الكنيسة على العالم . وقد قالوا ان الكنيسة تستطيع أن تتحرر من العالم باخضاع العالم لسلطانها وسيادتها . وقد كان المألوف فى ذلك الزمن أن تشرف السلطة الزمنية على تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان من حق الامبراطور أن يخلع على الأسقف حلة ثيابه الكهنوتية ، وأن يقدم له الصولجان أى عصا الأسقفية . ولكى تتحرر الكنيسة من هذه السلطة المفروضة عليها ، جاهدت طويلا ودخلت فى منازعات مدى قرون مع صاحب السلطة الزمنية فى خلال القرون الوسطى . وقد أصرت الكنيسة فى سبيل توطيد سيادتها وسلطانها على الاحتفاظ بمقتنياتها العالمية وثروتها المادية ورفضت كل سلطان للدولة عليها . وطالبت الكنيسة أن تأخذ العالم فى حضنها وأن تضمه إلى صدرها ، وأن تكون دولة روحية زمنية تملك بين يديها ما لله وما لقيصر معاً . ومن ثم نرى اتجاهين متضادين ، أحدهما يسير إلى الفقر والعزوبة بزعامة الكهنة المترهبين فى الأديرة ، والآخر يسير إلى بسط السيادة والسلطان بزعامة الأساقفة أو الكهنة العالميين ، إذا جاز لنا هذا التعبير .

وقد أخذ سير التاريخ فى القرون الباقية من القرون الوسطى يتأرجح فيميل تارة إلى هذا الاتجاه وأخرى إلى ذاك . وأحياناً تمتزج الفكرتان ويسير التياران متحاذيين . على أن زعيما دينياً قوياً كان له من القوة وبعد الأثر فى هذا الصراع

ما يحمل المؤرخ على أن يجعله بطل المسيحية فى هذا القرن ، ونعنى به البابا جريجوريوس السابع .

جريجوريوس السابع :

والواقع أن أوربا الغربية لم تعترف منذ القرن الرابع بسلطان مطلق عليها أو حكم الفرد فيها ، ولكن البابوية فى عهد هلدبراند — أو البابا جريجوريوس السابع — يشتد بأسها ويقوى سلطانها من منتصف القرن الحادى عشر ، فتقبض بين يديها على السلطتين الروحية والزمنية حتى القرن السادس عشر ، إلا فى فترات متقطعة تمكنت فيها السلطة الزمنية من خلع هذا النير ، وشق عصا الطاعة على الكرسى البابوى .

وفى هذا يقول أحد المؤرخين : « ان من يفكر فى أصل هذا السلطان الكنسى الهائل ، يرى فى غير عناء أن البابوية ليست إلا شبح الامبراطورية الرومانية المائتة ، متوّجة فوق رسمها ، وقد كان الباباوات فى ادعائهم السيادتين الزمنية والروحية خلفاء لامبراطرة الرومان . وقد أفلح هؤلاء من عهد جريجوريوس السابع إلى عهد بونيفاس الثامن فى القبض على زمام السلطتين . وكانت البابوية فى هذه الفترة حكومة ثيوقراطية دينية رأسها البابا نفسه . ولاعجب أن يزعم الباباوات أن العالم لن يستقيم له حال إلا تحت سيادتهم إذا نحن فكرنا فى فشل الحكومات الزمنية وتقصيرها فى تدعيم النظام والعدل ، وفى تحدى الملوك لأحكام الآداب وقواعد اللياقة والسلوك البشرى . وكان طبيعياً أن تكون البابوية فى ذلك العصر حكومة عليا تسيطر على العلاقات الدولية ، وتمنع الحروب واستغلال الدول الضعيفة واجتياحها ، وتتدخل فى شئون الشعوب الداخلية ، لتمنع المظالم والفساد وتُنزل من فوق العروش عند الضرورة الحكام الفاسدين غلاظ القلوب » .

كان الغرض شريفاً لا غبار عليه ، فانه بعد قرون من هذه المحاولة أنشئت عصبة الأمم لتحقيق بعض الأغراض التى قصدت إليها السلطة الدينية العليا . ولما خابت الآمال فى عصبة الأمم وغرقت أوربا مرة أخرى فى حرب

سنة ١٩٤٠ م فكرت الدول الديموقراطية فى إنشاء هذه السلطة المركزة القوية للاشراف على مصائر الشعوب وردع المعتدين عن الظلم والطغيان . ولعل التاريخ لا ينحى الآن باللائمة على البابوية التى غالبها هذا الشعور وراست بسط سيادتها فى القرن الحادى عشر لتحقيق بعض تلك الأغراض النبيلة ، ونقطة الضعف فى هذه المحاولات أن تركيز السلطتين الروحية والزمنية فى يد واحدة ، وقرن الدين بالدنيا ، والروح بالمادة ، والسيف بالانجيل ، فكرة لم تؤت ثمارها فى أية فترة من التاريخ .

أما واضع أساس السلطة الثيوقراطية الدينية فى أوربا فهو الراهب هلدر براند — البابا جريجوريوس السابع — وقد ولد حوالى سنة ١٠٢٠ م ويقال إن أباه كان من رعاة الماعز فى ولاية توسكانا الايطالية ، وقد تربى فى دير على نمط كلونى فى رومية ، فخبر وهو فى الدير شيئاً من عيوب البابوية وانحلالها بسبب تغلغل العلمانيين فى الشئون الروحية لجر المغانم الشخصية . وكان قد سمع فى أيام شبابه بنبأ بندكت التاسع الذى اعتلى عرش البابوية وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره بفضل تدخل الأمراء والنبلاء وإفسادهم ، وأحس أن تدخل الامبراطور لخلع بابا وتنصيب آخر علاج أسوأ من الداء نفسه . ولعله رضى بعض الرضى عن الباباوات الجرمان المصلحين ، ولكن جنسيتهم الغريبة لم تألفها نفسه الايطالية القحة ، وشعر أن تطفل العلمانيين لتنصيب الأشخاص فى الوظائف الروحية مما لا ينسجم مع طبائع الأشياء ، فانه إذا جاز لملك صالح أن ينصب رئيساً دينياً صالحاً ، فانه يجوز كذلك لملك شرير أن ينصب رئيساً دينياً شريراً .

وقد كان «هلدر براند» القوة العاملة وراء العرش البابوى فى خلال الفترة التى تولى السلطة فيها الباباوات المصلحون (١٠٤٦ — ١٠٧٣ م) ، وفى سنة ١٠٧٣ م انتخب للتربع على عرش البابوية ، وكان قبل كل شىء مصلحاً دينياً ، فلم يسع إلى السلطة إلا كوسيلة لبلوغ هذه الغاية . ومما هو جدير بالذكر أنه أطلق يد وليم الأول فى انكلترا ، مع أن الانكليز أبوا الاعتراف بنظريته فى بسط السلطان البابوى على السلطتين الزمنية والروحية . ولكنه عامل فيليب الأول ملك فرنسا وهنرى الرابع إمبراطور جرمانيا معاملة تختلف عن معاملته ملك الانكليز ، وذلك لأنه عزا فساد رجال الدين إلى النفوذ العالمى

الذى بسطه عليهم الملوك الأشرار والنبلاء الطامعون . وبعد أن قضى البابا جريجوريوس اثنتى عشرة سنة فى صراع مستمر مع الامبراطورمات منفياً شريداً، ولكن بعد أن كان قد ثبّت دعائم السلطة البابوية التى ظلت خافقة مسيطرة على الملوك والأمراء والأساقفة نيفا ومائتى سنة . وقد بدأ النزاع العنيف بين القوتين بعد اعتلائه الكرسى البابوى مباشرة وظل قائماً مدى حياته . وفى مدة حكمه برزت ظواهر خاصة للسياسة التى انتهجها هو وخلفاؤه من بعد لتوطيد العرش البابوى وبسط سلطانه المطلق على أوربا .

وعند انتخابه كانت المتاجرة بالوظائف الكهنوتية لوثة كريهة تصمُ جبين الكنيسة ، وكانت وظائف الأساقفة تحت أمرة الامبراطور يعين فيها من يشاء كأنها مبايعة منه ، فشنّ جريجوريوس على هذا كله حملة شعواء وحرم الأساقفة ورجال الدين الذين يلتمسون وظائفهم من رجل علمانى ، وتحدّى الامبراطور علانية منكراً عليه هذا السلطان ، مهدداً إياه بالحرم والعقاب إذا هو تدخل فيما لا يعنيه ، ولم يفضّ النزاع فى هذه المشكلة ، وظل محتدماً إلى ما بعد عهد جريجوريوس ، حتى تم التوفيق بين السلطتين بالصلح المعروف فى التاريخ « بمعاهدة ورمس » . وبعد أن كان الامبراطور يبايع الأسقف ويخلع عليه الحلة الكهنوتية ويسلمه عصا الأسقفية ، رضى أن يكون التعيين بالانتخاب الحر فى حضرة الامبراطور على أن يُفرض على الأساقفة الجرمان فقط لمس الصولجان الملكى بعد انتخابهم عربوناً على تمتعهم بالامتيازات الزمنية من قِبَل الامبراطور .

ومن المشاكل التى أغرق فيها جريجوريوس نفسه ، عدم زواج الكهنة . وقد نظر جريجوريوس — شأن كل رجال الدين فى عصره — إلى زواج القساوسة كفضيحة لا تغتفر ، ضجت منها الأرض والسماء ، وحسبوه تسرياً بل ما هو أشنع من التسرى . وقد كانت عزوبة القساوسة — بالصدفة — شرطاً لا مفر منه لتوطيد السيادة البابوية ، وذلك لأن القسوس المتزوجين وأسرهم يكونون عادة تحت رحمة الأمراء العالميين . وفضلا عن ذلك فقد كانت أغلب الوظائف فى ذلك العصر وراثية ، فاذا صارت وظيفة الكهنوت وراثية ، فكأنها قد أسست عالمية بحتة . وكان الباباوات الجرمان المصلحون قد نعوا زواج القساوسة من قبل

وحسبوه عاراً يجب محوه ، ولكن جريجوريوس السابع بجرأته المعهودة أصدر أمرا صريحاً فى مجمع رومية (١٠٧٥ م) حرم به زواج القسوس تحريماً باتاً ، وأبطل المتاجرة بالوظائف الكهنوتية . وقد قاوم القسوس هذا الأمر مؤثرين زوجاتهم على رتبهم الكهنوتية ، وعمد كثيرون منهم إلى الزواج خفية إرضاءً لصاحب الأمر ظاهراً فقط .

لم يكتف البابا بكل هذا ، بل ذهب شوطاً بعيداً فى احتياز سلطة لم يحلم بها أحد من أسلافه ، وذلك بأن ادعى لنفسه حق عزل الملوك والحكام . وقد مارس هذه السلطة فعلا فأصدر فى فصل الصوم من سنة ١٠٧٦ م حكمه المشهور فى التاريخ على امبراطور الجرمان الذى نصه : « بالنيابة عن الله القادر على كل شىء — الآب والابن والروح القدس — وبما لى من السلطة المخولة من الرسول بطرس آمر بحرمان الملك هنرى . . . من الحكم فى ألمانيا وإيطاليا . وأحلّ جميع الذين أقسموا يمين الولاء والطاعة له ، وآمرهم جميعاً أن يعصوه كملك عليهم » . وقد ادعى البابا لنفسه هذا الحق كخليفة الرسول بطرس ، وزعم أنه إذا جاز لخليفة بطرس أن يصدر أحكامه فى الشئون الروحية ، فبالأولى جداً فى الشئون الزمنية .

وقد استخدم جريجوريوس القوة لبلوغ أغراضه الروحية ، فلما رأى حوادث السرقة مع الاكراه شائعة فى رومية حتى فى المقابر ، جند جيشاً مسلحاً للقضاء على هذه الفضائح ، وقاد المليشيا الرومانية بنفسه كقائد حربى . وقيل انه جنّد هذه القوة المسلحة ، لا للزهو الفارغ فقط ، بل لتدعيم الكنيسة الرومانية التى لاقت كثيراً من العنف والاعتساف على أيدى النورمان من القبائل الشمالية ، على أنه لم يميز بين القوة اللازمة لحفظ النظام والأغراض الزمنية ، وبين القوة اللازمة للغرض الروحى فى استمالة الناس إلى المسيحية .

ولم يتورع فى صراعه مع الامبراطور عن استجداء معونة أمراء ألمانيا والتواطؤ معهم على خلع هنرى الرابع ، كذلك أعان وليم الأول على غزو انكلترا وسلمه بيده العلم بعد «تكريسه» ، وكان أول الباباوات الذين حثوا أوربا على الحروب الصليبية ، وحمل العالم المسيحى على امتشاق السلاح ضد المسلمين فى الشرق ، واقترح أن يتولى هو القيادة بنفسه مع أميرة توسكانيا الايطالية

وابنتها . على أن مسلكه هذا حمل بعض أخيار المسيحيين على الاحتجاج عليه والجهر فى وجهه بالقول : « لم يكن داود الملك أهلا لأن يبنى هيكل الله لأن يديه قد تلطختا بالدماء ، فكيف يحق للكاهن الأعلى أن يدخل إلى قدس الأقداس إذا لطخت ثيابه قطرة واحدة من الدماء ؟ » .

وادعى البابا لنفسه الحكم المطلق على إيطاليا وأسبانيا وهنغاريا وبوهيميا وروسيا وكرواتيا وانكلترا ، ولكن وليم ملك انكلترا أنكر عليه هذا الحق . وكان صراعه مع الامبراطور الجرمانى — هنرى الرابع — صراعاً أدبياً فى الواقع . وذلك لأن الامبراطور كان فى نظر البابا شاباً طائشاً سائب الأخلاق ، خاضعاً لطائفة من المشيرين الأشرار الذين استخدموه كأداة ذليلة لمقاومة الاصلاح فى الكنيسة . وفى سنة ١٠٧٥ م حرم البابا خمسة من هؤلاء المشيرين ، وكان الامبراطور قد باع الأبنية الكنسية طوعاً لمشورتهم ، وبعد ذلك عنف الامبراطور على مخالطتهم ومراقصتهم بعد حرمهم ، وعلى وقوفه حجر عثرة فى سبيل كل إصلاح منشود .

وبين أحداث هذا الصراع المتبادل بين البابا والامبراطور ، يروى التاريخ حادثة روائية فذة طبعت أثرها فى ذكريات السلالة البشرية . وقد كان مشهد ذلك الحادث فى قلعة « كاروسا » فى يناير من سنة ١٠٧٧ م حين وقف الامبراطور هنرى ثلاثة أيام متوالية من الفجر حتى المساء وهو حافى القدمين على الصقيع ، مرتدياً ثوباً أبيض علامة الندم والاستغفار فى فناء القلعة ، يلتمس إذناً بالدخول إلى حضرة البابا . ولم يؤذن له بذلك إلا فى اليوم الثالث بعد أن تهرأت قدماه من البرد والثلج ، وبعد أن شفعت له أميرة توسكانيا ورئيس دير كلونى .

وبعد وفاق « كاروسا » لم يدم الصلح بين العاهلين طويلا ، فتجدد حرم الامبراطور ، وعيّن البابا ملكا بدله على العرش . ولكن الامبراطور تذرع بالشجاعة والجرأة فى هذه المرة وقتل منافسه الذى عينه البابا ، وكان النورمان الشماليون مشغولين بحملاتهم فى شرق أوربا ، فأقدم الامبراطور الجرمانى على تنصيب بابا آخر وضع التاج على رأس عاهل جرمانيا فى رومية وحاصر البابا جريجوريوس فى قلعة سنت انجيلو ، ولكنه استنجد بالنورمان الذين هبّوا إلى

معونته وطردوا الجيوش الامبراطورية وأنقذوا البابا وأحرقوا ونهبوا جزءاً كبيراً من رومية (١٠٨٤ م) .

وقد أدى استنجاد البابا بهؤلاء المخربين الغزاة إلى غضب الشعب عليه ، ففرَّ من المدينة المخربة إلى منفى بعيد فى فرنسا حيث قضى نحبه فى السنة التالية ، وعلى شفتيه هذه العبارة : «أحببت العدل وأبغضت الاثم ، لذلك أموت فى المنفى» . ولئن كان هذا البابا قد فشل فى الظاهر ، فانه فاز بنصر مبين ، ووضع أسس الملكية البابوية فى القرون الوسطى التى بنى عليها خلفاؤه ذلك الملك الدينى الذى ظلَّ قروناً متحكماً فى مصائر أوربا وشعوبها .

القرن الثانى عشر

[الحروب الصليبية — البابا إينوسنت وملوك أوربا — القديس برنارد] .

رأينا كيف اعتلت الكنيسة عرش السلطان فى عهد البابا جريجوريوس السابع ، واحتضنت فى نهضتها كل ثقافة القرون الوسطى . وكان من آثار هذه النهضة أن هفت القلوب إلى أورشليم السماوية ، فوجدت لها متنفساً فى الحنين إلى أورشليم الأرضية . وفى أواخر القرن الحادى عشر تصاعدت الزفرات الحارة من أفئدة الحجاج العائدين من زيارة بيت المقدس من جرّاء سوء المعاملة التى عاناها هؤلاء على أيدى المسلمين الذين كانوا قد ملكوا الشرق كله وأخضعوا المدينة المقدسة لسلطانهم . فاستيقظ الغرب المسيحى وجرت فى عروق أبطاله دماء الحماس والشهامة والفروسية . وكان البابا أوربان الثانى هو الذى أوقد النار فى النفوس ، فبدأت الحملات الصليبية وكانت أروع المغامرات التى شهدتها القرون الوسطى . وظلت فكرة إنقاذ القبر المقدس مدى قرنين الحلم الذهبى الذى حلم به الغرب المسيحى ، ملوكه وأمراؤه ورهبانه . وفى هذا السبيل رحلت زهرة شباب أوربا إلى الأرض المقدسة التى أشرقت منها شمس المشرق وأنوار التاريخ المسيحى .

وكان العرب بعد أن فتحوا بيت المقدس سنة ٦٣٨ م قد سلكوا سبيل التسامح الدينى ، وقدموا التسهيلات المعقولة ، لحجاج الأرض المقدسة ، ولكن فى سنة ١٠٧١ م أغار الأتراك السلجوقيون على آسيا الصغرى وهددوا كيان الامبراطورية الشرقية . ولجأ هؤلاء إلى كل أسباب الوحشية الرهيبة وأساءوا معاملة الحجاج الذين غصّت بهم المدينة المقدسة . وقد حاول البابا جريجوريوس السابع توحيد كلمة أوربا لمحاربة الأتراك ، ولكنه لم يوفق فى هذا ، وتمادى الغزاة

فى قسوتهم ، فثارت أوربا كلها ، وتزعم البابا هذه الحركة الدينية وغذاها بسلطانه الروحى وسلطته الزمنية . وكما وعد النبى العربى أنصاره الذين يستشهدون فى الجهاد بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، كذلك أذاع البابا المسيحى أن الذين يقضون شهداء يكون جزاؤهم فردوس النعيم .

وتكتسح أوربا موجة من الحماس الدينى لم تألفها الكنيسة من قبل . فالفلاح هجر مزرعته ، والنديم موائد أنسه وشرابه ، والراهب صومعته ، والملك عرشه ، ورحلت أسر بجملتها ، ومدن بكامل أهليها — كلهم جياع عطاش الى أورشليم ، حتى غصت بهم الطرقات وضاقت عليهم المسالك . وغير هذه الجموع الحاشدة فى مواكب متلاحقة ، جندت الجيوش تحت امرة قواد حذقوا فنون الحرب والقتال ، واستولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م وشادوا هناك مملكة لاتينية . وإذا قدرنا تقلبات الطقس التى تعرض لها المهاجرون المجاهدون ، والأجناس المختلفة التى تألفت منها هذه المواكب ، والمسافات الهائلة التى قطعها الصليبيون ، والقيادة المتعددة التى خضعوا لها ، ونوع العراك الذى انغمسوا فيه — إذا قدرنا كل هذا وكنا فى الحكم منصفين ، قلنا إن صنيع أولئك المهاجرين الأنصار فى الحرب الصليبية الأولى كان من أروع المغامرات التى ظفرت فيها الروح البشرية الباسلة بنصر عظيم .

وقامت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٤ م بسبب الصعاب التى عاناها القوم فى مملكة أورشليم ، وكان مثير عجاجها الراهب القديس برنارد . على أنها لم تفز إلا بنصيب قليل من النجاح .

أما الحملة الصليبية الثالثة فهى حملة الفروسية الرائعة والخيال القصصى البديع ، ولقد صور مشاهدها ببراعته الجبارة الكاتب الانكليزى «ولترسكوت» ، ذلك لأن ثلاثة من أصحاب التيجان قاموا فيها بنصيب : هم ريتشارد قلب الأسد ، وفيليب أغسطوس ملك فرنسا ، والامبراطور الألمانى فردريك باربورسا . وكان صلاح الدين الأيوبى ، الفارس المغوار ، بطل الشرق فى الجانب الآخر . وكان صلاح الدين قد استرد بيت المقدس سنة ١١٨٧ م ولم يقو الصليبيون على انتزاعها من بين يديه على الرغم من الجهود الباسلة التى بذلها «قلب الأسد» . وقد فشلت الحملة بسبب المشاحنات والمنازعات التى ثارت بين الصليبيين أنفسهم .

وكان الحماس الدينى الذى استثار القوم فى الحملة الأولى قد تبخر هباءً ، وأمسى الصليبيون جنوداً مغامرين ، بعد أن كانوا حجيجاً تهفو قلوبهم إلى أرض مقدسة .

وقامت الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م وقد انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية و إقامة مملكة لاتينية على عرش قياصرة الشرق . وفى سنة ١٢٢٧ انطلق فردريك الثانى إلى فلسطين ، واستولى على بيت المقدس بمعاهدة تعهد فيها بابقاء مسجد عمر بأيدى المسلمين ، على أن يكون لهم الحرية التامة فى الدخول إلى المدينة . وآخر حملة هى التى قام بها القديس لويس التاسع الفرنسى سنة ١٢٤٨ م وقد حاول فى غير جدوى أن يغزو فلسطين من مصر متخذاً مدينة دمياط قاعدة له . و إذا كان ريتشارد هو بطل الحملات الصليبية ، فان لويس هذا هو قديسها ، ولقد كان بحق أنضر زهرة فى الفروسية المسيحية .

وقد فشلت الحملات الصليبية لأسباب سياسية وحربية لا مجال للتبسط فيها الآن ، على أنها خلفت وراءها آثاراً انطبعت فى تاريخ الغرب المسيحى فى القرون اللاحقة . ومن هذه الآثار أنها صبغت الروح المسيحية بصبغة القسوة ، وجعلت القوم يلجأون إلى استخدام العنف والقتل لبلوغ أهداف دينية ، و إلى الخلط بين الميادين الروحية والميادين العالمية . وقد قامت المسيحية فى أصلها على السلام والمحبة والاقناع . أما الآن فها نحن نرى لأساقفة والرهبان يشحذون السلاح للقتل والعراك . وبعد أن أباح الباباوات والأساقفة والأمراء تجريد الجيوش للحملات الصليبية ، هان عليهم فيما بعد أن يجردوها لتحقيق مآربهم وأهدافهم السياسية ، وقتل من أسموهم هراطقة ملحدين . ولا نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا نحن قلنا إن الحملات الصليبية هى التى غرست روح المرارة والحقد فى الاضطهادات الدينية التى امتاز بها القرنان الثانى عشر والثالث عشر ، وعدل المجاهدون عن قتل المسلمين مخالفيهم فى الدين إلى قتل إخوانهم من المسيحيين . ويقال إن عشرة آلاف من الأتراك ذبحوا يوم استولى الصليبيون على بيت المقدس. وبعد هذا التاريخ بقرن يستولى أولئك الصليبيون على القسطنطينية و يمثلون فيها مشاهد من التقتيل والتخريب لا يكاد يصدقها العقل ، وفرائسهم فى هذه المرة كانوا من المسيحيين .

وقد اتخذت أوربا من الحملات الصليبية وحرب الثلاثين سنة سوابق استندت إليها فى إثارة الحروب الدينية فى القرون اللاحقة . وما مذبحة القديس برثولاماوس وغيرها من الحروب الدينية إلا حوادث لاحقة بالحملات الصليبية السابقة .

ولكن كان لتلك الحملات آثار لم تخلُ من الخير . فقد أحيت دراسات أرسطو عن طريق ابن رشد الفيلسوف العربى ، ونشطت التجارة والتبادل بين الشرق والغرب ، وقوّت من وحدة الكنيسة بزعامة البابا حبرها الأعظم والناطق بلسانها .

على أن المؤرخ المنصف لن يقدر أن ينكر أن الحملات الصليبية كانت أعظم مأساة فى التاريخ . فلم يحدث من قبل ، ولا حدث من بعد ، أن اقترن جهاد فى سبيل الدين ، بمثل ما اقترنت به تلك الحملات من المغامرات الجريئة الباسلة ، ومن البذل السخى فى الدماء والأموال ، فى سبيل قضية خلصت من عناصر الأثرة والأنانية . ولكنها ولدت للتاريخ وللمسيحية كثرة هائلة من الآلام والمحن والذنوب إذا قيست بالخير القليل الذى نشأ عنها . وهذا شأن النقمة الالٰهية التى تحيق بكل من يسعون إلى خدمة ربهم على الطريقة التى رغب فيها « ابنا الرعد » اللذان لم يعلما «من أى روح هما» . فما دخلت المسيحية إلى العالم بالسيف والعراك ، ولكنها غلبته بالخدمة والتضحية ، وما تزال تشق طريقها إلى القلوب بالمحبة والدعوة الكريمة .

البابا اينوسنت :

ويشهد القرن الثانى عشر صراعاً بين البابوية وبين السلطات الزمنية . ففى أواخر هذا القرن يتربع فوق عرش البابوية إينوسنت الثالث ، وهو إيطالى المولد ومن طبقة النبلاء ، وكان كريماً مثالياً فى خلقه ، ممتازاً فى كفايته . وقد درس اللاهوت والقانون ، وصار كاردينالا فى الثامنة والعشرين من عمره ، وجلس على كرسى البابوية وهو بعد فى السابعة والثلاثين . وقد أدمج سياسته فى عظته الافتتاحية بعد رسامته إذ قال عن البابا «هو وسط بين الله والانسان . أقل من الله وأكثر من الانسان . هو يدين الكل ، ولا يدينه أحد ، لأنه مكتوب لى الدينونة » .

وفى بداية عهده كان هنرى السادس ، خليفة باربورسا وولده ، قد تزوج من مملكة صقلية ، فأضرَّ بمكانة البابا إذ وضعه بين نارين ، ألمانيا فى الشمال وصقلية فى الجنوب . ولكن تشاء الأقدار أن يموت هنرى السادس تاركاً ولداً طفلا قدِّر له أن يكون فيما بعد فردريك الثانى . فاهتبل البابا هذه الفرصة وأخضع الأم الأرملة لسلطانه ، وغدت مملكة صقلية ملكاً لكنيسة رومية تدفع لها جزية سنوية . ولما ماتت الملكة (١١٩٨ م) صار البابا وصياً على ولدها الطفل .

وكانت وظيفة الامبراطور الجرمانى تُشغل بالانتخاب ، فاختار الناخبون فيليب ، أخا هنرى السادس . ولكن البابا أصر على تعيين منافس له يجلس على العرش من دونه . فثارت الحروب الأهلية فى ألمانيا ، مقترنة بالأهوال المفزعة وانتهت بقتل فيليب ، وتربع أوتو صنيعة البابا على العرش بدون منافس . وفيما بعد تحدى هذا الصنيعة مولاه ، فأقام البابا ألمانيا عليه ، وعزله وأجلس على العرش خليفة له هو الغلام فردريك ، ولم يكن قد جاوز السابعة عشرة من عمره .

وفى فرنسا أرغم البابا «إينوسنت» ملكها القوى فيليب أوغسطوس ليتنحى عن زوجة كان يحبها ويتخذ زوجة كان يكرهها ، بعد أن كان أساقفة فرنسا قد أحلُّوه من زواجه السابق . فاستشاط الملك غيظاً وصاح فى غضبه : « سأعتنق الاسلام ! يا لغبطة صلاح الدين ! ليس يعلوه بابا يستبدُّ به » . ولما استدعى الملك مجلس أعيانه فى باريس للتشاور نصحوه بأن يطيع البابا ، فأحنى أقوى ملوك أوربا يومئذ هامته صاغراً ، وأطاع البابا ذليلا .

وكذلك تدخل البابا فى انكلترا ، وفى أسبانيا ، وأملى إرادته على الملوك والحكام ، واشتبك معهم فى منازعات عنيفة .

القديس برنارد :

والآن لندع الحملات الصليبية بمواكبها الزاحفة من الغرب إلى الشرق ، ولندع البابوية تصارع السلطات الزمنية وتصرعها ، وتسير فى كفاح طويل معها يمتد إلى القرن الخامس عشر . ثم لنلق نظرة على ناحية أخرى من تاريخ

المسيحية . فبينا يحتدم النزاع بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتفلح البابوية فى تدعيم السلطة الثيوقراطية المطلقة فى أوربا ، نرى نهضات روحية تختلج فى خبايا الأديرة مادتها التقوى والتعبد وتغليب الروح على كل عناصر المادة .

وقد سبق لنا القول ان نهضة دير كلونى أنقذت الرهبانية من الاغراق فى اللذاذات المادية والترف الذهنى ، وأمدّت البابوية بالقوة التى مكنتها من بسط سيادتها فى القرون الوسطى ، ولكن هذه الرهبانية الكلونية لم تلبث طويلا حتى خفتت شعلة ثورتها ، ومالت إلى شىء من المادية العالمية ، ولم يرض عن هذا الميل كثيرون من ذوى النفوس المتعبدة الزاهدة عن العالم وعن الاشتراك فى منازعاته ، فأنشئت أديرة صغيرة أخرى فى قلب الحراج والغابات بعيداً عن ضوضاء الحياة وجلبتها .

وكان المثل الأعلى للتقوى المسيحية فى القرون الوسطى حياة الزهد والتقشف واعتزال العالم ، وكان الراهب هو نموذج المسيحى الحق الذى يهرع إلى خلية الدير ليصلب الجسد مع أهوائه . على أن العالم لم يدع الراهب فى عزلته ووحشته ، وكان يتعقبه أينما ذهب . ومن قبل طغت الثروة والقوة والمصالح الثقافية والسياسية على الأديرة التى أنشأها بندكت وغيره من أوائل الرهابين ، وكان رهبان كلونى فى القرنين العاشر والحادى عشر أصحاب اليد فى تحويل هذا التيار ، على أن روح الزهد الصحيح لم تبلغ مراميها إلا فى القرن الثانى عشر ، فأنشئت رتب رهبانية جديدة وأنظمة شتى تعبر كل منها عن ناحية من نواحى الفكرة التعبدية . وبين هذه الرتب الكثيرة كان أظهرها وأقواها نفوذاً رهبنة البرناردين (١) التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ القرون الوسطى تحت زعامة رئيسها «برنارد أوف كليرفو Bernard of Clairvaux» .

ولد برنارد فى سنة ١٠٩١ م متحدراً من أسرة عريقة فى ولاية بورغنديا بفرنسا وترعرع بين أخوته الفرسان المحاربين صبياً رقيقاً وديعاً ، ولا شك فى أنه سمع وهو بعد غلام يافع قصص الحروب الصليبية الأولى يوم تجند فرسان أوربا

---

(١) أو الـ Cistercians نسبة إلى Citeaux التى نشأ فيها أول دير من أديرة هذه الرهبانية تحت رئاسة رجل انكليزى يدعى ستيفن هاردنج .

لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدى الأتراك ، ولعلّه رافق أباه لرؤية جسد دوق بورغندى الذى حُمل من فلسطين ليستقر فى دير سيتوه Citeaux على مقربة منه . وكان أمام برنارد أن يختار أحد طريقين فى الحياة : إما حياة الفروسية والجلاد شأن أبيه وأخوته المحاربين البواسل ، أو حياة الرهبنة الوديعة الهادئة ، فاختار الثانية وقد أحسن الاختيار . على أنه لم يذهب إلى الدير وحده ، بل ساقه حماسه إلى أن يحشد حوله ثلاثين من رفاقه ، وفى سنة ١١١٣ وجد الصحب أنفسهم على أبواب دير سيتوه .

وكان رهبان هذا الدير قد قسوا على أنفسهم فى الزهد والتقشف ، ولم تطفئ ظمأهم الروحى حياة دير كلونى لما كان فيها من ليونة العيش ، فهجروه ليؤسسوا هذا الدير ويعيشوا فى الفقر المدقع وإذلال الجسد والبعد عن مظاهر الترف والراحة . فاختير برنارد ليرأس طائفة منهم ويبنى ديراً جديداً .

وهناك فى أعماق حراج «كليرفو» على مقربة من ديجون بفرنسا ، ابتنى برنارد صوامعه الغشيمة الصنع ليخرج منها فيما بعد تلك القوة الهائلة التى جذبت إليها الملوك والباباوات والأساقفة . وكما فعل أنطونيوس أبو الرهبنة فى الشرق وبندكت أبو الرهبنة فى الغرب ، اضطر برنارد أن يناضل فى المعركة الأولى مع نفسه ، ويتعلم سرّ القوة فى الصلاة والخلوة مع الله .

ومن صومعته استطاع برنارد أن يحكم العالم ، وأن يفصل فى نزاع شجر بين اثنين من الباباوات المتنافسين ، ووقف إلى جانب إينوسنت الثانى ضد منافسه ، فاستمال إلى جانبه الغرب كله وأخضعه لنفوذ البابا الذى ناصره . وبذلاقة لسانه وسحر كلامه أقنع الامبراطور كونراد الثالث أن يشرع بالحملة الصليبية الثانية وكان البابا أوجينوس (١١٤٥ — ١١٥٣ م) الذى كان أحد تلامذته فى الدير أداة طيّعة ذلولة بين يديه .

ولكن هذا الرجل العظيم الذى أرغم العالم على الاذعان لقوة ذهنه الجبارة ، لم يكن إلا ذلك الراهب الذى فرّ من العالم ولجأ إلى الوحدة ليعيش فى عزلة ، غارقاً فى تأملاته الروحية فى صلة بالله الذى وجد لنفسه فى محبته ريّا . وكما كان أوغسطينوس أباً لعلوم الدين فى الغرب ، كذلك كان برنارد أباً للتصوف الغربى ، وقد تفجرت من عواطفه الرقيقة العذبة أناشيد رقيقة الجرس

حلوة النغم ، ما يزال يهيم بها المتعبدون حتى اليوم فى الأديرة والكنائس .

وقد تأسست فى الغرب أديرة كثيرة على غرار دير القديس برنارد ، وكان هو أول من شيد الأديرة على الطراز القوطى فى الأمكنة الصحراوية السحيقة ، أو فى قلب الحراج البرية الصامتة لتكون مقراً للحياة المسيحية الهادئة ، وفى الوقت نفسه مرتعاً للعمل الزراعى اليدوى ، وشق الأخاديد فى الطبيعة الفسيحة ، واستنبات الأرض البكر التى لم يستغلها الانسان من قبل . وقد كانت أديرته فى شرق ألمانيا مراكز ، لا لنشر الدعوة بين الوثنيين فقط ، بل لتنشيط الزراعة ونشر الحضارة فى كل الأرجاء .

***

وبينما كان معظم الناس يتلقون علومهم فى المدارس الملحقة بالأديرة ، ظهر صنف آخر من التعليم فى بيوت الأمراء والنبلاء والفرسان ، تلك كانت مدارس الفروسية . فابن الفارس كان إلى السابعة أو الثامنة من عمره يتلقن فى حضن أمه الصلوات ومبادئ السلوك والحياة الطاهرة ، وبعد ذلك يصير وصيفاً فى بيت أبيه ليروض نفسه على أداء بعض الخدمات الصغرى لمولاه ومولاته ، ويلعب المزمار أو العود ، ويصارع ويلاكم ، ويتعلم اللاتينية على يد كاهن الأسرة ، ويقرأ ويكتب ويقرض الشعر . فاذا بلغ الرابعة عشرة صار تابعاً ، يخرج للصيد مع مولاته ، ويعتنى بجواد مولاه ويجلو له الأسلحة وينظمها ، ويحذق حرب الفروسية . وفى الحادية والعشرين — بعد الصوم والصلاة — يدخل الكنيسة مدججاً بكامل أسلحته ويقضى الليل كله فى الدعاء والتعبد ، ثم يتناول الشركة المقدسة ، ويقدم سيفه ليباركه الكاهن ، ويؤدى هذا القسم : « أتعهد أن أدافع عن الكنيسة ، وأتعقب الأشرار ، وأحترم الكهنوت ، وأدفع الأذى عن النساء والفقراء ، وأصون سلامة الدولة ، وأسفك دمى عند الاقتضاء من أجل مواطنى » . وبعد ذلك يقلده قائده السيف ويمنحه رتبة الفروسية .

وقد أنشئت رتب كثيرة للفروسية — شأن الرهبانية — وكان الدافع فى الواقع إلى إنشاء هذه الرتب العسكرية ، تلك الحروب الصليبية التى تطوع فيها الفرسان لاسترجاع الأرض المقدسة . ويروى التاريخ أن ليس كل الفرسان

حفظوا النذر والعهد ، فمنهم من قسا وأسرف وأساء إلى المرأة واحتقر الفقير فخانوا بذلك العهد المقدس ، واضطر البابا فى أوائل القرن الرابع عشر إلى إلغاء إحدى هذه الرتب بالقوة ومحاكمة رجالها بتهمة الهرطقة والفساد . على أن كثيرين منهم حرصوا على مُثلهم العليا ورعوا زمام العهود ، وترجموا مبادئ المسيحية التى قضت بمعونة الأقوياء للضعفاء . وكان القديس لويس ملك فرنسا (١٢١٤ — ١٢٧٠ م) من أعاظم الفرسان المسيحيين الذين دونت القرون الوسطى مآثرهم بالفخار والاعجاب كما تقدم .

القرن الثالث عشر

[استمرار الصراع بين البابوية والامبراطورية — فرانسز الأسيسى — دومينيك — نشاط الرهبان — الرهبانية والطبقات المتوسطة — المدارس والجامعات — توماس أكويناس] .

استمر النزاع محتدماً بين البابا وامبراطور الجرمان فى القرن الثالث عشر. وكان جريجوريوس الحادى عشر قد تربع على كرسى البابوية (١٢٢٧ م) وهو فى الثمانين من عمره ، رجلا اشتهر بذلاقة لسانه ودرايته الواسعة بالقوانين الكنسية والمدنية . وتوج فردريك الثانى امبراطوراً سنة ١٢٢٠م وهو الرجل الذى أطلق عليه لقب «أعجوبة العالم» ، وكان أعجب أهل زمانه حقاً ، شاعراً وفيلسوفاً . وقد اتهمه معاصروه بأنه من المفكرين الأحرار ، وقالوا عنه تارة إنه من أنصار اليهودية ، وأخرى إنه من أنصار الاسلام . وذلك لأنه الصليبى الوحيد الذى استولى على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية ودية مع المسلمين وبشروط معقولة . وقد خلا عقله من عناصر التعصب الدينى ، والأدبى ، والفكرى ، واتسعت آفاق تفكيره ، وآمن بالمعرفة القائمة على التجارب .

وإنه ليعسر على مثل هذا الرجل أن يخضع لسلطة البابا ، فتتصادم السلطتان ، ويصطرع العاهلان ، ويصدر البابا حكم الحرمان ، ويظل النزاع بينهما قائماً مدة أربعة عشر عاماً يُسمع دويه فى الشرق والغرب . ويموت البابا جريجوريوس ، ويخلفه إينوسنت الرابع (١٢٤٣ م) فيجدد الحرم ، ويقرر خلع الامبراطور . على أن هذا الأخير يظل يصارع بعزيمة ماضية إلى أن يدركه

الموت سنة ١٢٥٠ م رجلا محطماً هدته المنازعات العنيفة . وسرة أخرى تنتصر البابوية .

على أن هذا النصر الذى ظفرت به البابوية كان إيذاناً بانهيارها . وذلك لأن هذه السلطة الدينية التى أذلت الملوك والحكام ، تمادت فى مطالبها ، واستبدت بالأساقفة ورجال الدين ، وأباحت لأنصارها وأعوانها أعمال النهب والابتزاز . وأفرطت فى استغلال أوقاف الكنيسة وأموالها وامتيازاتها لجرّ المنافع الخاصة . وبعد أن سحقت البابوية أسرة أباطرة الجرمان ، وهى أقوى أسرة حكمت أوربا بعد عهد قياصرة الرومان ، راحت تحبك بأيديها خيوط فنائها بعد أن خلا لها الجو .

يموت فردريك ويزول الخطر الذى كان يهدد البابوية من ناحية الأسرة المالكة فى جرمانيا . ولكن يأتيها ذلك الخطر من دول أخرى . فالبرلمان الانكليزى ينفر من تدخل البابا فى شئون البلاد ، ويحتج على ألوان العسف التى فرضتها السلطة الدينية فى رومية ،وعلى تعيين الأجانب فى الوظائف الأسقفية بانكلترا .

وفى فرنسا ينهض لويس التاسع ويصدر مرسوماً يحظر على البابا أن يفرض الضرائب بدون إذن الملك والكنيسة ، ويحدّ من تدخله فى اختيار الأساقفة ورجال الدين حسب هواه . وكان الغرض من ذلك المرسوم إنقاذ الكنيسة الفرنسية من مظالم البابوية ، ووضع السلطة فى يد الملك .

وكذلك فى مملكة صقلية لم يرض الشعب عن ملك عينه البابا وخلعوه عنوة ، وأقاموا آخر بدله ولم يعبأوا بأحكام الحرم والتأديب التى أصدرها البابا . ولما جلس بونيفاس الثامن على كرسى البابوية سنة ١٢٩٤ م تمادى فى مطالبه ، وأمعن فى المقاومة والصراع وأصر على أن يقبض بين يديه على صولجان الكنيسة وسيف الحكم ، حتى اضطر عاهل فرنسا وبعض حكام أوربا أن يبعثوا بشرذمة من الجند للقبض عليه ، وأهانوه وأساءوا معاملته ، ولكنهم يسّروا له سبيل الهرب . وكانت تلك طعنة نجلاء فى قلب البابوية لم يفق بعدها الجالس على كرسى الخلافة . وكانت تلك الحادثة إيذاناً بانهيار السلطة البابوية التى ظلت قروناً أقوى سلطة فى أوربا كلها .

كانت فكرة نبيلة حقاً تلك التى أبدعها جريجوريوس العظيم (هلدر براند) فى توطيد ملكوت الله على الأرض ، وتعزيز حكم البر والسلام ، وإقامة «مدينة الله» التى صوّرها القديس أوغسطينوس فى عالم الأرض . ولكن بعض خلفائه استخدموا هذه السلطة الهائلة لتحقيق أغراض سياسية أنانية ، غير مبالين بالوسائل التى تذرعوا بها فى سبيل نيل هذه المآرب . وقد فشلت البابوية فى القرون الوسطى لأنها خلطت بين الدين والدنيا ، وجعلت السياسة أمَة الدين ، وخلعت على الكنيسة نظاماً سياسياً عالمياً ، وحوّلت الدين من روحانية تستقر فى أعماق النفوس ، إلى أداة كهنوتية تستبد بالنفوس . وللسياسة أن تشرِّع وترغم ، أما الدين فيقنع ويلهم .

فرانسز الأسيسى :

على أن القرون الوسطى قد امتازت بكثير من المفارقات . فبينا نرى الصراع محتدماً بين السلطتين الروحية والزمنية ، ونشهد بعض رجال الدين يتخذون منه تجارة وذريعة للقسوة والاضطهاد — يُنجب القرن الثالث عشر شخصيات بارزة تمتاز بالعبقرية الروحية . ومن هؤلاء البارزين القديس فرانسز الأسيسى الذى أنضجت قوة الايمان فى حياته ثمرتها الجميلة — وهى قوة المحبة . وقد كانت رغبته أن يقتفى خطى سيده وربه ، ويهب كل ما لديه للفقراء والمعوزين ، وينادى بانجيل التوبة والمحبة . وقد فعل هذا وأكثر منه ، إذ حمل الآخرين على الاقتداء به والنسج على منواله . وكان من ثمار هذه المسيحية العملية التى تكملت بقوة المحبة القاهرة — الرتب الرهبانية الكثيرة التى نشأت فيما بعد مثل جماعات الفرنسيسكان (التى تأسست سنة ١٢٠٩) والدومينيكان (التى تأسست سنة ١٢١٥ م) — التى صبغت بنزعاتها التعبدية تاريخ الكنيسة الغربية فى النصف الأخير من القرون الوسطى .

كان فرانسز ابن تاجر غنى من بلدة أسيسى بايطاليا ، وقد نشأ شاباً شجاعاً طروباً كريماً ، أحب الولائم والحفلات ، والغناء والطرب ، وارتداء الثياب الأنيقة . وتطلع إلى أمجاد الفروسية ومظاهرها الرائعة ، وكان على وشك أن

يلتحق بالجيش البابوى لطرد الغزاة الجرمان عن جزيرة صقلية ، وإذا بحلم غريب يتراآى له، وصوت خفى يغيِّر كل مجرى حياته ، فعاد إلى أسيسى وهو أكثر هدوءاً وأعمق تفكيراً ، وألف أن يخلو إلى الأماكن المستوحشة ليصلى ويناجى الله . وفى هذه الأثناء أخذ يراقب الشحاذين البائسين الذين كانوا يزحمون طرقات المدن وحنت أحشاؤه إليهم ورقَّت عليهم . ومرة ، وهو يقوم بالحج إلى رومية ، استبدل ثيابه بأسمال شحاذ ووقف اليوم كله يستعطى ليختبر بنفسه مرارة الفقر والاستجداء . ومنذ ذلك الحين أحس بأنه مستطيع أن يشارك الفقراء ويفهمهم ، وتضاعف سخاؤه وعطفه عليهم ، وعرف أن الذى يحزُّ فى قلوب أولئك المساكين أكثر من الفقر والبؤس والجوع ، ذلك الاحتقار الذى كان يلقاهم به الناس . وقد ومضت هذه الفكرة فى عقله بلمعان باهر يوم كان سائراً لالقاء قطعة نقود بين يدى شحاذ أبرص ، فبدلا من إلقائها بأنفة وكبرياء ، وضعها فى يد الشحاذ برقة ولطف ، وقبَّله باحترام وأدب،وطوّقه بذراعيه فى عطف ومحبة .

ومرة كان يصلى فى الكنيسة ، فتخيل صوتاً يحدثه من فوق الصليب القائم على المذبح ويقول له : « اذهب ورمم كنيستى التى قد حاق بها الدمار » . فأجاب: « سأفعل هذا يا ربى طوعاً لأمرك » .

ومن تلك الساعة وهب كل ماله للكنيسة حتى ثيابه التى ارتداها ، وخرج من بيت أبيه وهو لا يحمل شروى نقير ، واكتسى بثياب فلاح بالية بعد أن وضع عليها ختم الصليب . بل راح يستعطى من المقتدرين حجارة يبنى بها كنيسة قريته المهدمة ، ورمم ثلاث كنائس أخرى . وفى إحدى هذه الكنائس التى أحبها سمع رسالة الانجيل المتضمنة وصية المسيح لتلاميذه : اذهبوا واكرزوا . . . لا تأخذوا ذهباً ولا فضة . . . وإذا دخلتم بيتاً اقرئوا أهله السلام . . . وعلى هذه المبادئ أسس فرانسز نظام رهبنته «الفرير Friars» ، وهم جماعة من الناس يجوبون فى الأرض ، بلا مال ولا عتاد ، ينادون بسلام الله،ويستمعون إلى صوته فى قلوبهم ، وقد ارتدوا ثياباً غشيمة من القماش غير المصبوغ الذى يلبسه الفلاح العادى ، وتمنطق كل منهم بحبل حول حقويه ، وانتعل نعلا غشيما فى قدميه .

وكان بين رفاقه فى هذه المغامرة العظيمة أبناء أغنياء التجار والفلاحين

والعلماء والكهنة والشعراء والكتاب ، وقد عاشوا فى بادئ الأمر فى مخابئ غشيمة فى الغابات ، وقضوا أوقاتهم فى الصلاة والدعوة إلى المسيحية والعناية بالبرص ، ثم اشتغلوا بأيديهم فى الحقول أو فى خدمة منازل مواطنيهم لكسب عيشهم بعرق جبينهم ، وحين يعزُّ عليهم العمل كانوا يستجدون أهل الاحسان. وقد رأى البابا بعينيه ما يستطيع أن يفعل هؤلاء من الخير ، فأقر نظامهم فى رومية ، وأطلق عليهم لقب «الأخوة الأصاغر» لأنهم أبوا قبول مناصب عليا فى الكنيسة ، وعاشوا بين الناس أصدقاء وادعين لايطلبون مالا ولا كرامة .

وانتشر الدعاة الفرنسيسكان فى ألمانيا والمجر وفرنسا وأسبانيا وانكلترا ، وذهب فرانسز نفسه فى إحدى الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة ومصر حيث تسلل إلى خطوط الأعداء ودخل إلى خيمة السلطان صلاح الدين وتحدث معه فى شئون الدين ، وبعد أن أكرم وفادته أطلقه دون أن يمسسه ضرٌّ .

والذين رووا لنا سيرة حياته من المؤرخين ، ضمنوها قصصاً غريبة عن محبته لكل الخلائق ، وقالوا إن الحيوانات الجفولة والبرية كانت تأنس إليه ولاتخشاه ، و إن ذئاب الفلوات ولصوص الجبال ، كانوا موضع عطفه ورعايته . كذلك شاد المؤرخون بالغبطة الروحية التى شاعت فى نفسه ، وخاصة حين وضع «أغنية الشمس» التى سبَّح فيها بذكر جميع الكائنات التى خلقها الله . بل ذهبوا إلى حد القول انه من فرط إغراقه فى الدعاء والتعبد والتأمل ، دمغت على جسده بعض جروح المسيح ، وفى ساعة انطلاقه من الأرض رفرف فوقه رأسه سرب من القنابر يصدح بأنغام عجيبة .

***

وقبل فرانسز ، نهض آخرون وقد هالهم ما لمسوا من الشرور فى حياة كثيرين من زعماء الكنيسة ، وجاهدوا فى إصلاح الأمور بالجنوح إلى حياة الزهد والصلاة والأعمال الصالحة . ومن بين هؤلاء «بطرس والدو» الذى نسج على منوال فرانسز ، وبذل كل ماله وراح يستجدى ويستعطى ، ويعين الفقراء والمعوزين . وقد نادى هؤلاء الوالدنسيون Waldensians ومثلهم

الألبونيون Albigensians (١) — ضد فساد رجال الدين فى ذلك العصر وبما درجوا عليه من عادات شريرة ، ولكنهم أُتهموا بمروقهم عن الكنيسة وعصيانهم السلطات الدينية . والواقع أن الأخيرين منهم قد نادوا بعقائد مضادة فعلا للدين المسيحى .

وقصة اضطهاد أولئك الرجال والنساء من القصص الأليمة الرهيبة التى شابت تاريخ الكنيسة . على أنه ينبغى أن نذكر أن الكاثوليك فى ذلك الزمن نظروا إلى الخوارج عن الرئاسة الدينية نظرتهم إلى المجرمين الذين يحاربون ضد الله وضد الحضارة التى شيّدتها الكنيسة على أنقاض الامبراطورية الرومانية . ولكن هذا لا يبرئ قسوة الاضطهاد العنيف الذى وقع عليهم فى سنة ١٢٠٨ م يوم أرسل البابا جيشاً إلى جنوب فرنسا لقمع حركة الهراطقة بالقضاء عليهم جملة وتدمير بيوتهم وأوطانهم .

ومن قبل حُكم على الهراطقة بالموت ، ولم يعدم التاريخ أتقياء من الكاثوليك احتجوا على هذه الفعال التى لا تمتُّ إلى المسيحية بصلة ، وفى هذه المرة ثار الاحتجاج من عالم أسبانى يدعى «دومينيك» ، وقد قام هذا العالم بانشاء رهبنة جديدة قوامها الدعوة إلى الهدوء والمسالمة ، وجذب الناس إلى حق الدين بالحب والملاينة . وقد اختلف الدومينيكان عن الفرنسيسكان فى أنهم كانوا علماء مدربين ، عالجوا المشاكل العقلية التى اختلجت بها عقول الناس ، وشرحوا الحقائق بأساليب سهلة المأخذ واضحة المعنى . وقد ارتدوا رداءً أبيض من تحت ، يعلوه عباءة سوداء ، وجالوا بين الناس معلمين ناصحين ، وقد نذروا الفقر والعفة شأن غيرهم من الرهابين .

وقد نشط أولئك الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان نشاطاً عظيما فى نشر الدعوة المسيحية ، فانطلق فريق من الفرنسيسكان إلى المشرق سنة ١٢٣٣ م لدعوة سلطان دمشق إلى المسيحية . وبعد سنوات قلال استشهد تسعون من الدومينيكان فى بلاد المجر الشرقية بأيدى تتر جنكيزخان ، وانطلقت جماعات منهم إلى ديار الاسلام واليونان والبلغار والقوطيين والروس والنوبيين

---

(١) نسبة إلى مدينة إلبى فى فرنسا .

والنسطوريين والأرمن والهنود والتتر وإلى كل أجناس الأرض ، ووقع كثيرون منهم أسرى فى أيدى الأتراك . ويقال إن الدومينيكان أفلحوا كثيراً فى نشر الدعوة ببلاد الحبشة ، كما أن الفرنسيسكان رافقوا كولمبوس فى رحلته الثانية إلى أميركا .

وكان ريموندلل (١٢٣٥ — ١٣١٥ م) أحد عظماء الدعاة المسيحيين ، راهباً من الفرنسيسكان . وقد هالته قسوة الحملات الصليبية ، فاعتزم أن يقدم لاخوانه المسلمين رسالة السلام والمحبة . فدرس العربية وانطلق إلى أفريقية الشمالية وظل ينشر الدعوة هناك حتى رجمه الدهماء فى بلدة صغيرة على مقربة من تونس . ولما أقام الصليبيون مملكة لاتينية فى القسطنطينية ، انطلق أولئك الرهبان المستجدون ، وأسسوا مراكز لهم فى أنحاء الامبراطورية الشرقية لنشر الدعوة المسيحية ، ورحلوا شرقاً إلى بلاد الفرس وأرمينية ، ثم إلى الشرق الأقصى .

وكان المغول سادة آسيا الشمالية فى ذلك الزمن ، وقد زحفت جموعهم فى القرن الثالث عشر حتى استولوا على وادى نهر الفولجا ، واكتسحوا أوربا الشرقية فى طريقهم ، وهددوا المسيحية والحضارة وأدخلوا الرعب والفزع إلى قلوب الشعوب الأوربية ، واستولوا على بولندا وبوهيميا وبلاد المجر ، ولم ينقذ أوربا الغربية من أيديهم إلا موت عاهلهم جنكيزخان . وقد انتهز رهبان الفرنسيسكان هذه الفرصة وراحوا يبثون الدعوة بين الغزاة الفاتحين ، وبلغت بهم الجرأة أن وصلوا إلى معسكر الخان العظيم فى قلب آسيا حاملين رسائل من ملك فرنسا لويس التاسع ، وقالوا لعاهل المغول انهم لا يحملون ذهباً ولا فضة ، ولكنهم يلتمسون أن يأذن لهم بالبقاء فى ربوعه لدعوة الناس إلى خدمة الله وإلى الحياة الكريمة الصالحة . وقد أكرم الخان وفادتهم ، وأذن لهم بنشر دعوتهم . وهناك ترجموا الانجيل إلى لغة التتر ، وشيدوا الكنائس ، واستمالوا كثيرين إلى المسيحية . وقد قضى كثيرون منهم شهداء فى تلك البقاع النائية .

الرهبنة والطبقات الوسطى :

وكان لرهبانيات المستجدين من فرنسيسكان ودومينيكان أفضال أخرى

غير ما ذكرنا من إسناد السلطة البابوية و إيقاظ روح الدعوة المسيحية فى أوربا والشرق . وذلك لأن إليهم يرجع الفضل فى التطور الاجتماعى الذى خلق الطبقات المتوسطة على مسرح التاريخ .

و إلى ذلك الحين كان تاريخ القرون الوسطى دائراً حول الأمراء والنبلاء والأشراف ورجال الدين على اختلاف رتبهم . ثم إن رجال الدين هؤلاء — أو على الأقل أصحاب الكرامة والنفوذ فيهم — خرجوا فى الأصل من أسر الأمراء والأشراف ومن طبقات المجتمع العليا التى تميزت بالثروة والفروسية . نعم ، وُجد لهذه القاعدة استثناء كأن يرتفع ابن صانع مثل جريجوريوس السابع إلى مرتبة البابوية ، ولكن كانت القاعدة المطردة أن يحتل وظائف الأساقفة ورؤساء الأديرة أبناء الأسر العريقة ذات الكرامة والجاه والثروة ، وحتى بين الرهبان كانت الأكثرية من تلك الأسر العريقة المحتد . فبرنارد الراهب الشهير صاحب النظام المعروف باسمه كان غصناً من دوحة عريقة قديمة فى ولاية بورغنديا ، ولما دخل الدير أخذ معه ثلاثين رفيقاً من أبناء الأشراف . والنهضة التى بدأها رهبان ديركلونى ، الذين يرجع إليهم الفضل فى إصلاح حياة الرهبنة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، نبتت أولا من بين الأشراف . وعلاقة أولئك الرهبان بالأسر النبيلة الغنية هى التى أغنت الأديرة وكدست فيها الثروات المادية التى كانت من أقوى عوامل اضمحلالها وبعدها عن الغرض الذى خلقت من أجله . وقد كان أولئك الأشراف — فى الكنيسة وفى العالم على السواء — القادة وأصحاب النفوذ والسلطان ، وهم وحدهم الذين مثلوا رواية التاريخ على مسرح ذلك العصر ، وذلك بسبب امتلاكهم الأراضى ومصادر الثروة . أما المواطنون والفلاحون فلم يكن التاريخ قد عرفهم بعد ، ومن بينهم تجند صغار الكهنة العالميين الجهلاء الذين لم يكن لهم حول ولا طول فى إدارة شئون الكنيسة ، وكانوا أدنى مرتبة من الكهنة المترهبين . وقد ساعدت تلك الطبقات العامة فى إعداد الأسس الاقتصادية للحياة القومية ، ولكنها لم تكن تمثّل مبدأ ولم تسع إلى هدف معين . والحياة الوطنية ذاتها لم تكن قد اصطبغت بعد بصبغتها العقلية الخاصة . ولئن تكن قد أفلحت الطبقات العامة فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى خلع

نير الخدمة الالزامية ، وإلقاء أعباء النظم الاقطاعية ، والتحرر من سلطة الأمراء والأشراف ، فان مصالحها الخاصة بقيت محدودة ، ولم يكن للتجار والصناع والعمال مطامع خارج نطاق البلدة أو الدائرة التى عاشوا فيها . عاش الكافة فى نطاق ضيق محدود ، بينما امتدت مصالح الخاصة من أمراء وأشراف وأساقفة ورهبانة ورؤساء أديرة إلى آفاق العالم الغربى كله .

ومن القرن الثالث عشر تبدأ نهضة جديدة ناشطة بين الطبقات المتوسطة ، ويرجع الفضل فى هذا التطور إلى الرهبان المستجدين وإلى نفوذهم ودعوتهم . فهم قد تمكنوا ، بما لهم من سلطة وحظوة ، من المطالبة بقبول عامة الشعب فى الأديرة ، وخالفوا بذلك الاتجاه القديم الذى جنحت إليه أنظمة الرهبانيات القديمة التى طُبعت بطابع الارستقراطية ، ووسعوا آفاق إنسانيتهم وعطفهم ، فامتلأت الأديرة بأفراد الكافة والطبقات الدنيا ، وازدادت قوتهم بانضمام الطبقات المتوسطة إليهم ، واضطر النبلاء وطبقات الفرسان إلى إفساح الطريق أمام هذه الميول والغرائز الوطنية التى امتزجت فى الوقت نفسه بالخشوع والتعبد وسائر خصائص الرهبانية .

وانتقلت — بهذه النظم الرهبانية الجديدة — ملكات الخطابة والوعظ ونشر الدعوة الدينية إلى الطبقات المتوسطة ، ولم يكن الانتقال مقصوراً على الكلام المنطوق فقط ، فقد كانت العلوم والآداب من بداية القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر وقفاً على الرهبان المستجدين وخاصة الدومينيكان ، وكان من آثار النهضة الفكرية التى بدأت فى القرن الثانى عشر — مع الحروب الصليبية — أن تأسست المدارس والجامعات فى إيطاليا وفرنسا وانكلترا وألمانيا ، وكانت أغلبية الأساتذة فى هذه الجامعات من الرهبان الذين اختصوا فى ذلك العصر بالعلم والنشاط العقلى ، وتولوا الزعامة فى منبر الكنيسة ومنبر الجامعة على السواء ، وقادوا حركة التهذيب والتعليم فى أوربا كلها .

وكان التعليم الذى لقنّه الرهبان للطبقة المتوسطة دينياً كنسياً ، وقد أوتى ثماره فى إخضاع المصالح الزمنية للمصالح الروحية ، والامبراطورية للبابوية . وخيّل أن قوة الكنيسة وسلطة البابوية قد تركزتا على أساس مكين لا يتزعزع ، فالطبقة المتوسطة التى تقدمت لتشق طريقها فى التاريخ بقوة هائلة كانت قد أُشربت روح

الخشوع والتعبد ، فأسندت الكنيسة ومبادئها وبسطت سلطانها على حياة الأمة كلها .

***

أجل ، شهد القرن الثانى عشر والثالث عشر نهضة الجامعات التى بدأت فى أصلها كنقابات من المعلمين لتبادل الحماية والمعونة ، وكما قلنا كان المعلمون — أو الأقل كثرتهم الغالبة — من الرهبان ورجال الدين الذين احتضنتهم الكنيسة ، على أنه قد انضم إليهم كثيرون من العلماء والمفكرين ، وقامت إلى جانب دراسة العلوم الدينية دراسات أخرى مثل الطب والمنطق والفلسفة واللغات القديمة . وقد شجع البابوات والملوك جماعات المعلمين — الذين أطلقوا عليهم لقب Schoolmen فى ذلك العصر ، وأغدقوا عليهم المنح والعطايا ، وأعفوهم من الضرائب ، وتركوا الحرية للجامعات فى إدارة شئونها ومجالسها الخاصة . ونظّم الطلبة جماعات قومية أو كليات مستقلة ، وعلى مرّ الزمن استقل رجال الدين بكلياتهم فى الجامعات لدراسة علم اللاهوت خاصة . وشغف المعلمون شغفاً شديداً بكتابات الفيلسوف الاغريقى القديم أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م) التى انتقلت إليهم بسبب اتصالهم بالامبراطورية اليونانية وبالعرب أثناء الحملات الصليبية ، فترجموا كتاباته وشرحوها وحاولوا التنسيق بين آرائه وبين تعاليم الكنيسة ، وكذلك شغفوا بالمنطق وروضوا طلابهم على التفكير الدقيق المفصل . على أنه من دواعى الأسف أن تعليمهم على مر الزمن أمسى جافاً مشوشاً ، واستزجت توافه الأشياء بالزبد ، ولم يعنَ أولئك المعلمون بآداب اليونان والرومان القديمة ، واستهنوا اللغات الحديثة التى سادت فى عصرهم ، وروضوا طلابهم على التفكير دون الاهتمام بتهذيب الأحاسيس والعواطف ومبادئ الأخلاق الفاضلة التى عنى بها الرهبان الأولون . فلا عجب أن يذكر التاريخ أن كثيرين من الطلاب الفقراء المتجولين الذين ازدحمت بهم المدن الكبرى ، انتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا لصوصاً سكيرين على كثرة ما اغترفوا من علوم ومعارف . ومع هذا كله فان حرية البحث التى تمتعت بها الجامعات جعلت العلم فى متناول جميع الطبقات ، واختزنت مزيداً من المعرفة فى العقول والأدمغة .

وقد خلد التاريخ أسماء كثيرين من أولئك المعلمين الأعلام ، وكان «انسيلم» (١٠٣٣ — ١١٠٩ م) فى طليعتهم ، الذى صار فيما بعد رئيس أساقفة كانتربرى ، وهو الذى حاول أن يثبت وجود الله بالحجة العقلية ، وأن يدعم الايمان الدينى بأسانيد العقل . وجاء بعده «ابيلارد» (المتوفى سنة ١١٤٢ م) وهو شاب تلقى العلم فى باريس وجذب إليه كثيرين من الطلاب ، وجمع فى كتاب له أقوال الآباء الأولين المتناقضة ، واستعرضها للبحث والتمحيص ، وأباح لطلابه مناقشتها للوصول إلى الحق ، وأفسح لهم السبيل لبحث العقائد الدينية على نور العقل والمنطق . على أن رجال الكنيسة لم يرقهم هذا التطور الفكرى الحر وحسبوا ابيلارد خطراً على التقاليد والسلطات الدينية والايمان المسلَّم من الآباء ، فثاروا عليه وعلى رأسهم القديس برنارد مؤسس إحدى النظم الرهبانية الذى تقدم الكلام عنه فى فصل سابق ، وعقدوا مجلساً لمحاكمته وأخرسوا لسانه وحكموا عليه بالانزواء فى دير «كلونى» حيث مات فى السنة التالية .

وبين الأسماء التى برزت بين المعلمين فى القرن الثالث عشر «روجر باكون» و «وليم أوكام» من الفرنسيسكان ، و «البرتوس ماجنوس» و «توماس أكويناس» من الدومينيكان .

ولعلَّه من الشائق أن نختتم هذا الفصل بلمحة خاطفة من حياة القديس توماس اكويناس (١٢٢٥ — ١٢٧٤ م) وقد تحدَّر الرجل من أسرة نبيلة عريقة تتصل بالأسر الحاكمة فى أوربا فى ذلك العهد . وكان مولده فى قرية صغرى فى إيطاليا الجنوبية ، فلما بلغ الخامسة من عمره أُرسل إلى مدرسة للبندكتيين فى جبل كاسينو . وكان صبياً هادئاً رزيناً ، أحب الكتب كما يحب الأطفال اللعب ، وقد أدهش رهبان دير جبل كاسينو يوم سألهم وهو بعد طفل صغير «من هو الله؟» .

وقد قضى توماس بقية حياته محاولا أن يجيب عن هذا السؤال الذى حيره منذ حداثته . فدخل جامعة نابولى وهو بعد فى العاشرة (وكان الأولاد يدخلون الجامعات فى سن مبكرة فى تلك الأيام) ، وهناك التقى برهبان الدومينيكان ، فاعتزم أن يكون واحداً منهم . وهنا ينفجر مرجل السخط بين

أهله وذويه ، وهم لا يحتملون أن يغدو هذا العالم المتحدر من أصلاب الأمراء راهباً مستجدياً . فانطلق أخوته الذين كانوا قد انخرطوا فى سلك الجندية ، واختطفوه عنوة من الوسط الذى لصقت به نفسه ، واحتجزوه فى ضيعته ، ولكن عبثاً كان كل هذا . وأخيراً يلين أخوته ، ويطلقون سراحه ، ويدلونه من نافذة القصر الذى احتبسوه فيه . وكان فى انتظاره نفر من زملائه الرهبان فحملوه معهم إلى الدير . وبعد ذلك أرسل إلى كولون ليدرس عند قدمى العالم الجليل «البرتوس ماجنوس» . وقد حسبه الطلاب زملاؤه غبياً بليداً لصمته وهدوئه حتى أطلقوا عليه لقب «الثور الأبكم» . ولكنه يشترك يوماً فى مناظرة يدافع فيها علناً عن وجهة نظر معينة ، فيخلب ألباب زملائه وأساتذته بقوة حجته ، ورصانة منطقه ، وثاقب فكره . وصاح السامعون أن هذا «الثور الأبكم» سيسمع خواره العالم كله . وقد صدقت نبؤتهم . وانتقل هذا الشاب النابه إلى جامعة باريس ، وبعد أن حصل على أرقى الدرجات العلمية استدعاه البابا سنة ١٢٦١ م إلى رومية ، وذاع صيته كأحد مشاهير الأعلام العلماء فى عصره .

وكانت مهمته الكبرى أن ينظم دروس الطلاب ، ويصنف الكتب الدينية ، ويلخص ويبوب كتابات الأسبقين وحكمتهم . ويفضل مضاء ذهنه ، وقوة ذاكرته ، وطول أناته ، وتفكيره المنطقى الدقيق ، ونشاطه الجم ، وإيمانه الوطيد ، لخص حقائق الدين المسيحى أجمل تلخيص . وقد صنف كتباً فى شرح الأسفار المقدسة ، وعلم اللاهوت ، والفلك ، وعلم النفس ، والفلسفة ، وغير ذلك ، ونظم الترانيم ووضع الصلوات . وما فتئت كتبه وترانيمه وصلواته مستودعاً حتى اليوم يستمد منه العالم المسيحى أنفس ذخائره وأجمل تحفه .

القرن الرابع عشر

[انحلال البابوية — فساد الرهبانية — روح الاصلاح تختمر — طلائع المصلحين — كاترين ده سين] .

شهدت السلطة البابوية فى بكور القرن الرابع عشر انحلالا كانت قد بدت أعراضه من قبل . وقد تخلل هذا القرن الفترة التى عرفت فى التاريخ بـ «السبى البابلى» . وذلك لأنه بعد زوال الأسرة المالكة فى ألمانيا، والقضاء على أكبر عدو للبابوية ، انقسمت ألمانيا إلى دويلات وأمارات صغرى . وتظهر فرنسا قوة كبرى فى أوربا وتغدو دولة متحدة مسموعة الكلمة . وكان البابا بونيفاس (١٢٩٤ — ١٣٠٣ م) بعد القضاء على عدوه الألمانى قد تمادى فى مطالبه كما تقدم ، وأصر على السيادة البابوية فيما لله وفيما لقيصر ، ولذلك يتورط فى نزاع عنيف مع فيليب الجميل ملك فرنسا ، ويصدر رسالته المشهورة التى يؤيد بها سلطان الكنيسة المطلق ، لا فى الشئون العالمية فقط ، بل فى تعيين الملوك وخلعهم . وهنا تصطدم البابوية بصخرة تتحطم عليها . إذ يضطر البابا اكليمندس (١٣٠٥ — ١٣١٤ م) تحت ضغط ملك فرنسا إلى الاقرار رسمياً بأن رسالته لا تمس ملك فرنسا ، بل يذهب الملك إلى أبعد من هذا الحد فيرغم البابا على نقل كرسيه من رومية إلى أفينون (١٣٠٩ م) على مقربة من أملاك ملك فرنسا . وكأن الذى عجز عن تحقيقه أباطرة الأسرة المالكة فى ألمانيا ، يتوصل إليه الآن ملوك فرنسا فى سنوات قلال . وكانت تلك الحادثة فاتحة السياسة الدولية الحديثة ، وغدت البابوية أداة طيّعة فى يد ملك فرنسا ، خاضعة لسلطانه . وكان مرد هذا إلى الافراط فى المطالب والمغالاة فى فرض سيادة زمنية مطلقة خلقت نزاعاً بين السلطتين الزمنية والروحية ، وراحت الدولة

تجاهد ويشتد ساعدها حتى غلبت أخيراً بعد أن ظلت الغلبة للبابوية دهراً طويلا .

وقد بقى «السبى البابلى» فى أفينون من سنة ١٣٠٥ م إلى سنة ١٣٧٧ م من عهد إكليمندس الخامس إلى عهد جريجوريوس الحادى عشر ، أى طيلة القرن الرابع عشر تقريباً . وقد أحست البابوية بهذا الأسر إحساساً دقيقاً ، بل أحست الكنيسة ذاتها كأنها قد أقصيت عن عرشها . ولم تنقطع المحاولات للافلات من هذا الأسر ، فبعد سنة ١٣٧٨ م يقوم فى رومية بابا لمعارضة كرسى أفينون ، وبذلك تنقسم المسيحية إلى معسكرين متعاديين ، وبعد أن كانت البابوية رمزاً للوحدة المسيحية تمسى مثاراً للانقسام والشحناء . وينبرى العاهلان المسيحيان يحارب أحدهما الآخر بأحكام الحرم واللعن ، وترى الأمم الغربية لأول مرة أن صواعق الحرمان البابوى قد تنقض على الأرض فلا تؤذى ولا تميت . وبانقسام البابوية على ذاتها تضعف شوكتها ويخفت صوتها . وقد ظل هذا الانقسام قائماً أكثر من ثلاثين سنة من ١٣٧٨م — ١٤٠٩م ، وفى تلك السنة يعقد مجمع فى بيزا لرأب هذا الانشقاق ، إذ يقرر عزل الزعيمين المتنابذين ويعين ثالثاً . على أنه لم يمكن تنفيذ هذا القرار ، ويبقى العاهلان المتنافسان ، كلٌّ فى مكانه . ويصير البابا المنتخب فى بيزا منافساً ثالثاً ، ويظل الانقسام الثلاثى قائماً حوالى عشر سنوات . وما يهلُّ القرن الخامس عشر حتى تتقلص السلطة البابوية وتصاب بضربة قاصمة ، ويزول ذلك السلطان العريض الذى كسبته السلطة الدينية بكثير من الجهاد والعناء .

ارتفعت السلطة البابوية إلى ذروة المجد ثم انهارت . وكان ذلك الارتفاع هو علة الانهيار . وقد حدث هذا تماماً فى الرهبانية أيضاً . ولقد رأينا فى القرن الثالث عشر كيف تسنمت الرهبانية ذرى الكرامة ، وكيف احتضنت الطبقة الوسطى وأفسحت المجال للثقافة والعلم والتقوى . ولكن تلك النهضة التى ساقت الجماعات إلى الأديرة كانت فيها الضربة القاضية . ذلك لأن كثيرين اتخذوا طريقهم إلى الأديرة بدون ذلك الوازع الداخلى الروحانى ، وكثيرين دخلوا الأديرة ، لا للهرب من العالم وذنوبه ، بل التماساً للراحة وعزوفاً عن الكدح والجهاد . وأمسى الدير أشبه بمجتمع من الكسالى المسترزقين ، لا مجتمع من المتعبدين المتقشفين .

وأمام هذا الوضع الذى زاد سوءاً بالاستجداء ، راحت طبقات الشعب والفلاحون يتساءلون أفى مثل هذه الحياة التى تعيش على كد الآخرين مرضاة الله ، أم القيام بالواجبات النافعة بأمانة وإخلاص وسط العالم ، وأخذ النـاس يحسون أن الرهبانية ليست بالضرورة المثل الأعلى للحياة المسيحية . لأن أسباب الزهادة والتقشف التى فرضها أولئك الرهبان المستجدون لم تكن كافية لتهذيب الروح ، ولم تكن الأوساط الرهبانية خالية من الفساد والاباحية . على أنه من الجور أن ننكر أن تلك الأوساط التى نظرت إليها طبقات الشعب شذراً فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أنجبت فئة مختارة من الرهابين المثقفين ثقافة أخلاقية روحية . ولكن الحياة العامة فى الأديرة انحدرت بعد سمو ، وعجزت شرائع التقشف والاذلال الصارمة عن ترويض الطبيعة البشرية الخاطئـة .

ويخيَّل إلى الباحث أن كنيسة القرون الوسطى بعد أن أنضجت خير الثمرات وأشهاها للعالم المسيحى فى تلك العصور ،قد بلغت الآن ذروتها فى تطورها الطبيعى، وراحت البابوية تنزل من الأعالى مثقلة بأعباء المطالب الباهظة التى تورطت فيها، وغدت مصدر كثير من التصرفات التى أساءت استعمالها ، بل علة الانقسام والشحناء . كما أن الرهبانية فتحت صدرها لطبقات شتى من الشعب وفرضت الزهد والتقشف على فئات لم تكن أهلا لها فانتهت بالافلاس الأدبى . وتاقت الكنيسة ، كما تاق العالم كله ، إلى نبع من الحياة جديد ، وحان الزمن لاصلاح الكنيسة ، رأسها وأعضائها معاً .

واستلأت النفوس بهذا الشوق الشامل ، وأحست جميع العناصر بضرورة الاصلاح . بل قد لاحت فى آفاق التفكير بشائر اليوم الآتى ، ولم يكن القرنان الرابع عشر والخامس عشر فترة تقهقر فى الواقع ، بل هما الفترة التى غذت عهد الاصلاح ، وبدأت النهضة الفكرية التى أنجبت الزعماء المجاهدين فى هذا السبيل :

وفى منتصف هذا القرن برز من بين الصفوف «جون ويكلف» الانكليزى المتوفى سنة ١٣٨٤ م وقد هاله التنافس المعيب بين الباباوات وفساد الرهبان وزعماء الدين ، فرفض مطالب الكنيسة فى السيطرة على الدولة وتحدَّى سلطة

البابا ، وشنها حرباً شعواء على الرهبان المستجدين ، وجعل الكتاب المقدس وحده مصدر الحق الطاهر النقى ، والمرجع الوحيد لكل العقائد والتعاليم الكنسية .

وبعده نهض «جون هوس» من مملكة بوهيميا(١) ، متأثراً بكتابات ويكلف ، وتهجم على مبدأ عصمة المراسيم البابوية وسلطان البابا فى منح الغفران Indulgences .

وكان «هوس» أستاذاً بجامعة براج فاضطهده أنصار البابوية ، وعقدوا مجمع كونستانس سنة ١٤١٥ م واستدعوه للمحاكمة بعد أن أمنوه على حياته . وعلى الرغم من ذلك حكموا عليه بالموت حرقاً بالنار لأنه ملحد مهرطق ، ولكنه لم يعبأ بذلك وظل أميناً لدعوته حتى الموت . وقد أضرمت النار التى أحرقت جسمه لهب ثورة عنيفة فى بوهيميا كلها ، لا ضد الملك «زيجزموند» فقط ، الذى رضى بالحكم والاستشهاد ، بل ضد كنيسة رومية . وظلت نيران الثورة متضرمة حوالى عشرين سنة لم تنته إلا بعد عقد معاهدة صلح بين مجمع بازيل وبين أنصار « هوس » .

وقد بلغ الحماس بأنصار هذا الزعيم الدينى مبلغاً عظيما حتى لقد أوصى أحد زعمائهم عند موته ، وكان أعمى ، أن يصنعوا من جلده طبلا يقرعونه لمناداة الشعب وحثّه على الثورة .

كذلك نشهد فى ألمانيا نهضة تصوفية جديدة يحمل لواءها زعماء أمثال الأستاذ ايكارت فى ستراسبورج ، الذين أشاعوا فى النفوس روحاً تقوية جديدة استعاضت عن الأوضاع الخارجية فى العبادة بالصلة الداخلية بالله . ونشهد أيضاً فى ألمانيا الشمالية وفى سويسرا بعد منتصف القرن الرابع عشر جماعة «أصدقاء الله» ، وجماعة «أخوة الحياة المشتركة» ، التى ظهرت بعد ذلك فى ألمانيا وهولندا ، وأدخلت بين العلمانيين وطبقات الشعب وضعاً من أوضاع المسيحية التى تعتصم بالكتاب المقدس ، وتعلن الدين الحق فى حياة البذل والتضحية ، ومن هؤلاء الأخيرين يبرز القديس توما الكمبيزى المؤلف الشهير وصاحب كتاب «الاقتداء بالمسيح» .

---

(١) وكان ملك انكلترا قد تزوج فى ذلك القرن من أميرة بوهيمية .

وكان من دعاة الاصلاح فى هذا القرن سيدة جليلة هى «كاترين ده سينّ» التى أنارت سبيل الحياة أمام كثيرين بحياتها النبيلة ومثُلها الصالحة وتعاليمها الحقة ، بل لقد استطاعت وهى امرأة أن تحمل البابا على أن يترك «أفينون» أرض السبى ، إلى وطنه الأصلى فى روسية .

كاترين ده سينّ

ولدت هذه البطلة التى قدّر لها أن تكون أعظم امرأة فى القرن الرابع عشر فى بلدة سينّ الايطالية القائمة على تلال ثلاثة فوق سهل تسكان . وما تزال البلدة حتى اليوم محتفظة بعراقتها الأثرية القديمة ، بحيث يسهل على السائرين فى طرقاتها ليلا ، أو المشاهدين شروق الشمس من وراء التلال الحارسة لها ، أن يرجعوا بخيالاتهم إلى القرون الوسطى . فهناك قصور النبلاء والأمراء وقد رسم على جدرانها صور دروعهم ، وإلى جانبها بيوت تقادم عهدها وعلتها الأوساخ ، وهناك الكاتدرائية الكبرى التى لم يكمل بناؤها بعد ، والمخططة من الداخل بألوان جلد النمر . وهناك السوق العظيم على شكل الصدفة وقد تطاولت فوقه القلعة الأثرية القديمة . . .

فى هذه البلدة الصغيرة التى ما زالت محتفظة حتى اليوم بصبغة القرون الوسطى ولدت «كاترين» ابنة لرجل صباغ فى سنة «الموت الأسود» . وكان ذلك وباء مرعباً رهيباً اكتسح البلدة . وظنه البعض غضبة من السماء لأن القرن الرابع عشر وُصم بين قرون التاريخ بألوان قاتمة من العنف والقسوة . تلك كانت البيئة التى درجت فى وسطها الطفلة التى كبرت لتكون بطلة وقديسة ، لا فى بلدتها فقط بل فى العالم كله . . .

فى ذلك القرن امتلأت طرقات المدن بالمشاغبات والمشاجرات بين أفراد الأسر المتنافسة ، وشاعت حوادث الاعدام والتعذيب العلنية ، حتى اضطرت الجماهير أن تحتج اشمئزازاً من هذه المشاهد المفجعة ، وحتى اضطر رجال الدولة إلى حمل المحكوم عليهم خارج أسوار المدن لتنفيذ الأحكام فيهم . أما فى السجون فقد جفّت الشفاه من الظمأ وضمرت البطون من الجوع .

ومن أغرب الأشياء فى حياة كاترين أن تموت وهى فى الثالثة والثلاثين من العمر ولمّا تمض فى الجهاد إلا سنوات معدودات، وأن تنبت فى وسط وضيع، ومع ذلك تحتل مكانة الكرامة والزعامة ، وتغدو أبرز شخصية فى القرن الرابع عشر ، لا كقديسة ومحسنة فقط ، بل كادارية وسياسية وسفيرة للبابا . وما من شك أنه كان بها قوة أخلاقية هائلة ، ومقدرة فذة تبلغ حد العبقرية النادرة ، وقداسة هى أسمى مظاهر هذه العبقرية .

وقد انضمت فى بدء حياتها إلى جماعة من الأخوات ، لا كراهبة ، بل كأخت مستجدة، تعتزل العالم ولكن تبقى على صلاتها مع أسرتها، على أن نهج الحياة الذى سلكت فيه ، والأعمال التى قامت بها ، جعلتها فريدة بين أخواتها . وقد أحاطت بها وهى بعد صبية هالة من القداسة ، ومع أن العالم كله اعترف لها بهذه القداسة فيما بعد ، فان بعضهم قد أنكرها عليها فى حياتها . وذلك لأنها امتازت بالقداسة العاملة المجاهدة ، التى تخدم وتصلح .

وكان الموت الأسود الذى فشا فى البلاد أبان طفولتها قد خلف وراءه تركة رهيبة ثقيلة ، وكان يشتد فتكه بين الفينة والفينة . وعاد الطاعون إلى سينّ ، وانتشر المرض فيها ، وألفت الأوباء المختلفة مرتعاً خصيباً فى تلك الطرقات القذرة والمسالك الضيقة ، فاستوطنت هناك زمناً طويلا .

وكانت كاترين قبل كل شىء ممرضة ماهرة ، عنيت بالأبرص ، وعالجت المصاب بالطاعون ، بينما هرب الآخرون منه وحظر عليهم زيارته . ولما هجم الطاعون للمرة الثالثة فى مدى ثلاثين سنة فى بلدة سينّ ، كانت كاترين أشبه بفلورنس نيتنجيل فى ذلك الوقت الرهيب . ومات فى ذلك الوباء أخوها وأختها وستة من الأحفاد الأحد عشر الذين كانت أمها تتولى تربيتهم . وقدّر على كاترين أن تدفن هؤلاء كلهم بيدها فى قبورهم .

وذاع اسمها خارج نطاق بلدتها ، وكان صوتها العذب الحنون بلسم العزاء والتشجيع للمحتضرين ، وكانت لمسة يدها وصلواتها علّة الشفاء للمرضى والمتألمين . وقد قيل ان ابنة الصبّاغ الفقير أبرأت مريضاً كان الطبيب قد فقد كل أمل فى شفائه ، فعلت شهرتها فى آفاق البلاد .

وإنصافاً للتاريخ ينبغى أن نذكر أن بعض مواطنيها قد أساءوا فهم عطفها

ومحبتها ، واتخذوا من أساليب الصلاة والصوم والخدمة ذريعة للافتراء عليها والقذف فى كراستها ، وأهاجوا عليها الدهماء حتى لقد بلغ بهم الأمر حد اختطافها وهى مستغرقة فى الصلاة بالكنيسة ، وجرّها خارج البناء المقدس وطرحها فى الطريق العام بعد لكمها ورفسها بالأرجل ، وهى لم تشعر بكل هذا حتى أفاقت ووجدت أصحابها حولها يبكون عليها .

ولكن عاصفة النمائم والافتراءات تهدأ رويداً رويداً ، ويحيط بها بدلا عنها هالات من التقدير والاحترام ، وتروى عنها الأقاصيص للاكبار من خدمتها وعطفها وكراستها فى السماء ، وتخلق حولها أسطورة القداسة . ومثل هذه الأساطير لا تُبتكر ولا تبقى على الأيام لو لم تسندها وفرة هائلة من التضحيات والولاء والشجاعة والحكمة ، ووفرة من الفضيلة التى نحسبها صنواً للقداسة .

وكان أكثر جهادها بين الفقراء . ولكن حدث مرة أن حكم على أحد النبلاء بالموت لجريمة اقترفها . ورفض ذلك الأمير فى سورة الحدة والغضب أن يتأهب للموت بالاعتراف أمام القسيس . فاستأذنت كاترين أن تراه . وما أن اختلت به حتى حملته على الاستسلام لمصيره المحتوم ، وطلب إليها أن تكون إلى جانبه ساعة إعدامه فقبلت ، وكان صوتها آخر الأصوات التى طرقت أذنيه ، واسمها آخر الأسماء التى رددتها شفتاه ساعة الموت .

وكتبت بعد ذلك رسالة إلى أحد رجال الدين تصف فيها توبته وإيمانه والعزاء الذى غلب رهبة الموت . وكانت تلك من الرسائل القليلة التى كتبتها ، وذلك لأن تلك المرأة التى برزت شخصيتها وزعامتها لم تكن تعلمت القراءة والكتابة إلا بعد أن كبرت فى السن ، وآثرت إلى آخر حياتها أن تملى رسائلها ، وتسمع الآخرين يقرأون لها . ولا بد أنه كان لها من مواهبها الطبيعية ما عوّضها هذا النقص فى التعليم .

وقد شغلت فى تفكيرها وأحلامها بكنيسة مصلحة وسلام شامل يعمّ أرجاء إيطاليا ، وحفلت أحاديثها وكتاباتها بهذه الأمانى العذاب . ومرة التف حولها ألف من السامعين كانوا قد وفدوا إلى سينّ من أنحاء إيطاليا لسماع صوتها وهم مأخوذون برقته وعذوبته . وقيل عنها مرة انها حملت صليباً وراحت تركض فى

الطرقات ابّان ثورة واضطراب عام لتهدئة الثائرين . وقد التمس نصح هذه المرأة التى لم تنل قسطاً وافراً من التعليم ، ليس المتواضعون والمرتفعون من رجال الكنيسة وحسب ، بل الولاة والحكام والجنود والعلماء . وأرسلها البابا نفسه سفيرة له فى «بيزا» . وهى وحدها قد أفلحت فيما خاب فيه الآخرون ، أى حمل البابا على الانتقال من أفينون إلى رومية .

على أن أعمالها وحياتها — على قصرها — لم تنته عند هذا الحد ، فقد اندمجت فى المنازعات العنيفة التى غمرت إيطاليا فى ذلك العصر ، وهددوها بالقتل فى فلورنسا . ولكن المأثرة العظمى التى خلدها لها التاريخ هى شجاعتها فى تعنيف البابا الذى كان متردداً فى هجر المأوى الحصين الذى لجأ إليه فى قصره المنيف . ولقد حملقت بعينيها فى وجهه وقالت له : «أيها الآب الأعظم: إن قيامك بالواجب وطاعتك لمشيئة الله، تفرضان عليك أن تهجر هذه الحياة الجميلة الهانئة ، وتنطلق إلى رومية حيث تنتظرك الأخطار والوباء والعناء ، وحيث يكون هناء أفينون مجرد ذكرى من ذكريات الماضى» . هذه كلمات مثيرة تتفوه بها امرأة باسلة احتقرت نعومة الحياة وخلا قلبها من الخوف .

القرن الخامس عشر

[مجامع بيزا وكونستانس وبال — نهضة إحياء العلوم والآداب — سافونارولا — طرق الاصلاح] .

رأينا فى القرن السابق طلائع المصلحين تزحف إلى الميدان . وها نحن أولاء نشهد فى هذا القرن المجامعَ تنعقد ، الواحد إثر الآخر ، لرأب الانقسام فى السلطة البابوية ، ووضع قواعد الاصلاح وتنظيم الكنيسة . وكان الأساقفة فى طليعة الداعين إلى مجمع بيزا فى سنة ١٤٠٩ م ، وفى هذا المجمع وقف مندوب جامعة باريس وصرح على رؤوس الاشهاد بأن رأس الكنيسة هو المسيح ، وأن وحدتنا فيه وليست فى البابا ، وأن الكنيسة تستمد السلطة من المسيح ذاته لعقد هذا المجمع . ومع ذلك فقد انفرط عقد المجمع ، دون أن يصل إلى قرار معيّن ، وكان فى ذلك الحين ثلاثة من الباباوات يتنازعون السلطة . واستدعى مجمع آخر فى كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨ م) وكانت الدعوة هذه المرة باسم البابا واسم الامبراطور زيجزموند ملك بوهيميا . وحضره أساقفة من كل أنحاء الغرب المسيحى ، ومندوبون من مختلف الجامعات ، وعلماء الدين ، ورؤساء الأديرة . وقد أبان المؤتمرون غرض اجتماعهم برسالة أذاعوها فى سنة ١٤١٤ م جاء فيها : « إن أهدافنا هى تنصيب بابا صالح ، والحدّ من السلطة البابوية ، وإعادة حقوق الكنيسة البدائية الأولى ، ووضع الأحكام لتعيين الباباوات والكرادلة للحيلولة دون الانقسام فى المستقبل ، وإزالة المساوئ القائمة فى إدارة الكنيسة ونظمها » .

ويبدأ المجمع باصدار القرار التالى فى غيبة الباباوات والكرادلة : « انعقد هذا المجمع انعقاداً شرعياً بسلطان الروح القدس ، ممثلا للكنيسة الجامعة المجاهدة ،

التى تستمد سلطانها من المسيح ، و إنه لفرض على كل إنسان ، مهما كانت رتبته أو كرامته — حتى البابا نفسه — أن يطيع قراراته فى كل المسائل الخاصة بالدين ، و إزالة أسباب الانقسام الحالى ، و إصلاح الكنيسة ، رأسها وأعضائها» . ولتحقيق هذه الأهداف قرر المجمع عزل الباباوات الثلاثة المتنافسين ، ونصبوا بابا جديداً هو مارتن الخامس (١٤١٧ م) ، واعترف الجميع بصحة تعيين هذا البابا الجديد ، وزال التصدع والانقسام . وفى الوقت نفسه قرر المجمع أن تكون سلطة مجمع الأساقفة فوق سلطة البابا ، وقد أبطل هذا القرار السلطة الكنسية العليا التى وضعها جريجوريوس السابع فى يد فرد واحد ، وعاد الدستور الكنسى الارستقراطى القديم . وقد رفعت هذه القرارات إلى البابا مارتن الخامس ، وبعد ذلك بقليل انفرط عقد المجمع ، ولم ينفذ شىء منها . وأخفق المجمع فى كل جهود الاصلاح ، ولم يفلح إلا فى الحكم باحراق اثنين من الملاحدة الهراطقة أحدهما «هوس» الزعيم البوهيمى كما ذكرنا من قبل .

وكان من عوامل إخفاق المجمع التحاسد القومى بين أعضاء الدول ، لأن مندوبى إيطاليا وألمانيا وفرنسا وانكلترا لم يتفقوا فى الرأى لما بين دولهم من حزازات قومية ، وأيضاً تردد أكثر المندوبين وعدم إخلاصهم . فالأساقفة أرادوا إصلاح البابا والكرادلة ، ولكنهم ترددوا فى إصلاح العيوب والمساوئ اللاصقة بهم ، وخشى مندوبو الجامعات تزايد سلطان الأساقفة فوقفوا إلى جانب الكرادلة ضدهم . . . ضاعت الفرصة السانحة ومرة أخرى أخفق دعاة الاصلاح .

وبعد ذلك بقليل يدعو البابا مارتن إلى عقد مجمع آخر ، هذه المرة فى مدينة بال (١٤٣١ — ١٤٤٣م) . ولكن يشاء الحظ العاثر أن يموت هذا البابا ويخلفه آخر يقف موقف المعارضة ، ويقضى هو وحزبه من المتزمتين المعارضين على كل قرارات الاصلاح ، ويصدر البابا أمراً فى سنة ١٤٣٧م بنقل المجمع إلى مدينة «فرارا» وهناك يظلُّ منعقداً معطلا إلى أن يموت ، وتنتهى بذلك سلطة المجامع وحياتها ، ويتم وأد الاصلاح وهو طفل فى المهد ، وينقلب البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ — ١٤٦٤م) الذى كان فى مجمع بال نصيراً لحزب الاصلاح ، فيصير عدواً لدوداً ، ويهدد كلَّ من تحدثه نفسه باللجوء إلى فكرة المجامع العامة بحرمانه واتهامه بالزندقة والمروق عن الدين . ومرة أخرى تقبض البابوية على

أعنة السلطة الكنسية ، ويمسى الاصلاح أملا مكبوتاً يتردد بين جوانح الأحرار المجاهدين يترقب الساعة الملائمة للكفاح والجهاد .

***

ومنذ إخفاق مجمع بال إلى ظهور لوثر المصلح العظيم ، ظلت السلطة البابوية بأيدى رجال من الساسة الايطاليين ، كانوا مثقفين ثقافة عالمية رفيعة ، وأنصاراً للآداب والعلوم والفنون ، وقلما عُنوا بالشئون الكنسية الدينية . وكان بعضهم من عظماء البنائين ، فأعاد أحدهم بناء الفاتيكان ، وهدم أحدهم كنيسة القديس بطرس القديمة التى يرجع تاريخ أعمدتها إلى عهد قسطنطين وشرع فى تشييد أخرى على أنقاضها ، وكانوا كلهم تقريباً من رجال السياسة . وكانت الروح القومية قد دبّت الآن فى شعوب أوربا ، وأخذت تضعف فكرة السلطان الجامع المطلق الذى فرضه الباباوات والأباطرة فى القروف الوسطى، ويقوى الشعور القومى والوعى الوطنى والسلطان السياسى داخل الدولة الواحدة . من ثم نرى السلطات الملكية فى فرنسا وانكلترا وأسبانيا تؤيد استقلالها وتفرض سيادتها . ونرى السلطات البابوية من عهد بورجيا الكسندر فى سنة ١٤٩٢ م تشتبك فى دسائس لا نهاية لها ، وتبرم معاهدات ومحالفات مع ملوك ألمانيا وأسبانيا وفرنسا وانكلترا لتوطيد سلطانها ومكانتها السياسية فى إيطاليا . وقد أثار أحدهم حرباً كان هو فيها قائد الجيش ، ورئيس مجالس الحرب ، ومفتش الجيوش ، ومدير العمليات الحربية .

نهضة احياء العلوم والآداب :

وفى هذا القرن نشهد نهضة مشرقة تمهّد السبيل للاصلاح المنشود ، هى التى يسميها التاريخ «إحياء العلوم والآداب The Renaissance » . وكان عالم الغرب قد بهرته الكشوف الحديثة التى أعلنها المستكشفون البرتغاليون ، واستهوته أيضاً الكشوف العلمية الأدبية التى أعلنها فطاحل الأدب والعلم والفن . وكانت كتابات اليونان والرومان القديمة قد أهملت فى زوايا النسيان أو عبثت بها

الأيدى فبددتها . والآن يستيقظ الناس للبحث عنها وإحيائها ، وتشرق فى الأفق مرة أخرى الحضارات القديمة التى أخصبت العالم القديم يوماً . وفى هذه الأثناء تنهار الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وتسقط القسطنطينية بأيدى الأتراك ، فيفرُّ العلماء غرباً حاملين معهم كتبهم وثقافتهم القديمة ، وتتلهف أوربا كلها لتعلم اللغة اليونانية.

وقد دبّت هذه النهضة الجديدة فى إيطاليا أولا ، ومنها انتقلت إلى كل أنحاء أوربا . ولكن كثيرين ، فى تعبّدهم للآداب الوثنية القديمة ، يتحولون وثنيين فى آرائهم وآدابهم ، ويحتفظون بالمسيحية إسما ، ويغدون خطراً على الكنيسة . ولذلك نرى فى أواخر القرن الخامس عشر ، وخلال القرن السادس عشر، رجالا عظاء ينهضون لصدّ تيار الالحاد والعبث بالدين ، ويكافحون فى سبيل إصلاح الكنيسة ورجالها ونظمها حتى الدم . . .

سافونارولا :

ومن أشهر الذين أنجبهم هذا القرن المصلح العظيم « سافونارولا » . ولا بد لنا هنا من كلمة تمهيد قبل الخوض فى سيرة هذا الرجل :

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وزوال عرشها أنشأت قبائل القوط مملكة فى إيطاليا جعلت عاصمتها مدينة «رافنا» . على أن هذه المملكة لم تعمّر أكثر من قرن واحد، ذلك لأن قبائل الغزاة انحدرت من الشمال ومزقت شملها ومزجت القوط بسكان البلاد. وأشهر أولئك الغزاة هم اللومبارديون الذين أقاموا بالقسم الشمالى من إيطاليا ، فغدت البلاد تعرف باسمهم حتى اليوم (لومبارديا) . ولم تكن الرابطة السياسية بينهم قوية شأن سائر القبائل الجرمانية القديمة ، ولذلك انقسمت إيطاليا الشمالية إلى ولايات منفصلة أشبه بجمهوريات صغيرة مستقلة لكل منها مدينة حرة . أما القسم الأوسط من إيطاليا فكان خاضعاً للبابا ، وكانت مدينة «نابولى» عاصمة المملكة الجنوبية .

وكانت «فلورنسا» أشهر المدن الشمالية المستقلة ، وتقع على ضفاف نهر «الارنو» . وهى مسقط رأس «دانتى» الشاعر الخالد ، و «ميشيل أنجيلو» المثال

البارع ، وكلاهما من أشهر نوابغ التاريخ . وقد عاش بين زمنيهما «سافونارولا» (١٤٥٢ — ١٤٩٨م) وهو لا يقل شهرة عنهما .

ولن تقدر أن تستوعب هذه الصفحات سيرة مطولة لحياة ذلك الرجل ، التى كانت مأساة من مآسى القرن الخامس عشر . وقد صنفت الكاتبة السيدة جورج إليوت رواية « رومالا » وسطرت بين ثناياها أبلغ وصف لهذه المأساة :

وكان استقلال فلورنسا فى ذلك الزمن اسمياً فقط ، لأنها كانت فى الواقع تحت سلطة أسرة مستبدة عاتية هى أسرة «مديتشى» الشهيرة ، التى حكمت فلورنسا بالظلم والاستبداد ، مؤثرة مصالحها الخاصة ومصالح أنصارها على مصالح الشعب. فكان الفقراء والضعفاء يُسلبون ويُنهبون وليس من يردع . وكانت البلاد فى أدنى مستوى دينياً وأدبياً فى الوقت الذى ازدهرت فيه نهضة إحياء العلوم والآداب والفنون . وكانت المؤلفات الوثنية قد تمكنت من علوم الناس حتى تضعضع إيمانهم وآدابهم ، وفشا بينهم الكفر والفساد ، وفقدت الكنيسة برها وتقواها وفضائلها ، وتاجر الزعماء بالوظائف الدينية كما يتاجرون بالسلع فى الأسواق ، وكثيراً ما شغلها رجال عالميون كانوا قد أشربوا آداب الكتابات الوثنية وأفكارها ونظمها . والأسوأ من هذا كله أن تربع على كرسى البابوية فى رومية «الكسندر بورجيا» الذى ألمحنا إليه من قبل . وهو رجل لم يشرّف الكرسى الذى جلس عليه ، وكان من الذين دمغهم التاريخ بميسم الشرّ والفساد .

كان العالم أسود فى نظر الأتقياء القليلين ، أنصار الحق وأتباع الصلاح ، الذين عاشوا فى وسط ذلك الظلام الدامس — ومنهم الفتى سافونارولا أحد الرهبان الذين هربوا فى تلك الأيام من أباطيل العالم وشروره ولجأوا إلى حياة الرهبنة . وقد استاء هذا الفتى من شرور العالم ، ومن انحطاط الكنيسة التى كانت فى عينيه أشبه بفاجر متنكرة قد طردت سيدة نبيلة وحلت مكانها . فلم يسعه إلا أن يفتح فاه و يرفع صوته إلى عنان السماء شاكياً إليها فساد الكنيسة وظلم الدولة. فكان لمناداته وقع عظيم فى فلورنسا، حتى كانت الجماهير الحاشدة تزحم الكنيسة لسماع عظاته . وقد تاب كثيرون عن خطاياهم ، واستدعاه « لورنزو ده مدتشى » الحاكم المستبد وهو على فراش الموت واعترف له بخطاياه . وتنبأ

الراهب الشاب عن قضاء إلهى يوشك أن يحل بالمدينة ما لم تتب وترجع عن غيها، وقد صدقت نبوءته إذ غزا ملك فرنسا البلاد ، وانقلبت الأحوال وغدا اسم سافونارولا فيها أشهر من نار على علم ، حتى لقد اصطفاه الشعب ليفاوض ملك فرنسا فى أمر الصلح . واضطر الملك الغازى تحت تأثيره ، وقوة حجته ، وتهديده بأن أهل فلورنسا سيدفعون الظلم ويجاهدون فى سبيل حريتهم إلى آخر رجل — أن يخلى المدينة ويرحل عنها بجنده — وكان هذا إتماماً لنبوة ثانية نادى به الراهب الصالح ، فارتفع شأنه ، وعلا قدره ، فى أعين مواطنيه .

وإذ ينقضى عهد استبداد أسرة « المديتشى » تتجه إليه الأبصار كالزعيم المرموق والناصح المرتجى ، فيشير على الشعب أن يشيدوا المملكة على مبادئ جديدة من الحق والبر . وإذ يغدو صاحب النفوذ المطلق فى وطنه ، يستخدم كل مواهبه وسلطانه لخير الشعب والبلاد ، غير عابئ براحته وحياته ، حتى أنه لم يعتزل حياة الرهبنة بل ظل ينام فى غرفة حقيرة . وقد أطاعه الشعب وأصاخوا بأسماعهم إلى نصحه وإرشاده ، فأعادوا النظام الدستورى ، وألغوا المحاكم القانونية ، وقضوا على فساد الآداب ، وانتعشت المدينة بحياة دينية جديدة .

ولكن كان لهذا المصلح الشاب أعداء شأن كل المصلحين فى هذا العالم الذى كثيراً ما يحب الظلمة أكثر من النور . فقام الذين أصابهم الغرم من إصلاحه ، والذين أبغضوه بسبب جمودهم وعمى قلوبهم ، وأثاروا عليه دهماء المدينة وجهالها . فأنكر هؤلاء خدمته لبلادهم ، وتكريس نفسه للخير العام ، وتآمروا على إسقاطه . وقد سنحت لهم الفرصة عاجلا ، فان سافونارولا لم يقنع باصلاح المدينة ، بل كان يحلم باصلاح البابوية ، فراح يشهر بالبابا الكسندر ، ويطلع الناس على معايبه ، ويدعو الملوك المسيحيين إلى عقد مؤتمر عام للبحث فى القضية . ولكن قوة العالم صدمته وبطشت به فحرمه البابا الكسندر ، وساعد أعداءه فقبضوا عليه وعذبوه وأهانوه ، وأخيراً علقوه فى الساحة العامة بفلورنسا وأحرقوا جسده بالنار .

وهكذا يستشهد الرجل المجاهد فى سبيل الحق ، وكم للحق من شهداء فى تاريخ البشر .

وبين سافونارولا وبين يوحنا المعمدان شبه عظيم ، فان كلاً منهما شهد للحق ، وأعاد إلى الأمة آدابها المهدورة ، ووقف فى وجه حاكم ظالم عات ، وأشهر فساد الكنيسة ورياء رجالها ، وأخيراً سقط فريسة بين مخالب الكهنة المفسدين ، ودعاة الاثم الذين يفضحهم عادة الشاهد الأمين .

طرق الاصلاح :

من ثم نرى المصلحين يحاولون فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر إصلاح الكنيسة بطرق ثلاث :

فبعضهم عاهد نفسه على أن يحيا حياة التضحية والايثار والتأثير فى الآخرين بمُثُلهم الصالحة وتعاليمهم السامية. ومن هؤلاء جماعة « الاخوان » فى هولندا الذين جعلوا كل شىء بينهم مشتركاً ، وانصرفوا إلى الصلاة والدرس والأعمال النافعة . ومنهم توما الكمبيزى الذى وضع كتاباً من أشهر الكتب المسيحية هو «الاقتداء بالمسيح » ، وكان هو أحد جماعة «الاخوان» وان يكن صار فيما بعد راهباً . ومنهم السيدة النبيلة «كاترين ده سينّ» التى انعكست حياتها الجليلة وتعاليمها الروحية فألقت وشاحاً من النور على كثيرين ، وحملت البابا نفسه على أن يضحى بحياة الدعة والاستكانة ويعود إلى رومية حيث الكفاح والجلاد فى سبيل الواجب .

وفريق آخر تهجم على مساوئ العصر وشروره علناً ، وكثيرون منهم استحدثوا نظريات ونظماً جديدة تشرح مطالب الكنيسة والدولة ، وتحدّ من سلطة البابا أو تنكرها . ومن هؤلاء «دانتى» (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) فى إيطاليا ، و «جون ويكلف» (١٣٢٤—١٣٨٤م) فى بريطانيا ، و «جون هوس» (١٣٦٩ — ١٤١٥ م) فى بوهيميا . وقد أحرق هذا الأخير حياً بعد أن اتهم بالالحاد والهرطقة . وكان أمثال هؤلاء رجالا صالحين ، وأبطالا فى شعوبهم ، وشهداء فى سبيل الاصلاح .

وطائفة ثالثة من المصلحين تشهّر بمساوئ العصر علناً ولكنها تبقى موالية مخلصة للسلطة البابوية ولنظم الكنيسة القائمة . وبين هؤلاء « ريجو » رئيس

أساقفة روان بفرنسا ، الذى قام بزيارة الكنائس والأديرة وسجل فى كتابه ما شهد من جهل رجال الدين وفسادهم ، ومن إباحية الرهبان وحنثهم بالنذور التى قطعوها على أنفسهم .

وفى القرن الخامس عشر تفاقمت المساوئ فى الكنيسة وفى الدولة ، واشتدت المعارضة للبابوية كما رأينا ، واكتسب الاصلاح أنصاراً ، وكان لنهضة إحياء العلوم والآداب آثار من الخير والشر معاً . وبحلول القرن السادس عشر يشهد مسرح التاريخ طائفة مختارة من عظماء المصلحين مثل إراسموس ، ولوثر ، وكالفن ، وأغناطيوس لويولا ، وفرانسز سافير .

القرن السادس عشر

[النهضة العلمية والاصلاح — البابوية فى هذا القرن — لوثر — كالفن — الاصلاح فى الكنيسة الكاثوليكية — أغناطيوس لويولا — فرانسز سافير — اليسوعيون — مجمع ترانت] .

فى بكور القرن السادس عشر كنت تسمع فى كل أرجاء أوربا صيحة داوية ترن نغماتها بألحان الابتهاج والظفر . وكان مبعث تلك الصيحة الظافرة ما أسماه التاريخ « عصر إحياء العلوم والآداب والفنون » . فمرة أخرى تجلّى العالم الكلاسيكى العريق فى كل جماله وروائه أمام أنظار الشباب الطامح . ومرة أخرى بعثت فلسفة أرسطو وأفلاطون وعلوم وفنون الجهابذة الأقدمين بما اقترن بها من ألمعية عجيبة وعقلية خالدة . ومرة أخرى تشرق أنوار هوميروس شاعر الألياذة القديم .

كان عصراً ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون ، واشرأبت فيه الأعناق للتطلع إلى كل جميل رائع ، وبرزت روح قومية على غرار الأوضاع النبيلة التى غذتها المثُل السياسية العليا فى العالم القديم ، فتوارت أنظمة القرون الوسطى الاستبدادية .

كان عصراً تمردت فيه الأرواح الناشطة على حياة الزهد والتقشف التى قبعت دهوراً فى خبايا الأديرة والكهوف ، وألقت رداءً بهيجاً لامعاً على الحياة الناشطة العاملة .

صدحت الأنغام والألحان بانجيل جديد — هو إنجيل الثقافة — تهلّ طلعته فى إيطاليا ليملأ جوانب الغرب كله ، وتخاذلت آراء ونظريات القرون الوسطى أمام روح العالم القديم الذى بُعث بعد هجوع ، وأقبل عصر جديد ملئ بالاحتمالات الكثيرة .

أكان هذا هو البعث الجديد الذى تلقفه القرن الخامس عشر فى لهفة وتوق؟ أكان هذا هو الانجيل الجديد الذى حلمت به القرون الوسطى وترقبته كما يترقب الشتاء إيراق الربيع الناضر ؟

كلا ! إن الذى تاقت إليه القرون الوسطى ، لم يكن إحياءً ، بل إصلاحاً ، لم يكن تجديد العلوم والآداب والفنون ، بل تجديد الكنيسة — رأسها وأعضائها . لم يكن كشفاً جديداً لروائع الأدب القديم ، بل رسالة حيّة تعزّى الفقراء ، وتدخل الغبطة إلى نفوس الخاطئين ، وتحيى موات الجنس البشرى كله . . .

كان الهدف الذى رمت إليه قوى القرن الخامس عشر التى استيقظت وتكتلت فى نهضة متحدة — الاحياء الأخلاقى الروحى بتجديد حياة الكنيسة . وكانت الكنيسة قد امتزجت بالعالم ، وفقد الملح مذاقه ، وديست مطالب المسيحية الحقة تحت مواطئ أقدام الذين دُعوا ليكونوا رسل الدين ، ودعاة الحق والفضيلة ، ونماذج صالحة للرعية .

ولقد رأينا ما آل إليه أمر مجامع الاصلاح فى كونستانس وبال التى انعقدت فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وشهدنا رغبات إصلاحية قوية تكاد تكون كطوفان جارف يريد أن يحمل أمامه الغرب كله ، ويكتسح البابوية بكل ما اقترن بها من مساوئ . وكانت ثمة آمال ومساع ، ولكنها خابت وحبطت .

ولم تفلح النهضة العلمية فى إصلاح حال الكنيسة لأنها كانت نهضة وثنية فى قلبها وجوهرها ، ورضيت أن تخضع فى الظاهر لسلطة الكنيسة لأنها لم تكن تُعنى بالحق المسيحى ، وعُنيت فقط بالحق الانسانى المجرد . ولم يكن إحياء العلوم والآداب إحياءً للأخلاق ، فلقد ظهر فى المدن والدويلات الايطالية طغاة أشرار متجبرون ، احتقروا كل شرائع الآداب والأخلاق . وما شهد التاريخ من قبل مجتمعاً تلمعت ثقافته الرفيعة ، وأخصبت مواهبه وملكاته ، وتجلت فيه قوى الابتكار التى أبدعت روائع الفن — ومع ذلك نخر فيه الفساد والتعفن الأخلاقى — نقول ما شهد التاريخ مجتمعاً كذلك المجتمع الايطالى فى النصف الآخير من القرن الخامس عشر . وحسبه أن يكون المجتمع الذى أنجب قيصر بورجيا (١) الذى

---

(١) هو ابن الكسندر بورجيا أحد باباوات ذلك العصر .

كان مثله ومثاله، وغوله وهوله ، العصر الذى كتب فيه ميكافيللى كتابه «الأمير» الذى مجد فيه أنانية الأمراء القاسية الباردة الخليعة . وحتى حين ننظر إلى صور العذراء والقديسين التى أبدعها فنانو ذلك العصر ، وإلى روائع رفائيل الفنان العظيم ، نحسُّ على الرغم من جمالها وروعتها وسمّوها بأنها مبتكرات إنسانية خلت من الروحانية .

وفى تلك الفترة تولى شئون الكنيسة رجال أمثال إسكندر السادس (١٤٩٢ — ١٥٠٣م) ، ويوليوس الثانى (١٥٠٣ — ١٥١٣م) ، وليون العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١م) . وهؤلاء الباباوات ، ولو أنهم لم يخلوا من بعض المحاسن ، كانوا رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ، فهم يمثلون العصر الذى عاشوا فيه كل التمثيل ، ولقد اتجه الناس والثقافة نحو أمور الدنيا ، فصار هؤلاء الباباوات رجال دنيا أيضاً ، ومثلوا بذلك عصرهم . فاسكندر السادس من آل بورجيا الأسبانيين كان رجل دنيا بمعنى الكلمة — والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندافع عن مسلكه ، كما أن المؤرخين — حتى الذين كتبوا منهم تحت إشراف الكنيسة — لم يستطيعوا تسويغ أعماله ومسلكه فى سياسته وفى شخصه،على أنه لا يستطيع أحد أيضاً أن يتهمه بأنه كان يهمل واجباته الدينية . وكان على الغالب محبوباً من الذين يتصلون به . ففى قامته الطويلة نوع من المهابة ، وكان يقيم الحفلات الباهرة كأى ملك من الملوك ، وكان لا يتورع عن إزالة أى خصم سياسى من طريقه ، بالحيلة أحياناً وبالعنف أحياناً كثيرة .

أما يوليوس الثانى فكان من أعظم الباباوات الذين جلسوا على عرش القديس بطرس ، وهو الذى عمل لاعادة بناء تلك الكنيسة العظيمة بروميه التى تعدُّ أعجوبة الكنائس جميعاً ، وهو الذى استخدم أعاظم رجال الفن من أمثال رفائيل وميشيل أنجلو . وكان رجلا قليل الشهوات لا يؤخذ عليه شىء فى مسلكه أيام توليه عرش البابوية ، ومع ذلك كان رجل دنيا ، فهو يحبّ أن يسيّر الجيوش على خصومه ، ويتولى قيادته بنفسه،ويحاصر المدن ويلبس أحياناً عدة القتال .

أما ثالثهم ليون العاشر فهو من آل مديتشى ، وكان يشجع العلوم والفنون ويقال إنه أولع بكتب الأقدمين حتى كاد يفضل أساطير الوثنية على حقائق

المسيحية . وكان رجلا شديد الحيلة مع خصومه متقلباً فى سياسته لا يثبت على وعد أو عهد .

تلك صور الباباوات الذين عاصروا النهضة العلمية فى كلمة. فهم رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ، وهم رجال يمثلون عصرهم حق التمثيل .

***

لم تفلح النهضة العلمية فى إحياء الكنيسة ، ولكن الاصلاح يبزغ نوره من ناحية ، ما كان ينتظر أن يبزغ منها نور — من خلايا الأديرة . فالرهبان هم الذين خلقوا كنيسة القرون الوسطى بالنهضة التى بدأت فى دير كلونى ، وراهب هو الذى يحطّم بيديه هذه الكنيسة .

وكان الرهبان قد صاروا طبقة ممقوتة فى الكنيسة ، فهم أرادوا الفرار من العالم وتركوا كل شىء. ولكن العالم الشرير الأثيم الذى حملوه فى قلوبهم تعقّبهم إلى عزلة البرية ومناسك الزهد ، وأبتلعت الرهبانية فى العالمية الدنيوية التى رغبت فى الافلات منها . على أنه إذا صدق هذا القول على الكثرة ، فقد كان هناك قلة تمسكت بالبر والصلاح ، والرهبانية السليمة التى جاهدت فى سبيل الخلاص بنبذ العالم ولذاته وأطايبه ، وبأساليب من التقشف والزهد ، ألحت الآن على الأخيار الصالحين بأن الانسان لن يقدر أن يخلص نفسه ، وان أعمال الناموس لن تبرر بشراً ، وان كل الجهود البشرية لن تحول غضب الله العادل القدوس الذى يبغض الخطية ويفتقد المذنبين إلى الجيل الثالث والرابع . . .

تلك كانت النظرية الدينية الجديدة التى ألحت على الراهب لوثر . وكان قد أحس بثقل الناموس الالهى على ضميره ، وعاش فترة من الزمن معذّباً نفساً وجسداً من جراء مصارعته الروحية العنيفة فى سبيل خلاصه . وامتلأت نفسه بهيام سمائى ردّد فيه نغمة واحدة محببة « البار بالايمان يحيا » . فالانسان يتبرر لا بأعماله ، ولا بتعذيب نفسه ، ولا بعيوفه عن العالم ، بل بالايمان فقط ، بالنعمة الرحيمة الوفيرة التى لا ينضب معينها :

لوثر :

تلك كانت النوازع الداخلية الروحية التى حملت لوثر على أن يتمرد على حياة الرهبنة وتضيق بها نفسه كل الضيق ، أما العوامل الخارجية التى ساقته إلى الخروج عن الطاعة فهى نظام بيع «الغفرانات» الذى جرت عليه الكنيسة فى القرون الوسطى .

وقد آمن الكاثوليك أن كل أعمال الشر تنال جزاءها الوفاق ، إما فى هذه الحياة أو فى تلك الفترة بعد الموت التى يسمونها (المطهر) والتى تتأهب فيها النفس للسعادة الخالدة . وقد آمنوا أن البابا مستطيع أن يقصّر أجل (المطهر) بمنحه الغفران للأحياء أو الأموات . وكانت تلك «الغفرانات» تباع بالمال على أن يندم الخاطئون على ذنوبهم وينيبون عنها بالتوبة . وكانت تمنح للفقراء مجاناً . على أن وكلاء البابوية قد أساءوا استخدام هذه السلطة ، واتخذوا منها وسيلة لابتزاز الأموال . والأدهى أنها شجعت أفراد الشعب على التخلص من ذنوبهم بأى ثمن ، ناسين أن هذه الذنوب تجرح قلب الله وتخجل الكنيسة . وقد ناضل كثيرون من أخيار الكاثوليك ضد هذه المساوئ ، وسفّهوا علناً تصرفات بائعى «الغفرانات» .

وفى سنة ١٥١٧ م أصدر البابا ليون العاشر غفراناً عاماً شاملا للعالم المسيحى كله ، وكان الغرض منه الحصول على المال اللازم لاتمام بناء كنيسة القديس بطرس فى رومية . وكان رئيس الأساقفة «ألبرت مينز» وكيلا عن البابا فى بيع «الغفرانات» فى بعض أجزاء الامبراطورية الألمانية يومئذ . ولكن قيل ان نصف الأموال التى جمعها من أبرشيته اغتصبها لنفسه وسدد بها بعض ديونه التى كان قد اقترضها لصدرته . ومن ثم نرى هذا النظام الذى وضعته القرون الوسطى يتحوّل الآن إلى تجارة حقيرة ، وكان المفروض — نظرياً — أن يمنح الغفران للتائبين النادمين فقط .

وكان لوثر فى ذلك الوقت راهباً حسب رتبة أوغسطينوس ، وأستاذاً لعلوم الدين وراعياً لكنيسة ويتنبرج . وكان يرى التائبين الذين يعترفون له بخطاياهم ، والذين اشترط عليهم الندم والتوبة وانسحاق القلب ، يقدمون له

صكوك غفرانهم بديلا ، فأحس أنه قد أهين فى خدمته وأقدس واجباته . وكان قد ألهم فى مصارعته الروحية وبوحى رئيسه ونفر من زملائه أن الايمان هو الشرط الكافى الوافى للتبرير ، وقد اشمأزت طبيعته الدينية من تدنيس هذه الظواهر الروحية الداخلية ، ومن « بيع النعمة بالذهب » . وفى ضرام حماسه علق على باب كنيسة ويتنبرج بحوثه الخمسة والتسعين عن منح « الغفران » . وقد كتبها باللاتينية ، وحسب عادة ذلك الزمن تحدّى فيها الخصوم ودعاهم إلى مجادلة علنية . وكانت مكتوبة بأسلوب وبصياغة تثير تفكير الخاصة من العلماء دون عامة الشعب الألمانى كله . وقال الراهب الأستاذ ان غفران الخطايا يُمنح لكل مسيحى يتوب ويندم بدون حاجة إلى صك ، وإن غفران البابا ليس إلا إعلاناً للغفران الالٰهى ،وان إنجيل نعمة الله يأبى هذه التصرفات المخزية التى يقترفها تجار منَح الغفران .

ولم يكن لوثر يقصد مهاجمة البابا أو نظام الكنيسة ، ولكنه أحس أن الحبر الأعظم — حين يقف على المخازى التى يقترفها وكلاؤه فى إعنات الناس — يؤثر أن تهدم كنيسة بطرس وتحرق بالنار على أن تبنى من جلود الشعب وعظامه . أجل ، أحس الراهب أنه يدافع عن وجهة نظر البابا ، ويفضح المتاجرين الآثمين ، ولكن المعركة التى اضطر إلى خوضها فى سبيل عقيدته ، ساقته سوقاً إلى الشطط الذى آل إليه أمره فيما بعد ، واضطر إلى أن يعلن جهرة أن الايمان الذى استقاه من الأسفار المقدسة ، والذى بات مصدر قوته وحياته ، يناقض — ليس العقائد التى اندست فى خلال القرون الوسطى وحسب — بل نظام الكنيسة الحالى كله . على أنه مع ذلك ارتضى — بناء على رجاء القاصد البابوى فى ألمانيا — أن يصمت بشرط أن يصمت خصومه أيضاً . على أن هؤلاء لم يبرّوا بوعدهم وراموا إقامة مساجلة علنية فى ليبزج ، فأحس لوثر أنه غدا فى حلّ من تعهده ، وراح يقارع خصومه وجهاً لوجه ، واضطر أن يصرح على رءوس الاشهاد أن سلطة البابوية ليست ذات مصدر إلٰهى ، وأنها من مبتكرات تطورات التاريخ أشبه بسلطة الامبراطور الألمانى ، وان الاعتراف بهذه السلطة ليس من مقتضيات الخلاص .

اتخذ الخطوة الحاسمة . وبعد أن رفض المثول بين يدى البابا الذى استدعاه

إلى رومية ، وبعد أن جاهر فى مناظرة خصومه بأنه لا يؤمن بالسلطة البابوية ، وبعد أن نشر عقائد إيمان الكنيسة باللغة الألمانية لكى يفهمها الشعب — بعد كل هذا لم يكن بد من اللجوء إلى الشعب الألمانى ذاته بألفاظ تستعرّ بنار الحماس ، منادياً إياه أن يطالب بحرية الفرد فى الدين .

والذى هدف إليه لوثر الآن هو إنشاء كنيسة ألمانية قومية مستقلة ، وحرية الأفراد فى كثير من الشئون الدينية . فقد أعلن مثلا أن للرجال والنساء أن يكونوا رهباناً وراهبات إذا شاءوا ، ولكن من حقهم أيضاً أن يهجروا الأديرة إذا لم تطمئن نفوسهم إلى هذه الحياة . وأصرّ على أن خلاص الناس رهين بالايمان بالله ، لا بالأعمال الصالحة التى يأتونها ، وقال إن صلوات البشر وأعمالهم ينبغى أن تصدر عن وازع محبة الله والاعتراف بفضله ، وهو المشفق الرحوم الغافر الذنوب . ولم يقبل أن تكون الصلوات والأعمال الصالحة بمثابة « رصيد حساب روحى فى البنك » يستعين به المرء على نيل الخلاص .

ومما علّم به أن حياة الرهبان والراهبات ليست أفضل ولا أسمى من الذين يخدمون الله بأعمالهم اليومية فى معترك الحياة ، وآمن بأن الكهنة رجال عاديون أختيروا لتمثيل الشعب وقيادته فى العبادة ، وليسوا أشخاصاً خلعت عليهم الكنيسة نفوذاً وخواص لن تنزع منهم .

وكان من جرّاء هذا كله أن حرمه البابا وأمر باحراق كل كتاباته . فما كان من لوثر إلا أن أحرق كتاب «قانون الكنيسة» ، واثنى طلابه ومريدوه ، فى انفعال مستبد ، يحرقون الرسالة البابوية ومؤلفات خصوم زعيمهم — فى «شعليلة» كبيرة بمدينة ويتنبرج .

وعند ذاك كان أمراء الألمان السبعة الذين حقّ لهم اختيار الامبراطور قد بايعوا تشارلس الخامس ملكاً عليهم ، فاستدعى لوثر إليه ، ليجهر بعقائده أمام الجمعية الوطنية (مجلس النواب) فى ورمس . فانطلق مع نفر من أنصاره فى عربة مغطاة ، وأمامهم المنادى الامبراطورى ، وقد رفع علمه الأصفر ذا النسر المزدوج دلالة على أنهم فى حمى الامبراطور . وكان لوثر يخطب الناس فى كل محاطّ الطريق ، فأثار حماس الجماهير الصاخبة . واندفع الناس من بيوتهم يحيونه وهو داخل المدينة ، وفى أثناء انعقاد مجلس النواب كتبت على الجدران

عبـارات تهديد تنبئ أن ثورة مسلحة ستنشب إذا أصـاب لوثر مكروه .

و إذ يقف الراهب أمام الامبراطور فى اليوم التالى ، يقرر فى غير مواربة أنه لا يتقيد ، لا بأوامر البابا ، ولا بقرارات المجامع العامة ، وهو لا يخضع إلا لضميره وتعاليم الأسفار المقدسة، وختم كلامه قائلا : «على هذا عاهدت نفسى ، وسأكون على العهد مقيما . أعاننى الله » .

ثم عـاد لوثر إلى مقرّه . وكان الامبراطور تشـارلس الخامس يلتمس فى ذلك الوقت فضلا من البابا ، فعزل الأمراء الألمان الذين انتصروا للراهب المصلح ، ثم استدعى الباقين وأعلن فيهم أن لوثر خارج على القانون . كان هذا ولمّا تمض عشرون يوماً على مغادرته المدينة .

على أن أنصاره كانوا متأهبين . وبينما كان فى طريقه ، خرجت كوكبة من الخيّالة من غابة كثيفة وأوقفوا العربة وحملوه معهم . وهناك فى قلعة ورتبورج الكبرى أخفاه أمير ساكسونى ووضعه تحت حمايته . وقد بقى مدة متخفياً فى بذلة فارس فقير . ومن مخبأه كتب الرسائل إلى أصدقائه وأنصاره ، وهناك شرع أيضاً فى ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الألمانية بعبارة سلسة سهلة الفهم ، وترجم فيما بعد — بمعونة علماء آخرين — أسفار العهد القديم .

وكانت ألمانيا فى ذلك الحين على حال من الفوضى والاضطراب . فالامبراطور كان أكثر الوقت متغيباً فى أملاكه ، وكاد يكون كل أمير مستقلا فى إمارته ، أما الفلاحون المكدودون والفرسان الفقراء فقـد انطوت نفوسهم على التمرد والمرارة ، وعضد الناس لوثر مسوقين إلى ذلك بعوامل متباينة ، فبعضهم ناصره لكراهيتهم الضرائب التى فرضها البابا ورغبتهم فى أن يروا ألمانيا الحرة المتحدة . والبعض الآخر كالفلاحين توسموا أن تكون مناداته بالحرية المسيحية وسـيلة لاعتاقهم من أغلال العبودية ، وآخرون راموا أن يهدموا كل الأشياء فى النظم القديمة ، وخلق عالم جديد .

أُغلقت الجامعة فى ويتنبرج ، وعطلت العبادة فى الكنيسة ، وأُضطهد الرهبان والراهبـات ، وبات لوثر فى موقف حرج خانق . فهـو لم يرد أن يحطم كل العادات القديمة ، ولا أن يفرض تعاليمه على الشعب فرضاً . وخشى نشوب ثورة اجتماعية تذهب بكل جهوده وتعاليمه الهادئة . فاضطر أن يخرج من مخبأه ،

ويهدّئ ثائرة الشعب فى ويتنبرج ، حتى عادت الأمور إلى مجاريها ، وجاهد لاخماد ثورة الفلاحين ، على أنه حينما فشل فى ذلك واستعرّت الثورة ، وهاجم الثائرون القلاع والأديرة ، حرّض الأمراء على قتلهم وإخماد ثورتهم فى غير هوادة ولا رحمة . ولكم ندم لوثر فيما بعد على هذا التحريض ، وأنب نفسه التى هفَت هذه الهفوة ،ولسانه الذى نبا هذه النبوات الجارحة. وما وثق به يوماً بعد هذا ، الفقراء وعامة الشعب .

غُرست الآراء التى أذاعها لوثر فى رقاع كثيرة من ألمانيا ، وراح هو بقية حياته يعلم ، وينشر دعوته ، وينظم الكنيسة الجديدة ، ويتعهد حياتها وثقافتها . وقد تزوج من « كاترين فون بورا » التى كانت يوماً راهبة ، وعاش وإياها حياة هنيئة مع أطفالها فى البناء الذى كان قبلاً ديراً له فى ويتنبرج . وهناك كتب المؤلفات الدينية ونظم الترانيم الشجية التى ما يزال كثير منها باقياً حتى اليوم يرتله المسيحيون فى عبادتهم .

ولما فشا الطاعون فى ويتنبرج ، بقى لوثر بين شعبه خادماً مستبسلا ، حتى انتقل إلى الحياة الأخرى بنفس راضية هانئة سنة ١٥٤٦ م ، بطلا من أبطال شعبه وأمته .

هنا نشأة الكنيسة البروتستانتية فى التاريخ ، التى كانت وليدة عهد الاصلاح فى القرن السادس عشر . وكان لها أثران بارزان فى التاريخ : فهى قد أفسحت المجال لاصلاح كثير من العيوب والمساوئ التى انسربت إلى الكنيسة فى عصور القرون الوسطى المظلمة ، ومهّدت الطريق للحرية المسيحية ، فاستطاع الناس أن يناقشوا ويجادلوا ويفصحوا عن آرائهم فيما ينبغى أن يكون عليه نظام الكنيسة وإدارتها وتعاليمها ، وفتحت صفحات الكتاب المقدس ليقرأها كل الناس ويفهموها فى غير تضييق ولا إعنات . وكان لهذه الحرية فى البحث والدرس والتفكير آثارها اللاحقة فى انقسام البروتستانتية شيعاً وطوائف .

والأثر الثانى الذى طبعته هذه الثورة الاصلاحية على صفحات التاريخ المسيحى هو أنها شطرت الكنيسة الغربية شطرين . وما انقضى طويل زمن حتى ساءت العلاقات بين الفريقين واستراب أحدهما فى نوايا الآخر وإخلاصه ، وتمكنت القطيعة والنفرة بينهما ، وغرقت أوربا فى حروب دينية اتسعت بها هوة

الكراهية وسوء التفاهم ، واكتسحتها إلى حين موجة من التعصب الدينى .

وفى كثير من البلدان البروتستانتية ، لم تخلع الكنيسة نير البابوية، إلا لتحنى رأسها لسلطان الحكام المدنيين الذين أخضعوها لنزعاتهم الاستبدادية .

على أنه بعد موت لوثر نهض شخص اخر ليخلق نظاماً تؤكد به الكنيسة حقها المطلق فى الحرية والاستقلال عن الدولة .

جون كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤ م) :

وكان جون كالفن ابن كاثوليكى فرنسى من السراة المثقفين . وقد أراد الوالد أن يكون ولده كاهناً ، ولكنه عدل بعد ذلك ليكون محامياً . وفيما هو يدرس القانون تعرّف إلى اثنين من علماء البروتستانت كان أحدهما يترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية ، وكان الآخر يدرس العهد الجديد فى اليونانية . ويفضل تأثيرهما عليه راح يدرس الكتاب المقدس واقتنع بعقائد البروتستانتية .

وكان كالفن مفكراً نابهاً ومنظماً موهوباً ، فصار فى قليل من الزمن زعيم الجماعة البروتستانتية فى باريس . ولما هبّت عاصفة الاضطهاد فرّ إلى سويسرا لكى تواتيه الفرصة للدفاع عن قضيته ومحاولة إقناع ملك فرنسا . وكان الملك يحب علماء البروتستانت ، ولكنه كان كاثوليكياً خاضعاً لنفوذ أمه المتعصبة ومشيريها الذين أدخلوا فى روعه أن البروتستانت مصابون بجنون التعصب ، وخوارج على النظام والقانون .

وكان كالفن أول من كتب تفسيراً ودفاعاً عن العقائد الجديدة ، كتبه أولا باللغة اللاتينية الفصحى ، ثم نقله إلى الفرنسية بأسلوب رائع ، وأهداه أولا إلى ملك فرنسا ، ثم نشره بين الناس ، فكان لتفكيره الرائق وعلمه الواسع أثر عميق فى نفوس قارئيه .

وفى السنة التى صدر فيها هذا الكتاب (١٥٣٦ م) كانت مدينة جنيف بسويسرا قد أسست أول كنيسة مصلحة ، ونصبت عليها راعياً فرنسياً . فلما بلغ الراعى نبأ قدوم كالفن ، بحث عنه وألح عليه أن يبقى فى المدينة ويتخذها مركزاً

لدعوته وجهاده. ومن ثم صارت مدينة جنيف السويسرية منارة البروتستانتية، منها وزّع الزعيم كالفن أنوار الالهام على أنصاره ومريديه فى كل أنحاء أوربا.

وقد انطوت حياة كالفن على عقيدتين عظيمتين: إحداهما عظمة الله وجلاله؛ والثانية حياة البرّ والتقى والصلاح بين المنتسبين للكنيسة المسيحية. ومدى الأجيال تمسكت الكنيسة المسيحية بعقيدتين يخيّل إلينا أن إحداهما تناقض الأخرى، ولكنهما فى الواقع متلازمتان. تقول الأولى ان الله يعرف كل شىء يحدث وهو يريده أو يسمح به. وتقول الثانية إننا أحرار فى الارادة ومسئولون حينما نختار الخير أو الشر. وقد شدّد كالفن على الحقيقة الأولى دون الثانية. ولئن يكن قد علم بأن الله سبق فقدّر لكل إنسان مصيره، صالحاً كان أو شريراً (عقيدة القضاء والقدر)، إلا أنه علم أيضاً بأن الله وحده هو العليم بذلك المصير. لذلك يجب ألاّ ندين أحداً، بل أن نخدم الله ونطيعه.

ووضع للكنيسة نظاماً مصلحاً، وجارى لوثر فى قوله بان العظة هى أهم عنصر فى العبادة المسيحية، ولكنه أصرّ أيضاً على إجراء «الشركة المقدسة» كل أحد فى خشوع ووقار. على أن يمتنع عنها الآثمون والمتهاملون، وهؤلاء ينبغى أن يعاقبوا بأيدى سلطات المدينة — بناء على أمر الكنيسة — حتى يصلحوا سيرتهم وحياتهم.

كانت أمام كالفن مهمة عسيرة شاقة. فقد كانت مدينة جنيف فى ذلك العصر حافلة بالآثام الرهيبة — من سكر وعربدة وقمار وخيانة وفساد — ولكن مبادئ كنيسة كالفن كانت صارمة قاسية، أبت على الناس حتى بعض الملاذ البريئة، وتسلطت على كل نواحى حياتهم تفحصها وتمحّصها. فلا عجب أن يتمرد المواطنون بعد ثلاث سنوات، وكان على كالفن أن يغادر المدينة ليستقر فترة من الزمن فى ستراسبورج، حيث تزوج وصار راعياً للكنيسة الفرنسية هناك، وبعد سنتين ندمت جنيف على صنيعها، وتوسلت إلى كالفن أن يعود إليها.

وبعودته صارت جنيف موطن الثقافة البروتستانتية، فيها أنشأ كلية للدين برئاسة صديقه ثيودور بيزا، وفيها كتب وحاضر وعلم، ومنها وزع الأسفار المقدسة، وبعث برسائل النصح والتشجيع لأنصاره فى انكلترا وفرنسا وهولندا وبولندا. وكان حكمه فى المدينة صارماً قاسياً، وكثيراً ما أطلق خصومه

الرصاص تحت نوافذ بيته ليلا ، وكثيراً ما سلطوا عليه الكلاب وهو سائر فى الطريق نهاراً . ولكن شيئاً ما لم يثنه عن عزمه ، وما لانت قناته .

ومع صرامته وتزمته فى الحياة ، كان رقيقاً أنيساً ، يلعب مع أصدقائه فى ساعات الفراغ ، ويداعب الأطفال الصغار ، ويكتب الرسائل الروحية لتعزية المحزونين المنكوبين حتى من خصومه . ومات وهو يستغفر الله عن نوبات الغضب التى كثيراً ما ساقته إلى العنف والشدة .

وإلى جنيف لجأ الهاربون اللاجئون من كل بلدان أوربا ، وبينهم «جون نوكس» الذى قدر له فيما بعد أن ينشئ الكنيسة المصلحة فى اسكوتلندا . هؤلاء كلهم حملوا معهم إلى بلادهم عقائد كالفن الجديدة ونظامه الجديد فى إدارة الكنيسة . وقد علمهم أن يحترموا الدولة على أن تكون خادمة للكنيسة صاحبة الفضل الأول ، التى يحق لها أكبر الولاء ، والتى فى سبيل كرامتها وحريتها يهون الموت والبلاء . وقد علمهم أيضاً أن يخافوا الله دون سواه ، وأن يحطّموا كل المظالم باسمه العظم . وفى أحيان جعلت مبادئ كالفن الناس قساة متزمتين ، ولكنها جعلتهم دائماً أقوياء أمناء ، أنصاراً للحرية التى بنوا بها حضارة مسيحية من نوع جديد فى أوربا وأميركا .

الاصلاح فى الكنيسة الكاثوليكية :

بزغت فى كنيسة القرون الوسطى قوى روحية لم يستطع القرن السادس عشر أن يدسرها ، وان تكن هزات الاصلاح قد أفلحت فى وقفها فقط . وما أن تحركت فورات الاصلاح البروتستانتى حتى استيقظت القوى الهاجعة فى الكنيسة الكاثوليكية ، وراحت هى الأخرى تطالب بالاصلاح فى اتجاه آخر غير الاتجاه الذى سار فيه لوثر وكالفن وأنصارهما . وبينما ملأت حوادث الاصلاح البروتستانتى النصف الأول من القرن السادس عشر ، نرانا الآن أمام إصلاح كاثوليكى يبدأ من منتصف هذا القرن ، فيوقظ القوات الروحية الكامنة فى كنيسة القرون الوسطى ، ويساير البروتستانتية فى إحيائها وتجديدها ، ويخلق الكنيسة الكاثوليكية الحديثة .

وقد تم الاصلاح الكاثوليكى بفعل قوتين عظيمتين : هما الرهبنة اليسوعية التى أنشأها «اغناطيوس لويولا» ، ومجمع ترنت الذى انعقد من سنة ١٥٤٥م حتى سنة ١٥٦٢ م .

اغناطيوس لويولا (١٤٩١ — ١٥٥٦ م) :

فى سنة ١٥٢١ م أصيب فارس أسبانى شاب يدعى « اغناطيوس لويولا » بجرح خطير فى معركة احتدمت بين مواطنيه وبين أهل فرنسا . وأثناء مرضه طلب أن يقرأ بعض الروايات ، فقدم له القائمون على تمريضه قصص القديسين وسيرهم . وبعد قراءتها تحول ذلك الجندى الأسبانى خادماً للمسيح وقائداً لجيش من الرجال قدّر لهم أن يكونوا دعاة ومرسلين فى كل أنحاء الأرض .

وتأهباً لهذه الخدمة قضى لويولا فترة طويلة من الزمن فى غار يستهدى ربّه ويستوحى السماء . وهناك صنف تلك الصلوات والتأملات «الرياضات الروحية» التى كتبت فيما بعد ، وما يزال ينتفع بها أصحابه حتى اليوم . وقد رأى أن يهذب نفسه أولا ، فلم يستنكف أن يتعلم اللاتينية مع صبية المدارس فى برشلونه ، ثم دخل الجامعات الأسبانية ، وأخيراً جامعة باريس . وفى باريس التف حوله أوائل أنصاره الذين عُرفوا باليسوعيين أو « صحابة يسوع Jesuits ».

وقد شرع اليسوعيون فى مكافحة مساوئ عصرهم بالدعوة والتعليم ، وسماع الاعتراف ، وإغاثة الفقراء ، وتلقين الأطفال عقائد الدين . وأظهروا للبابا غاية الولاء ، وتفانوا فى خدمته وطاعة أوامره . وقد نذروا كسائر الرهابين العزوبة ، وعافوا المقتنيات ، وعاشوا حياة مروضة خاضعة لصنوف من الحرمان والاذلال دون تذمر أو شكاة .

ومن أوائل أتباع «لويولا» ، القديس «فرانسز سافير» وهو من النبلاء الذين استوطنوا المنطقة الجبلية بين فرنسا وأسبانيا ، ومن أعاظم الدعاة المسيحيين الذين شهدهم التاريخ . وكان قد لقى لويولا فى جامعة باريس ، وأخلص فى خدمة الجماعة ، وسار على قدميه من فرنسا إلى البندقية فى قر الشتاء وقرص البرد ، وكان يرتل الأناشيد الروحية فى سيره ، ويخدم الفقراء والمرضى

فى المستشفيات . ومنها انطلق إلى رومية وكان ينام فى طريقه فى حظائر المواشى ، ويخوض الأنهار المتجمدة حتى حقويه . ولما أمره رئيسه لويولا أن يرحل لنشر الدعوة فى بلاد الهند حيث أسس البرتغاليون مستعمراتهم ، تقدم طائعاً ملبّياً النداء ، وكانت الرحلة إلى بلاد الهند فى سفينة برتغالية فى ذلك العصر مخاطرة كريهة ، شاقة ، محفوفة بالمكاره والأخطار . فظهر السفينة مكشوف للعراء ، وما بها إلا لحوم مملحة ، وبقسماط جاف متعفن ، ومياه ملوثة ، ووباء الطاعون . وقد استغرقت الرحلة ثلاثة عشر شهراً قضاها الأسبانى النبيل فى العناية بالمرضى ، وإعداد طعامهم ، وغسل ثيابهم ، والترفيه عنهم بكل ما أوتى من جهد .

ومن أشق المهام التى اضطلع بها فى بلاد الهند إعادة الموظفين البرتغاليين الماكرين الأردياء إلى الحياة المسيحية . وانطلق إلى داخلية البلاد يدعو الناس إلى المسيحية ويعلم الأحداث ويعمد الأطفال . وقد استمال إليه الأطفال الصغار برقته وجاذبيته فكانوا يسيرون وراءه ينشدون التراتيل ، ويحملون رسائله ، ويقومون على خدمته . وقد ترجم «سافير» الصلاة الربانية ، وقانون إيمان الرسل ، والوصايا العشر ، وتسبحة العذراء وصلوات أخرى ، إلى لغة أهالى بلاد جنوب الهند . وبعث تلاميذه رسلا إلى سيلان ، أما هو فرحل إلى ملقا ، ومنها شرقاً إلى اليابان . وعلى يديه اعتنق المسيحية هناك ثلاثة من نبلاء اليابان ذوى النفوذ والسلطان .

وفى سنة ١٥٥٢ م أبحر إلى بلاد الصين ووصل إلى جزيرة «سان‌تشان» . ولكن المشاق التى عاناها ، والرحلات الطويلة المضنية التى كان قد قام بها — هدّت من كيانه ، وأنهكت قواه ، فانطفأت شعلة حياته المتوقدة ، وقضى ذلك المرسل النبيل وحيداً فى تلك الجزيرة الموحشة ، وقلبه الكبير يود لو أسعفته الحياة بمزيد من العمر لينشر دعوته فى تلك البلاد الواسعة ، ولسانه يردد هذه الكلمات : «هأنذا أرسلنى إلى أقصى الأرض !» .

***

والحق أن أولئك اليسوعيين قد أبدوا من صنوف البسالة وألوان الجهاد ما جذب الناس إلى صفوفهم ، وقبل أن يموت لويولا كان عددهم قد بلغ ألفاً ،

وما انفك عددهم يتزايد فى القرنين اللاحقين . وانطلق دعاتهم إلى الهند والصين واليابان ، وإلى البرازيل وفلوريدا والمكسيك وبيرو بأميركا الجنوبية ، يعلمون الشعوب بحياتهم ودعوتهم ، ويستعذبون الاستشهاد فى سبيل قضيتهم المقدسة .

ولقد شيّدوا الكنائس الفخمة الرائعة، وأسسوا المدارس الشهيرة التى كانت منائر متوهجة للعلم والتهذيب فى هاتيك العصور . على أن لأولئك صورة أخرى لا يسع المؤرخ مهما أُعجب بهم أن يغفل ذكرها . فلقد حسبوا البروتستانتية عدوتهم التى يجب هدمها ، وراموا فى أول الأمر أن يحاربوا « الاصلاح » بالأدلة العقلية ، وبأسلحة من أسلحته ، فنشروا المدارس فى ألمانيا ، ونشروا الدعايات ، واعتلوا المنابر كما فعل زعماء الاصلاح ، واستعانوا بالعلم والثقافة ، ولم يألوا جهداً فى استخدام كل القوى العقلية والروحية لمحق البروتستانتية .

فعلوا هذا فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، ولما أعيتهم هذه الأساليب وعجزوا عن بلوغ الهدف ، لجأوا إلى أسلحة أخرى ، إلى الاصلاح العنيف ، أو ما يسميه التاريخ « الاصلاح المضاد » . فأثاروا أمراء الألمان على أتباع لوثر ، ونبشوا الأحقاد والضغائن ، وطاوعهم فى هذا بعض الأمراء الذين راحوا يكمدون أنفاس المصلحين . وما فعلوه فى ألمانيا ، فعلوه فى غيرها — فما حكومة الملكة الكاثوليكية ، مارى الانكليزية ، التى ولغت فى الدماء (١٥٥٣ — ١٥٥٨ م) ، وما عهد الدوق الأسبانى فى هولندا (١٥٦٧ م) ، وما مذبحة القديس برثلماوس فى فرنسا (١٥٧٢ م) — إلا ذكريات رهيبة بشعة من فعال تلك الروح الخبيثة التى غذتها الحركة اليسوعية .

وفى ألمانيا بالذات أثارت هذه الحركة نزاعاً عنيفاً انتهى بحرب الثلاثين سنة وما اقترن بها من شقاء وسفك دماء . وانتهى الصدام المسلح بمعاهدة وستفاليا (١٦٤٨ م) التى ظفرت فيها البروتستانتية بالاعتراف القانونى بها ، وكان قد أصابها بعض الوهن فى الأقاليم التى يحكمها أمراء كاثوليك .

وفضلا عن هذا فقد كانت تصرفات اليسوعيين من نواح أخرى خالية من الروح المسيحية ، وذلك أنهم تدخلوا إبّان عزهم وجاههم فى الشئون السياسية والتجارية ، ولجأوا فى سبيل تحقيق أغراضهم إلى أساليب ملتوية ، حتى آل بهم الأمر أن طُردوا من فرنسا والبرتغال البلدين الكاثوليكيين ، وفى سنة ١٧٧٣ م ألغى

البابا ذاته نظامهم « حرصاً على سلامة المسيحية » . ولم يعودوا إلى الظهور بعد الاختفاء إلاّ بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ .

مجمع ترنت :

فى القرن الخامس عشر انعقد مجمعان لاصلاح بعض مساوئ العصر . وفى حياة لوثر وكالفن ، اجتمع الكاثوليك والبروتستانت معاً غير مرة لتسوية خلافاتهم فلم يفلحوا . وذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح بسبب الحروب بين حكام أوربا وملوكها ، والاضطهادات الدينية ، والمشاحنات بين البابا والأساقفة. وفى سنة ١٥٤٥ م انعقد مجمع ترنت ، وحضره الكاثوليك فقط ، وأدار مناقشاته الأساقفة الطليان واليسوعيون . وكان هدفهم تمجيد سلطة البابوية ، وتسفيه التعاليم البروتستانتية ، وتدعيم العقائد التقليدية التى تسلمتها الكنيسة منذ أقدم العصور . وقد شرح ذلك المجمع العقائد الكاثوليكية بايضاح وجلاء ، وخاصة تلك التى ثار حولها سوء التفاهم ، وأصر على الأساقفة ورجال الدين أن يتولوا تعليم الشعب ، وأن يمتنعوا عن حياة البذخ ، وأن ينشئوا المدارس الدينية لتعليم القساوسة وتدريبهم .

وانسربت فى هذا المجمع روح جديد إلى البابوية والأساقفة وكل رجال الدين، واختفت البابوية الدنيوية التى ازدهرت فى القرن الخامس عشر وبكور القرن السادس عشر ، وتزعمت حركة الاصلاح الجديدة مع حزب الكهنة . وكأنما أيقظها نزاعها مع البروتستانتية من سباتها ، وغدت حركة الاصلاح جامعة شاملة . وما انتهى هذا القرن حتى كانت الكنيسة البروتستانتية تقف وجهاً لوجه أمام كنيسة كاثوليكية مصلحة .

القرن السابع عشر

[الاصلاح فى انكلترا — جماعة الطهورين Puritans — الفرار إلى أميركا — يوحنا بنيان — القديس فنسان St. Vincent de Paul] .

فى الفصل السابق رسمنا صورة لنشأة الاصلاح فى أوربا . أما انكلترا فقد كان فيها ثلاثة أحزاب يتنازعون فيما بينهم لاصلاح الكنيسة : الكاثوليك الذين أرادوا إصلاح المساوئ القديمة واسترداد السلطة البابوية — والبروتستانت الذين رغبوا فى القضاء على كل شىء له مساس بالكثلكة — وحزب ثالث وسط بين الاثنين ، لم يرد أن يكون للبابا سلطان على كنيسة انكلترا ، على أن تحتفظ الكنيسة بطابعها الكاثوليكى والطقوس والتقاليد القديمة بعد تنقيتها من المساوئ الكثيرة التى علقت بها . وهؤلاء الأخيرون انتصروا لفكرة السلطة الملكية — بديلا عن السلطة البابوية — وبذلك أخضعوا الكنيسة لسلطان الدولة خضوعاً لم تتحرر منه تماماً حتى اليوم . وهذا يصدق على انكلترا فقط ، ذلك لأن الانكليز حملوا معهم كنيستهم إلى المستعمرات التى أنشأوها ، ولكن تلك الكنائس فى الخارج لم تخضع لسلطان الدولة واحتفظت بأنظمتها الحرّة ، وإنك لترى هذه الكنائس الأسقفية المستقلة اليوم فى أميركا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا والهند وجنوب أفريقية وجزر الهند الغربية والصين واليابان ومصر وفلسطين ، وفى إيرلندا وويلز استقلت الكنيسة عن الدولة ، أما كنيسة اسكتلندا فلم تخضع قط للدولة .

وتلك الأحزاب الثلاثة تناوبت النفوذ والسلطان بالتتابع ، ففى عهد إدوارد السادس الملك الصبىّ امتلك البروتستانت زمام السلطة ، وصار «جون نوكس»

وهو من أتباع كالفن المصلح الكبير ، قسيساً خاصاً للملك ، وعيّن كثيرون من البروتستانت فى مناصب الدولة العليا ، وفى عهد الملكة ماري انقلب الوضع وصار الكاثوليك أصحاب النفوذ والسلطان ، وكانت الملكة كاثوليكية متعصبة قاسية فأسعنت فى اضطهاد البروتستانت وأحرقت كثيرين منهم متهمة إياهم بالهرطقة والالحاد ، حتى لعنت انكلترا كلها عهدها الأغبر وكرهت الدين الذى ناصرته واختفت وراءه .

وفى عهد الملكة اليصابات استولى الحزب المتوسط على السلطة ، وظهرت كنيسة انكلترا بخواصها وطابعها الذى تميّزت به . فكانت بروتستانتية فى رفض مطالب البابوية وسلطتها وبعض عقائد الكنيسة الكاثوليكية المستحدثة ، ولكنها كانت أيضاً كاثوليكية فى الاحتفاظ بالعقائد الأصلية ورسوم الكنيسة القديمة وطقوسها ، ورُسم رئيس أساقفتها الجديد — ماثيو باركر — بأيدى رجال توافرت فيهم شروط الخلافة الرسولية .

وكان فى انكلترا جماعات من متطرفى البروتستانتية راعوا الصرامة والتزمت فى حياة الطهر والتقوى ، ولذلك دعوا «طهورين Puritans» — وهم المتصوفون ، المدققون فى أمور الدين — شأن الحنابلة فى الاسلام . وبعض هؤلاء رغبوا فى النظام الأسقفى فى الكنيسة ، وأراد آخرون أن يقيموا النظام المشيخى ، بينما رأى فريق ثالث أن تتألف الكنيسة من جماعات مسيحية تختار رعاتها وتكون حرة فى أداء شعائر العبادة بدون تدخل من الدولة أوأية سلطة كنسية مركزية . وهؤلاء الأخيرون الذين انشقوا عن الباقين أسموا أنفسهم «الانفصاليين» ثم «الاستقلاليين» .

وقد رغبت هذه الجماعات الحرة عن كل الطقوس الخارجية فى العبادة ، وكل أشكال الصلوات الوضعية ، وكل الرموز والنقوش فى الكنائس ، ولم تقبل حتى الحركات المألوفة فى العبادة كالركوع ورشم الصليب . وذهبوا مذهب كالفن فى العبادة وأصروا فقط على الحياة المسيحية الطاهرة النقية تحت رقابة راعى الكنيسة . لذلك كان أولئك « الطهورون » أمناء ، ودعاء ، أطهاراً ، أقوياء ، ليس بينهم سكيرون ، ولا مخاتلون ، ولا أشرار — على أنهم كانوا فى بعض الأحيان ضيقى الفكر ، فريسيّ النزعة فى الحكم على مخالفيهم .

وقد عانى هؤلاء كثيراً من ألوان الاضطهاد والغرامات والسجن ، حتى

اضطروا للفرار إلى هولندا . وحتى فى هذا الفرار تعقبتهم العيون والأرصاد ، وخانهم قبطان أول سفينة استأجروها ، وأسلمهم إلى رجال الشرطة، الذين صادروا كتبهم وأموالهم ومقتنياتهم ، وبعد محاولات أخرى بلغوا أخيراً هولندا ، البلد الأوربى الذى احتضن فى ذلك العصر كل الحركات البروتستانتية . وكان آخر مَن وصل زعيمهم الموقر «جون روبنصون» ، وكان راعياً مثقفاً ، طيب القلب ، أحب السلام والوداعة ، وأبغض العراك والشحناء . وقد نفث فى قومه روح التسامح والحكمة والدعة . وكان قد أدرك أن المضطَّهدين ، قد يتحولون أحياناً إلى شىء من القسوة وضيق الفكر مثل مضطهديهم .

على أن الحياة فى هولندا كانت قاسية على اللاجئين الانكليز ، فاضطروا إلى القيام بأى الأعمال لكسب عيشهم . وحتى هنا فى الاغتراب لم ينجوا من إعنات مواطنيهم وملاحقتهم والحيلولة دون نشر مؤلفاتهم ، فراحوا يحلمون بانشاء مستعمرة فى العالم الجديد ، حيث يخلو لهم الجو ، ويطيب لهم العيش فى ظلال السلام والحرية ، وتتهيأ لهم الأسباب للدعوة إلى الانجيل بين قبائل الوطنيين ، فقرروا أن تمهِّد الطريق أولا طائفة من أقواهم وأقدرهم على احتمال العناء والمخاطرة ، وأن يلحق بهم راعيهم فيما بعد .

وقبل أن يرحلوا زوَّدهم «جون روبنصون» بالنصائح الغوالى ، لأنه توقع أن تكون حياة المستعمرين الأولين أقسى من الحياة فى هولندا . فأوصاهم أن يكونوا مخلصين أوفياء بعضهم لبعض ، وأن يحترموا ويطيعوا الزعماء الذين اختاروهم ، وأن يتخذوا من حق الله ضياءً ينير طريقهم .

وفى صيف سنة ١٦٢٠ م أبحرت السفينة « سبيدول Speedwell » من هولندا إلى إنكلترا ، لتنضم إلى السفينة « ماى فلاور Mayflower » . وأبحرت السفينتان من ميناء بليموث فى جنوب انكلترا ، إلا أنه ثبت بعد قليل أن السفينة الأولى غير صالحة للرحلة، فحشر أكثر ركابها فى السفينة الثانية ، وعادت السفينة الأولى أدراجها تحمل بعض ركابها وكثيراً من الآلات والأدوات التى كان المهاجرون فى أمسّ الحاجة إليها .

تسعة أسابيع طوال قضتها السفينة «ماى فلاور» وهى تترنح فوق أثباج اليمّ ، وتعصف بها الأعاصير كريشة تائهة فى مهبّ الرياح . وأخيراً نزل

المهاجرون إلى اليابسة ، وأطلقوا على المستعمرة التى استوطنوها والخليج الذى نزلوا فيه اسم الميناء التى أبحروا منها «بليموث» .

وهناك علمهم بعض الهنود زراعة القمح الهندى ، والقنص وصيد الأسماك والاستكشاف ، وعقدوا معاهدة سلام ومودة مع القبائل الموالية . على أن المشاق التى عانوها ، والأعمال المضنية التى اضطلعوا بها ، أنهكت قواهم ، ففشت بينهم الأمراض ، وكثرت الوفيات ، حتى قضى فى الأربعة شهور الأولى أربعة وأربعون من الاثنين والمائة الذين نزلوا البرّ سالمين . وفضلا عن هذا راحت بعض قبائل الهنود المعادية تخلق لهم المتاعب ، وقلت مئونتهم من القمح ، وكان قد لحق بالمستعمرين الأولين طوائف أخرى من المهاجرين من صنوف الناس الذين تنقصهم عدّة المهاجر المستوطن من مال وعتاد وصبر وجلد . وعلى الرغم من هذا كله غالبت تلك المستعمرة الناشئة كل أسباب الفناء ، وثابرت وجالدت الخطوب حتى أفلحت بقوة الايمان والثبات والتعاون والتضحية بالمصالح الخاصة فى سبيل خير الجماعة . وكان كل منهم عضواً فى الكنيسة الحرة . على أن الكنيسة كانت منفصلة عن الدولة كلية ، فلا دخل لاحدى السلطتين فى شئون الأخرى .

تلك كانت رحلة «الآباء المهاجرين» المأثورة فى التاريخ . وتلك كانت المغامرة الجريئة الأولى التى خلقت أعظم أمة فى العالم فى هذا العصر . وقبل أن تنقضى خمس سنوات انتقل زعيمهم وراعيهم المحبوب «جون روبنصون» إلى الحياة الأخرى ، بعد أن نفث فى هذا العالم الجديد ، فى الغرب ، قبساً من روحه وإيمانه — روح الصبر والاحتمال ، روح الحرية الدينية المسالمة التى تستعذب كل ألم وتذلل كل عقبة ، والايمان بأن الله يمنح وفرة من الخير ؛ ويعلن مزيداً من الحق ، للذين يسيرون معه فى مجهول الدروب وظلمات الحياة .

يوحنا بنيان :

وبينما كانت المستعمرات الأمريكية تنمو وتزدهر ، كانت الكنائس الاستقلالية الحرة فى انكلترا يتزايد سلطانها ، وخاصة بعد قطع رأس الملك تشارلس الأول وانتهاء عهد ملوك آل ستيوارت الذين اقترنت سياستهم ومصائرهم بمناهضة

الحركات الاستقلالية الدينية . وفى عهد كرمويل (١٦٤٩ — ١٦٦١ م) ثار الاستقلاليون ثورتهم فكسروا التماثيل فى الكنائس ، وحطموا زجاج النوافذ وآلات الموسيقى ، وأحرقوا الملابس الكهنوتية ، وفى عهده شغل أنصار البروتستانتية — على اختلاف طوائفهم — وظائف الكنيسة . ولكن ما أن تربع تشارلس الثانى على العرش (١٦٦٠ — ١٦٨٥ م) حتى انقلب الوضع ، وانتقل النفوذ والسلطان إلى أساقفة كنيسة الدولة الرسمية، وسنّت الشرائع الصارمة تفرض على رجال الدين الخضوع لقوانين الكنيسة ، وعدم ممارسة وظيفة التعليم والوعظ قبل الحصول على تصريح رسمى، وفرض على القساوسة أن يقسموا إيماناً بطاعة الملك وقوانينه . على أن الأكثرية الساحقة — وعددهم ألفان — أبوا الخضوع لهذا التهديد ، وامتنعوا عن القَسم ، وآثروا فى بسالة رائعة أن يتحدوا القانون ، ويعصوا الملك ، ويعرّضوا أنفسهم فى سبيل الاعتزاز بالحرية الدينية لكل صنوف الاعنات والسجن والتجويع والتشريد ، فكانوا يعلمون الناس فى الحقول والخلوات ، ويجاهدون ويعملون وهم جياع مطاردون . وحرية الضمير يهون فى سبيلها الدموع والدماء .

وكان بين الاستقلاليين الأحرار طائفة تسمى «المعمدانيون» . وهؤلاء درجوا على أن يعمدوا الناس كباراً بعد أن يبلغوا سن الوعى ويعترفوا علانية بايمانهم بالمسيح ، واشترطوا أن تكون المعمودية «بالتغطيس» فى الماء على نحو ما فعل المسيحيون الأولون . وكان من أشهر هؤلاء فى القرن السابع عشر «يوحنا بنيان» الذى زجّ فى السجن فى حكم تشارلس الثانى .

ويسير بعد الذى قدمناه أن نصور العصر الذى عاش فيه بنيان : كانت القارة الأوربية غارقة فى حرب الثلاثين سنة المشئومة فى تاريخ المسيحية ، وكانت بريطانيا تغلى بالمنازعات الدينية . فلقد أصرت الحكومة على الشعب أن يذهب إلى كنائس خاصة عيّنها القانون ، وأن يستعمل كتاباً خاصاً للعبادة الدينية . وكان « بنيان » من جماعة الأحرار المنشقين الذين طاردهم رجال الشرطة ، وقسا عليهم حكم القانون ، فألصقوا به تهمة تسليح رجاله وأتباعه ، وعصيان أوامر الحكومة ، وإثارة حرب أهلية . . .

ولد «يوحنا بنيان» فى قرية «الستوى» على مقربة من مدينة بدفورد

بانكلترا ، وكان أبوه سمكرياً ، واتخذ الابن صناعة أبيه فى شرخ شبابه . وقد اختلفت الآراء فى نسبه وحسبه . فقال هو عن نفسه انه تحدَّر من أسرة فقيرة وضيعة الشأن . وبينما كانت صناعة «الحداد» فى القرية الانكليزية موفورة الكرامة فى ذلك العهد ، كان « السمكرى » فى مرتبة أدنى وأحط . وهذا سرٌّ من أسرار نظام الطبقات الانكليزية الذى كان مرعياً يومئذ ، لم نقدر على فهمه وتأويله . وذهب فريق من الكتاب إلى أن «بنيان» تحدر من أسرة أخنى عليها الدهر بكلكله وقلب لها ظهر المجنّ . وقال فريق آخر إن الأسرة لم تكن فقيرة معدمة ، بل كانت تملك مساحة من الأرض إلى جانبها مستنقع ، هو الذى أوحى إلى «بنيان» فكرة بالوعة اليأس التى وصفها فى رواية «سياحة المسيحى» .

ويقول عنه « ماكولى » إن ساعات لعبه ومرحه وهو فى العاشرة من العمر كان يتخللها نوبات متقطعة من اليأس ووخز الضمير . وكان نومه مضطرباً تنتابه الأحلام المزعجة ، وتساوره المخاوف المقلقة ، فشبّ غلاماً قلق النفس ، يغالبه اليأس .

وكان شبح الخطيئة والذنب ماثلا أمامه دائماً ، يعذّبه فى يقظته وفى منامه . وقد قال عن نفسه : « كنت زعيما لأترابى الذين سقتهم إلى مسالك الرذيلة والاثم » . وأحس وهو شاب أن الله المنتقم يتعقب خطاه ، وخشى الأبدية ورهبتها وفزع من الموت ، ولم يرحب به إلا فى أواخر حياته .

وفى السادسة عشرة من عمره حُرم حنان الأمومة وعطفها . وفى ذلك الحين تضرمت نيران حرب أهلية فى انكلترا ، فزجَّ بنفسه فيها ضد الملكية . ولا ريب فى أن ذكريات تلك الحرب ظلت ماثلة أمامه عند كتابة قصة «سياحة المسيحى» التى يصور فيها بطل قصته مزوداً بالسيف والرمح والخوذة ، ونقرأ عن الحصون والأبواب والحاميات وغير ذلك من مصطلحات الحرب .

ومن الحوادث التى غيَّرت اتجاه حياته أثناء الحرب ، قتل زميل له واقف إلى جانبه ، ونجاته بأعجوبة جعلته يعتقد أن حياته ليست ملكاً له .

وفى الحادية والعشرين تزوج من فتاة يتيمة ، فقيرة ، ولكنها ورعة تقية . ولم تكن تملك شيئاً من حطام الدنيا ، ولكنها جاءت بخزانة احتوت مجموعة من

الكتب الدينية ، عكف على قراءتها فامتلأت نفسه بفكرة مؤدّاها أن الحياة إنما هى رحلة للوصول إلى هدف معيّن . وهنا كانت بداية «سياحة بنيان» فى حياة الدنيا .

من هذه الكتب تعلم الدين . وكان الفضل للزوجة اليتيمة الفقيرة . ومنذ العصر الذى اقتادت فيه الفتاة اليهودية الأسيرة نعمان السريانى إلى اليشع النبى ، لم يدوِّن التاريخ شهادة لمجد الله أنطق وأقوى من شهادة هذه الزوجة الفقيرة المعدمة !

ثارت فيه نفسه الداخلية ، ورأى شبح الخطية ماثلا أمامه دائماً ، حتى كان يخيَّل إليه أحياناً أن جرس الكنيسة يكاد يسقط عليه ، وأبراجها تنهار على رأسه . وتمثل أمامه جبل سيناء يتقد بلهيب الغضب ، ويزأر بصوت الرعب .

وفى «سياحته» حلل الوقائع التى شهدها فى حياة عصره ، وعلل الحوادث تعليلا ينسجم مع الحق ، فكان يستعير المشابهات والكنايات من مشاهد قريته وأحاديث قومه .

وقد بدا لقوم فى ذلك العصر — كما يبدو الآن لكثيرين — أن المسيح مجرد صديق للبشرية ، ومصلح اجتماعى بين المرضى والفقراء ، وملقن الانسان واجبه نحو أخيه الانسان . أما محبة المسيح فقد أعلنت إلى «بنيان» شيئاً فاق هذا كله . فهو لم ير خلاص البشرية فى بيت لحم ، ولا فى الجليل ، إنما رآه مجسما فى الجلجثة التى أسالت دماء قلب «بنيان» .

وفى شبابه نراه يعيش فى جو من الهلع والفزع ، محوطاً برهبة إله جبار لا يلين ولا يرحم . غير أننا نراه فى « سياحة المسيحى » يلين شيئاً فشيئاً ، فتتحول قسوة الناموس إلى شرعة الرحمة ، ومرارة اليأس إلى عذوبة الرجاء . وفى أواخر القصة نشهد أشخاصها يرقصون طرباً على أصوات الموسيقى الشجية ، فتمتلئ نفس القارئ محبة وعطفاً ، وتدمع عيناه فرحاً وحبوراً .

وكان على «المسيحى» بطل قصته أن يقطع مرحلة طويلة شاقة بعد مغادرته مدينة الهلاك حتى وصل أخيراً إلى الصليب ، حيث ألقى حمله الثقيل فى القبر الفارغ . وهذا كان شأن «بنيان» نفسه . فهو لم يتجدد فى طرفة عين ، ولا بلمسة سحرية خاطفة . ولكنه قضى طوال السنين يصارع مع نفسه ومع

خطيته . فاجتاز المسيح إلى قلبه خطوة خطوة ، وأنقذه من رهبة العقاب وفزع الدينونة ، وأظهر له أن المحبة أقوى من الشر .

وإذ تلامس نفسه هذه المحبة الفياضة الجياشة ، يريد أن يشاطرها الآخرين ، فيطفق يدعو الناس إلى هذا الحق الذى أُستعلن له ، وكان يعقد اجتماعاته فى حلقات لدرس الكتاب المقدس . وقد حُسب فى هذا العمل خارجاً على القوانين ، وعاصياً أوامر الحكومة ، فهو يعلم ويبشر بدون الحصول على ترخيص رسمى ، فيُلقى القبض عليه و يمثل أمام القضاء للمحاكمة .

وكان قضاته يعرفون فضله ، فحاولوا إطلاق سراحه بحمله على التنازل عن خطته ولو باقرار شفوى ، ولكنه لم يرضخ لهذا واضطرهم إلى الحكم عليه بالسجن الذى قضى فيه اثنتى عشرة سنة . وقد جهر أمام القضاء بأنه يوم يطلق سراحه، ينادى بالانجيل فى اليوم التالى مهما كلفه هذا من البذل والاضطهاد . وان حكماً كهذا تصدره محكمة انكليزية استناداً إلى قانون يستنه رجال الشرع وأولى الأمر، يقابله أبناء هذا العصر بابتسامة ساخرة مشدوهة ، ولكن يجب أن نذكر أن الأخلاق الاجتماعية فى تطور مستمر ، وما نحسبه نحن اليوم سبّة ، كان سائغاً فى القرون الخوالى .

وكان لهذا الحكم الجائر أثره فى نفسية « بنيان » ، فتمثلت أمامه أمته العظيمة، بل العالم أجمع ، أشبه بسوق الغرور Vanity Fair الذى وصفه فى قصته الخالدة . وقد خلع على القضاة والمحلفين والشهود الذين حكموا عليه ألقاباً رمزية مستعارة ، ومثّل الميول الانسانية المستقبحة مثل «الحسد» ، و «كراهة الخير» و «الطمع» و « الشهوة » و «الكذب» و . . . الخ أشخاصاً مجسمة فى قصته .

قضى « بنيان » اثنتى عشرة سنة فى سجنه حاملا آلام الحياة بصبر وشجاعة. ولم يكُ شقاؤه شيئاً لولا الآلام المريرة المبرِّحة التى حزّت أحشاءه وهو يذكر زوجته وأولاده ، مفكراً ليل نهار فى البؤس المضنى الذى كان يتخيلهم فيه . وكان قد خصّ ابنته الضريرة بأوفر قسط من حبّه وحنانه ، وكان يخشى أن يلمس الهواء البارد وجهها النحيل ، فاذا به يتخيلها الآن قعيدة الظلام ، تعانى البرد والجوع ، تستعطى فتدفعها الأيدى الخشنة ، وتلعنها الشفاه القذرة !

على أنه لم ينسَ فى محنته هذه موسيقى الحياة. ويقال انه اصطنع من عيدان

متعده فى خابية السجن مزماراً كان يلعب به ، فاذا ما استيقظ الحارس على صوت الموسيقى، وهمّ بالدخول إلى خابيته ليرى مصدر الصوت ، خبأه تحت طيات ثيابه ، وقد قضى مدة السجن كلها ولم يتوصل الحارس إلى كشف مصدر هذا الصوت الموسيقىّ !

وفى السجن هبط الوحى على « بنيان » فكتب قصته الخالدة ، وكان شأنه فى هذا ، شأن زميل له من قبل «توما القمبيزى» الذى كتب مؤلفه « الاقتداء بالمسيح » فى خلوة بعيداً عن جلبة الحياة . وفى السجن تعلم « بنيان » كيف يكتب وماذا يكتب . وكما أن «بيتهوفن» أرهف الصمم نفسَه الحسّاسة ، فأخرج وهو أصمُّ أرق المقطوعات الموسيقية ، وأعذبها ، كذلك أنتجت قريحة « بنيان » وهو فى خابية السجن أروع تحفة دينية خالدة . وعلى الرغم من احتدام الشحناء بين المذاهب الدينية فى عصره ، ومن أنه كان إحدى ضحايا حرية الرأى ، فانه لم يجنح فى قصته إلى جانب معيَّن ، وأعلن نزيل السجن مسيحَ المجد للملأ قاطبة . فلم تنته « سياحة المسيحى » عند نهر الموت والهلاك ، ولا عند الأبواب الذهبية ، بل سار وراءه فى الطريق الضيق أفراد أسرته وفريق من الأصدقاء من مختلف المذاهب . ومن ذلك العهد يقف المسيحيون خاشعين أمام جلال هذه القصة ، متناسين ما بينهم من الفوارق المذهبية العارضة .

وبعد أن خرج « بنيان » من سجنه ، عاش حياة هادئة ناعمة . وكانت تهرع إليه الجماهير لسماعه ، فكان يخطب فى الألوف ، ويكتب لمئات الألوف ، ولكنه ظلّ ذلك القروىّ الساذج لم يعرُه تغيير ، ولم يداخله شىء من الزهو والغرور . وبعد أن اشتهر بمؤلفاته فى كل أرجاء العالم ، لم يرض أن يكون أكثر من « بنيان » المبشر الوادع ، والانسان الخاطئ التائب . ولم يكن له فى مؤلفاته سوى مطمع واحد ، هو توبة الخاطئين واهتداء الضالين ، وقد عاجله الموت وبعض مؤلفاته معدّة للطبع .

هجعت نفسه الناشطة على الأرض ، وصعدت بأفكارها وجلالها وجمالها إلى عالم أسمى وخدمة أجلّ . وقد مات وهو يصنع خيراً ، فقد قيل انه كان مهموماً منهمكاً فى إصلاح شأن شاب حرمه أبوه الميراث ، فقام لهذا الغرض برحلة طويلة شاقة فى زمهرير الشتاء وهطل الأمطار ، فأصيب ببرد شديد قضى عليه فى ستة أيام .

وقد حار العلم فى تعليل عبقرية « بنيان » وسرّ نبوغه ، فهو رجل لم يتثقف بثقافة الجامعات ، ولم يقرأ أفلاطون ولا أرسطو ، ولم يدرس فن الأدب وقواعد البلاغة والبيان ، بل ان ثقافته لم تتجاوز حدّ « فك الخط » والهجاءة المكسرة . وربما يقال ان النابغة يولد وفى نفسه ودمه عناصر النبوغ والذكاء ، فقد كان « موزارت » موسيقياً من حداثته ، وكان « ميشيل انجيلو » فناناً وهو بعد صبى يافع . أما « بنيان » فلم يكن فى صبوته أمارة من أمارات العظمة . ولو أنه مات فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين لما حفل أحد بذكره ، ولا سجّل اسمه فى بطون التاريخ بين جهابذة فنّ الكتابة وأمراء القلم .

ولا نكران أن كثيرين من نوابغ البشر محوطون بحجُب الأسرار . فأول شاعر انكليزى لم يكن أكثر من راع للأبقار ، وجهل القراءة والكتابة عند ما هبط إلى قلبه وحى الخيال وإلهام الشاعرية . وكان « شكسبير » نفسه تلميذاً بسيطاً فى مدرسة قروية . وبنيان لم يكن عبقرياً بمولده الطبيعى ، بل بميلاده الثانى الروحىّ . وقد اعترف أنه مدين بحياته إلى نعمة خفية أُغرقت فيها نفسه . هذا هو مصدر الوحى الذى هبط عليه ، فألهب نفسه الروحية وأيقظ نبوغه العقلى ، فأدّت به خاتمة المطاف ، بعد تخبّط وإعثار ، وبعد مخاوف وآلام ، إلى التخلص من حمله الذى أثقل كاهله دهراً ، وإلى بلوغ المرمى الذى جعله قبلة آماله وأمانيه ، وإلى نيل الجزاء الذى ابتغاه من وراء آلامه وتجاربه .

فنسان ده بول :

وبينما كان الاصلاح سائراً بخطى ثابتة فى البروتستانتية ، كانت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً تخلع عنها تزمت الماضى وجموده ، فحاولت بلاد كثيرة أن تسير على هدى قرارات مجمع ترانت ، وأصلحت رتب الرهبنة ، وأنشئت المدارس لتدريب رجال الدين وإعدادهم ، وعُنى القادة بتهذيب الشعب وتعليمه ، وقامت الكنيسة بنصيب موفور فى إسعاف الفقراء وإغاثة الملهوفين . وقد عاش فى فرنسا فى القرن السابع عشر كاهن كاثوليكى لن تنسى خدماته الجليلة التى بذلها فى سبيل الفقراء ونعنى به « فنسان ده بول » .

ولئن تكن أسماء الباباوات والمجامع ، والأساقفة والمصلحين ، تبرز بروزاً ظاهراً فى تاريخ الكنيسة ، فانه يجب أن نذكر أن تاريخ الكنيسة ، هو أيضاً تاريخ الملايين من الرجال والنساء العاديين الذين اعتصموا بايمانهم وسط الزوابع والتقلبات والاضطرابات التى أحاطت بهم . فهؤلاء عبدوا الله وفق وصاياه، وسمعوا الأسفار المقدسة وقدسوها ، وشاطروا الوثنيين آلامهم ، وأعانوا إخوانهم فى الضيقات والشدائد ، والأوباء والمجاعات ، بروح السامرى الصالح .

ومنذ قامت الكنيسة ، عرفت بأعمال المحبة والرحمة والحدب على الفقراء . فأنشأ الأساقفة — أمثال بازيل — المستشفيات التى عالجت المصابين بالطاعون . وعُنيت الكنيسة فى القرون الوسطى بالبرص . وأطعمت الأديرة فى عهودها الأولى الجياع وآوت المشردين . وأنشئت فى القرون المتأخرة بيوت الصدقات والزكاة وأغدق عليها الأغنياء من أموالهم . ولم تنقطع طوال هذه القرون هبات وخدمات الطبقات المتوسطة ورقيقى الحال الذين لا تحصى أسماؤهم . ومنذ القرون الوسطى تألفت جماعات صغرى من المسيحيين وجعلت شعارها الصلاة والاحسان. وبفضل هذه الجماعات،وجهود السيدات النبيلات،والمواطنين والعمال والفلاحين ، استطاع « فنسان ده بول » أن يقوم بخدمته الرائعة لفقراء فرنسا فى القرن السابع عشر .

ويومئذ كانت حالة الفقراء فى أوربا رهيبة . فحرب الثلاثين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت امتصت دماء الحياة فى ألمانيا فأفقرتها وأجاعتها . وكانت فى فرنسا مذابح ومعارك واغتيالات ، وجيوش تتبع الأحزاب المتنازعة، وتعيث فى البلاد فساداً وتدميراً ، فكانوا يحرقون محاصيل الفلاحين المساكين ، ويخربون بيوتهم ، حتى لقد اضطر كثيرون منهم إلى الهرب من قراهم والتزاحم فى المدن ، يبحثون عن عمل ، أو يستجدون ، أو يسرقون . أما الذين بقوا فى الريف فكادوا يموتون جوعاً .

واقترن جوع الجسد ، بجوع العقل والروح ، فما اعتنى بهم أحد من رجال الدين ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا فى حالة سيئة ، فالألقاب والثروات التى غصّت بها الأبرشيات والأديرة كانت بأيدى رجال أنانيين كسالى ، استغلوا الجهلاء والهمّل للقيام بالأعمال لقاء أجور ضئيلة . ولكن فى وسط هذه

الظلمة المدلهمة كنت ترى بقية من نور تومض كأنها النار مثقلة بالرماد ، وكان فى فرنسا رجال أخيار وأساقفة وقساوسة كافحوا هذه المساوئ والشرور ، وكان أعظمهم وأفضلهم « فنسان ده بول » . . .

كان هو نفسه من طبقة الفلاحين . وقد بدأ عمله فى بيت متواضع (١) فى باريس ، حيث أخذ يدرّب قسوساً ليكونوا مرسلين ، ويعلمهم أن يعظوا بأسلوب بسيط مفهوم لعامة الشعب ، ويرسلهم للعمل فى ريف فرنسا . وفى باريس ألهم طائفة من فضليات النساء «سيدات المحبة» لحمل الأطعمة ، والهدايا للمرضى فى مستشفيات المدينة ،والعناية بالأطفال المهمَّل الذين كانت تلقيهم أمهاتهم بسبب الفقر . وامتد العمل من باريس إلى قرى فرنسا ليشمل فتيات الريف ونسائه . وهكذا أنشئت جمعية « أخوات المحبة » واتخذت زيها الخاص — قبعات بيضاء عريضة وأردية زرقاء خشنة — وراحت تخدم حاجات الفقراء والمعوزين ، وتسعف المنكوبين والمطرودين ، وتواسى المرضى والمجروحين .

وكان من آثار الحرب الأهلية تفشى الأوباء بسبب الاهمال فى دفن القتلى والجياد النافقة ، فبذل المتطوعون والمتطوعات جهوداً جبارة لدفن الموتى ، وحمل الأطعمة للجياع فى المناطق التى نكبتها الجيوش النهّابة التى داست القانون والنظام ، واستشهد كثيرون من أولئك الرجال والنساء وضحّوا بحياتهم فى سبيل إنقاذ حياة آلاف من مواطنيهم .

وكان للكاهن « فنسان ده بول » موهبة عجيبة للتأثير فى الرجال والنساء ودعوتهم للقيام بأخطر الأعمال من أجل المسيح ، فأرسل فريقاً من أتباعه لاسعاف العبيد فى الموانئ ، ووضع نظاماً لافتداء المسافرين المسيحيين الذين كان الأتراك يبيعونهم — بعد الاستيلاء على السفن التى كانت تقلّهم — أرقاء فى سوق بلاد الجزائر (٢) ، وأرسل دعاة ومبشرين إلى جزيرة مدغشقر . وقد أيقن أنصاره أن زعيمهم الذى يتولى قيادتهم جرئ غير هيّاب ، يستعذب كل تضحية وألم . فلما ثارت باريس وتمردت على الملكة ، وأُرسل جيش لمحاصرة المدينة وتجويعها ، استطى هذا الرجل الشيخ وهو فى الثالثة والسبعين من عمره ، صهوة جواده ،

---

(١) سمى هذا البيت «دار لعازر» ولذلك دعيت جماعته «لعازريون» .

(٢) وقد بيع هو نفسه بهذه الطريقة وهو بعد صبى صغير .

وسار ليلا فى طرقات المدينة المظلمة عبر قنطرة نهر السين التى غمرتها المياه ، وذهب تواً للملكة يستنجد بها . فأمرت الملكة بتوزيع بعض الحنطة على أهل المدينة ولكنها أبت وقف القتال ، ولم ينقطع « فنسان » طوال أيام الثورة عن القيام بعمله فى التعليم والاسعاف . وبعد موته أمسك أنصاره بالمحراث من بعده . ولما قررت فرنسا فيما بعد إلغاءجميع الرتب الدينية ، ألغيت أيضاً جمعية «أخوات المحبة » ، ولكن انتقل عملها وجهادها إلى بلاد أخرى . وإنك لترى اليوم فى انكلترا « أخوات المحبة » فى ثيابهن الزرقاء وقبعاتهن البيضاء يجلنَ بين الناس التمريض المرضى ، وإعانة الفقراء ، والعناية باللقطاء ، كما كنَّ يفعلن قبل ثلاثمائة سنة فى فرنسا .

القرن الثامن عشر

[النهضة العقلية — هدم نظام اليسوعيين — الدولة المطلقة السلطان — فكرة التسامح — جون وسلى والنهضة الروحية] .

الى نهاية القرن السابع عشر ، شغفت أوربا الغربية كل الشغف بنظريات الاصلاح ، والاصلاح المضاد ، فى الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية . وفى بداية القرن الثامن عشر يحسُّ الباحث التاريخى نهضة جديدة تختمر فى العقول لتأخذ مسراها فى التاريخ . وكانت الكشوف المستحدثة فى عالم الطبيعة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وما اقترن بها من نهضة فلسفية ، قد مهَّدت الطريق لنظرية جديدة عن الكون ، نظرية لم تستند إلى إيمان الكنيسة ، بل إلى جبروت العقل البشرى . وفى جرأة وعزم صادق نهض العلماء والمفكرون لانقاذ العقل البشرى من سلطان التقاليد القديمة ، وراحوا يغربلون مواد الفكر التى توارثتها الأجيال ويسلطون عليها أنوار النقد ، وتبدَّت فى الأفق العقلى نظريات جديدة دفعت العالم فى القرن الثامن عشر إلى حضارة فكرية مستحدثة .

وقد خضعت المسيحية التقليدية أيضاً لألوان من النقد من حيث توافقها مع العقل ومع الطبيعة . وما استطاعت الأوضاع الكاثوليكية ولا البروتستانتية أن تشبع مطالب الفلسفة العقلية . وكان هذا طبيعياً لأن الدين يُعنى بعلاقة الانسان بالله وهو سبحانه وتعالى يتسامى فوق الادراك البشرى وكل أوضاع الفكر الانسانى . ولا مناص من أن ينتهى الدين إلى حدّ لا تدركه فيه الافهام . لأن قوة الدين مستمدة من الأسرار الخفية التى تقود الانسان إلى الله ، الكائن الأعلى ، الذى لا تحدّه الأفهام .

وقد جاهد القرن الثامن عشر لخلق دين يجمع بين شيئين متناقضين ، يشبع العقل وفى الوقت نفسه يطفئ ظمأ النفس وتلهفها للأشياء الخالدة ، اللانهائية، غير المدركة . ولكنه عجز عن بلوغ حقائق منسجمة يمكن إثباتها بالبراهين العقلية ، وأسست الدعامة الروحية التى استندت إليها القرون الخوالى قصبة مرضوضة ، وأُحيط الدين بآراء غامضة مبهمة أيقظت عوامل الشك فى الأذهان .

وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان مذهب هؤلاء العقليين قد فاز بنصر مبين ، واحتلّ مكانة الصدارة فى الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وراح يغذيه ويسنده جبابرة العقل فى ذلك العصر أمثال فولتير وليسنج بأسلحة التهكم اللاذع والذكاء النافذ ، حتى بلغ ذروة انتاجه فى فلسفة «كانت» الفيلسوف الألمانى ، فرسمت الحدود التى وقف عندها العقل البشرى ، وأعلن أن وجود الله وخلود النفس من الفروض التى لا يقوى العقل على إثباتها. فوقف العقل مرة أخرى عند حدوده المرسومة ، واعترفت الفلسفة بأن الدين ليس عقيدة من العقائد الفلسفية التى تشبع العقل الظامئ إلى المعرفة ، بل هو قوة تقنع الناس بدون الدليل المنطقى ، وتشبع حاجة الارادة البشرية إلى الخلاص من العالم والخطية ، وحاجة الانسان الملحة إلى الله . على أن الفيلسوف «كانت» نفسه بقى أسير مذهب العقليين حين ادعى بأن الأخلاق ، والأخلاق فقط ، هى غرض الدين وهدفه ، واستبعد من فلسفته «كلمة الله» الذى أعلن ذاته للعالم «مملوءاً نعمة وحقاً» .

وكان من آثار هذه «الاستنارة العقلية» فى القرن الثامن عشر هدم نظام اليسوعيين » وتوطيد أركان الدولة المطلقة السلطان ، وتسلط فكرة التسامح :

هدم نظام اليسوعيين :

تطور نظام رهبنة اليسوعيين (الجيزويت) تطوراً كان فيه هدمه وزواله وذلك لأن آدابها قد أمست مجرد فتاوى شرعية ، تحلل الشر فى بعض الحالات ، وانطوت على المبدأ القائل إن الغاية تبرر الوسيلة . ثم إن علماء الجيزويت والمجتهدين فى علوم الفقه والدين ، زعموا أن مطالب الأخلاق هى مجرد آراء ،

فالانسان مثلا قد يفعل ما لا يرضاه ضميره إذا أمكنه الاستناد إلى رأى راجح أو شهادة كاتب من الثقات . و بمقتضى هذه العقيدة انسلّت إلى الحياة الدينية كثير من المساوئ والمفاسد . وقد حاولت البابوية أن تعضد هؤلاء اليسوعيين لأنهم من أخلص أتباعها ، ولكنها اضطرت حيال هذا الانحدار الأخلاقى إلى الوقوف موقف المعترض على نظرياتهم وعقائدهم ، ودمغت كثيراً منها بالبطلان . وألفت الرهبنة اليسوعية خصما عنيداً فى «اليانسينية Jansenism» . وهى نهضة فكرية بدأت فى القرن السابع عشر فى فرنسا . وكانت الرهبنة اليسوعية تمثل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية القائلة إن الانسان على الرغم من سقوطه وبفضل ما بقى له من الحرية — يخلص بأعماله المسندة بالنعمة الالٰهية . بينما وقفت «اليانسينية» مناصرة للعقيدة الأوغسطينية التى اعتصم بها مصلحو البروتستانتية، والقائلة إن خلاص المختارين يتم فقط بنعمة الله التى تقدّر وتقضى بالخلاص لانسان وبالهلاك لآخر . وكان طبيعياً أن تسفّه البابوية هذه العقيدة وتدينها لأنها كانت بمثابة نزعة من نزعات الاصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية ، ومناهضة للنظريات اليسوعية . وقد اقترنت هذه النهضة الجديدة بغيرة أخلاقية وصرامة فى الزهد والتقشف .

على أن أثر «اليانسينية» فى تاريخ العالم ، لم يكن فى عقائدها بقدر ما كان فى نقدها اللاذع لآداب اليسوعيين ، فهى قد ناجزت المبادئ الأخلاقية التى نادى بها ذلكم القوم ، ونشبت بينها وبين الرهبنة اليسوعية معركة حامية ، كانت معركة الحياة أو الموت ، وأشهر الذين حملوا لواء هذه المعركة «بليز بسكال» الرياضى الفرنسىّ الذائع الصيت ، والفيلسوف الطبيعى الذى أودع عبقريته وذكاءه وغضبه — رسائله *Lettres Provinciales* . وقد أراد بها هدم آداب اليسوعيين ونظرياتهم . وفى داخل الكنيسة الكاثوليكية تغلبت اليسوعية على اليانسينية ، على أن اليسوعيين لم يقووا على صدّ هجمات بسكال التى اقترنت بالنكتة الساخرة ، والعقل الأريب ، والاستخفاف المزرى . وطبعت رسائله أكثر من ستين مرة ، وكانت أول مسمار دقّ فى نعش اليسوعية .

فضلا عن هذا فان الرهبنة اليسوعية غرقت فى المصالح العالمية ، ومالت إلى القوة والثروة ، واختنقت قوتها الروحية بأعمالها التجارية ومشروعاتها المالية . بل

قد تورطت فى محاولة تبرير قتل الأمراء والملوك دفاعاً عن الكنيسة . كل هذه أثارت الحفائظ والأحقاد ، وعقدت سحابة كثيفة من السخط والحنق حول هذه الرهبنة ودعاتها . على أن نهضة الاستنارة الذهنية فى القرن الثامن عشر كانت العامل الفاصل فى هدمها والقضاء عليها . وذلك لأن الكنيسة ذاتها — الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء — راحت تحتضن آراء العقليين أصحاب نهضة الاستنارة الذهنية ، وهى التى بعدت عن العناصر المسيحية المحض فى الدين ، واعتصمت بالنواحى الانسانية فقط التى جعلتها نواة المسيحية . بينما بقيت الرهبنة اليسوعية وحدها على ولائها القديم للكثلكة المحافظة المتطرفة ، وانتصبت أثراً للميول الروحية التى عفا عليها الزمن . ومن هنا قامت عليها كل ثقافة القرن الثامن عشر .

دنت ساعة زوالها . ولما أراد ملك فرنسا إصلاحها تصدىّ له زعيمها متأبياً عليه كل تدخل ، وشجر نزاع بينها وبين الدولة كانت خاتمته إلغاء الرهبنة اليسوعية سنة ١٧٥٩ م فى البرتغال ، وسنة ١٧٦٤ م فى فرنسا ، وسنة ١٧٦٧ م فى أسبانيا ونابولى . وأخيراً فى سنة ١٧٧٣ م اضطر البابا كليمندس الرابع عشر تحت ضغط الحكومة وتلبية لمطالب العصر أن يلغيها فى الكنيسة كلها . وتمّ الفوز لأنصار الاستنارة الذهنية على نظريات اليسوعيين .

الدولة المطلقة السلطان :

إن كانت آراء القرون الوسطى قد ناصرت الكنيسة ، فان نهضة الاستنارة الذهنية وقفت إلى جانب الدولة تسندها وتعضدها . وكانت سلطة الدولة قد بدأت ترفع رأسها منذ القرن الرابع عشر ، ووقفت على قدميها فى غضون القرن الخامس عشر فى عهد ملوك فرنسا ، ثم أُسند ظهرها بعضد قوى فى عهد الاصلاح . وأخذ المصلحون اللوثريون ينادون (على نقيض كالفن وجماعته) بأن يُخلع كل سلطان خارجى على الدولة ، وتقتصر وظيفة الكنيسة على نشر رسالة الانجيل وممارسة الأسرار المقدسة . وأُودعت كل شئون الحياة المدنية أيدى الدولة ، كما مُنحت أيضاً حق التصرف فى كثير من شئون الكنيسة . وأبدت الدولة رغبتها

فى السيطرة على الكنيسة ، لا فى الأقاليم البروتستانتية فقط ، بل فى الكاثوليكية أيضاً ، وراحت تبسط سلطانها على الثقافة فى الداخل والخارج . وهنا أيضاً استعانت الدولة بنظريات الاستنارة الذهنية . وذلك لأن المطارحات الفلسفية فى أصل السلطة السياسية وطبيعتها قد أدت إلى استنباط النظرية التى عُرفت فى التاريخ السياسى بنظرية «العقد الاجتماعى» . وهى نظرية ترجع فى أصلها إلى عهد الفيلسوف الاغريقى أرسطو ، وعرفت أيضاً فى غضون القرون الوسطى ، ولكنها الآن أبرزت كل القوات الكامنة فيها .

وقال المجتهدون والمفكرون فى ذلك العصر إن هذا «العقد الاجتماعى» أُبرم لصالح الدولة دون سواها من الهيئات ، وان الفرد مدين بالولاء للدولة وحدها التى تضمن له حريته الطبيعية . ومن ثمّ تكون الدولة صاحبة كل سلطة عامة ، وتكون كل ممارسة لهذه السلطة مردّها إلى توكيل أو تفويض من جانب الدولة . ومن ثم تكون سلطة الدولة مطلقة ، وما سلطة الكنيسة إلا مستمدة منها . وإلى هنا كانت هذه الآراء مجرد نظريات ، وظلت كذلك قروناً طوالا ، ولكن نهضة الاستنارة الذهنية ألهبتها ، وأشعلت النار فى الفتيل .

وعلى مقتضى مبادئ الاستنارة الذهنية لم يكن التقيد بنتائج التطور التاريخى أمراً محتوماً ما دامت تناقض الآراء الفلسفية الحديثة ، أو لا تنسجم مع العقل . والدولة حرة فى أن تجعل قانون العقل الطبيعى سلطة إيجابية ، ومن حقها أن تبطل القوانين القائمة وتستحدث التشريع الملائم لروح العصر ، وأن تلغى الشرائع التقليدية التاريخية وتستبدلها بشرائع تتفق مع شرعة العقل المستنير . وهكذا قوى سلطان الدولة وراحت تسنّ الشرائع والقوانين ، وآمن القرن الثامن عشر بقوة الدولة فى القضاء على نقائص المجتمع وعيوبه بالتشريع ، وإقامة قانون جامع عادل يتفق مع شرعة العقل ، ويحمل بين ثناياه أسباب السعادة والحرية .

واكتسحت العالم موجة من الاصلاح التشريعى قضت فيها على كل ما هو ميت . وكانت الثورة الفرنسية محاولة بارعة لخلق العالم من جديد ، وتثبيت حقوق الانسان الخالدة فى الحرية والمساواة والاخاء . واستقبلها الناس بالآمال الكبار والحماس الدافق . وأُعلن إبّان الثورة أن سلطان الدولة ، وسلطان

القانون الوضعى ، وسلطان العقل ، هى القوى المسيطرة على العالم التى تزمع أن تحرر الانسانية من أغلال الماضى .

على أن الثورة انتهت بعهد الارهاب ، وحلّ الرعب محل السعادة التى حلم بها القوم ، واختنقت الحرية بطغيان حكم أوتوقراطى عسكرى . وأدرك الناس أن الدولة ليست على كل شىء قديرة ، وأن القانون لا يسعف ولا يغنى ، وأن الانفصال عن الماضى لا يرفع المجتمع إلى ذروة السماء ، بل يهبط به إلى هاوية الجحيم .

وفى هذه الحركة الناشطة ، والانقلاب المريع ، اختفت الدولة الارستقراطية القديمة بامتيازاتها وتمييزها بين الطبقات . وأخلت الطريق للدولة الديمقراطية القائمة على المساواة فى الحقوق والواجبات لكل فرد من أبناء الدولة .

وحتى كنيسة النظام القديم قد أُبتلعت فى هذه الحركة ، فمنذ منتصف القرن الثامن عشر راحت الدولة تصيغ الكنيسة بين أيديها كما تصيغ الشمع ، وتدخلت فى أخص الشئون الكنسية ، وأصدر عاهل الجرمان مجموعة من الشرائع لاصلاح الرتب الكهنوتية ، والاشراف على أموال الكنيسة ، وانشاء مدارس الدين العامة بدلا من المدارس الخاصة التى تولتها الكنيسة — كل هذا لتثقيف رعاة الشعب تثقيفاً يتفق مع مبادئ الدولة الحديثة . وبرزت الدولة صاحبة السلطان المطلق فى كل شىء .

وفى فرنسا خطت الثورة خطوات أوسع فى هذا السبيل ، فألغت الكنيسة بمعناها التقليدى ، وأمست الادارة الكنسية جزءاً من الادارة السياسية ، وتجاهلت الدولة سلطان الكنيسة والبابوية والدين ، وكادت المسيحية ذاتها تمحى فى «عهد الارهاب» . ولكن نبوليون أعاد بمعاهدة سنة ١٨٠١ م مكانة البابوية والكنيسة فى القانون الفرنسى ، على أن مواد هذا القانون صيغت متأثرة بمبادئ الاستنارة الذهنية من حيث ادماج إدارة الكنيسة فى إدارة الدولة .

وكان من آثار هذا التطور الانقلابى الذى أحدثته فلسفة القرن الثامن عشر أن انهارت نظم الكنيسة القديمة — البروتستانتية والكاثوليكية على السواء — كما انهارت الرهبنة اليسوعية .

فكرة التسامح :

ولم يكن أثر الحركة الفكرية التى عُرفت فى ذلك القرن بنهضة الاستنارة الذهنية — قاصراً على إلغاء الرهبنة اليسوعية ، وبسط سلطان الدولة على الكنيسة ، بل ظهر الأمر جلياً فى ناحية أخرى . فالرهبنة اليسوعية قد أعادها البابا بيوس السابع فى سنة ١٨١٤ م — وعهد الدولة المطلقة السلطان لم يلبث طويلا حتى اندثر . أما الثمرة الخالدة التى أنضجتها تلك الحركة العقلية فهى مبدأ التسامح . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تجنح عادة إلى التزمت والتصلب فى العقيدة ، وكان الخضوع للبابا وللأساقفة — أى الانتماء إلى هيئة الكنيسة — من مقتضيات خلاص الفرد . وأحسّت الكنيسة أن من حقها خنق صوت المعارضة وإخضاع الهراطقة الخارجين على العقيدة بالقوة والعنف ، وكثيراً ما ذهبت إلى حد توقيع عقوبة الموت على الهراطقة المتعنتين ، لأن الهرطقة كانت فى نظرها جريمة شنعاء وخطراً على الجماعة المسيحية . وحتى الكنيسة البروتستانتية لم تسلم من لوثة هذا التزمت والعنف ، واستعانت بالسلطة الزمنية لتوقيع العقوبة على مخالفيها . وأشهر تلك الحوادث الحكم بالموت على ذلك الأسبانى — ميشيل سرفيتوس — فى جنيف سنة ١٥٥٣ م بسبب عقيدته المضادة للثالوث .

ولكن ما بزغت أنوار النهضة العقلية حتى اشتد ساعد مبدأ التسامح ، وحمل لواءه فردريك الأكبر فى ألمانيا ، وأعلام الثورة فى فرنسا . وصدر فى سنة ١٧٨٩ م قرار حقوق الانسان الذى كفل حرية العبادة الدينية . واليوم زالت فى كل البلدان المتحضرة كل رقابة على آراء الفرد الدينية ، وشملت الحرية الدينية الكاملة كل العالم المسيحى ، بل أدمجتها فى دساتيرها أكثر البلدان غير المسيحية . ولا تستطيع الدولة أن تقيد من هذه الحرية إلا بأساليب اللف والدوران وابتكار الطرق الخفية الماكرة .

كان هذا التسامح الدينى أحلى ثمرة أنضجتها النهضة العقلية فى القرن الثامن عشر ، وانصرم ذلك القرن بعد أن أكمل مهمته ألا وهى تدمير سلطة الكنيسة الزمنية . ومن ثمّ انفتح أمام الكنيسة باب ولجت منه إلى مستقبل مجيد قدر لها فيه أن تجدد حياتها بقواها وأساليبها الروحية .

جون وسلى :

على أنه فى وسط هذه المعمعة العقلية سرت فى بعض القلوب نهضة روحية جعلت الدين شعوراً بالقربى إلى الله ، لا مجرد المطارحات العقلية حول العقائد والطقوس ، و إنك لترى هذه النهضات الروحية الصوفية فى ألمانيا يتزعمها جماعة «التقويين» فى مدينة «هال» ، وفى الكنيسة الكاثوليكية ذاتها يقودها الكاهن الأسبانى مولينوس ، وفى أميركا حيث تسمى «اليقظة العظمى» ، وبين الأخوة الموارفيين وهم جماعة من البروتستانت من سلالة الهوسيين الذين فرّوا من بوهيميا وموارفيا فى أواسط أوربا إلى ألمانيا ، وهناك أقطعهم حاميهم وراعيهم الكونت زنزندورف مستعمرة فى ساكسونيا عاشوا فيها حياة دينية روحية حية ، حتى لقد اعترفت بهم الدولة البروسية فى سنة ١٧٤٢ م كنيسة مستقلة . وقد عرف عن أولئك الغيرة المتقدة فى إيفاد البعثات الدينية إلى الخارج . وفى عهد زعيمهم «زنزندورف» أوفدت بعثاتهم إلى جزر الهند الغربية ، وجرينلند ، وجورجيا ، وبنسلفانيا ، وغيانا الهولندية ، ومصر ، وجنوب أفريقية .

على أن أعظم الذين حملوا لواء هذه النهضة الروحية فى القرن الثامن عشر هو بلا شك جون وسلى الانكليزى . وكان هو وزملاؤه قد أفرزوا أنفسهم للحياة التقوية وفق مطالب الدين ، فصاموا وصلوا وافتقدوا المرضى والفقراء والمسجونين حتى لقد سخر منهم الرفاق والخلاّن ، وأطلقوا عليهم إمعاناً فى السخرية لقب «النادى المقدس» . وبين هؤلاء كنت ترى ثلاثة هم : «جورج ويتفيلد» ابن صاحب فندق ، والأخوان تشارلس وسلى وجورج وسلى ، وكان والدهما قسيساً . وقد رُسم الثلاثة قسوساً فى كنيسة انكلترا ، ونزحوا معاً للعمل فى مستعمرة جورجيا الجديدة بأميركا ، ثم عادوا ليوقظوا شعب انكلترا من إهماله وبلادته وينفثوا فى البلاد كلها روحاً جديدة .

وان التاريخ ليحسب «جون وسلى» من أعاظم المصلحين الدينيين ، ويضعه فى مصاف بندكت ، وفرانسز ، وأغناطيوس لويولا . وهو لم يتزعم ثورة كما فعل لوثر ، ولم يؤسس ديناً جديداً كما فعل كالفن ، و إن كان قد أنشأ طائفة جديدة فى المسيحية ، فلم يكن ذلك من جوهر الاصلاح الذى قام به ، بل

كان حادثاً عرضياً على هامش جهاده ودعوته . وهو كثير الشبه بالأسبانى العظيم أغناطيوس لويولا ، فلم تكن عظمته فى قوة ابتكاره ، بل فى سحر شخصيته ، ومضاء عزمه ، وقوة تأثيره ، وتضحيته البالغة التى تكاد تكون فوق الطاقة البشرية .

أما بعثته فى جورجيا فلم تلق توفيقاً ، ولم يتمكن من الاتصال بالهنود سكان البلاد الأصليين ، وصادفته صعاب وعقبات لم يحاول أن يتخطاها . ومع أنه تعلم الألمانية والأسبانية والايطالية أثناء غيابه عن وطنه ، إلا أنه لم يتعلم لغة الهنود الوطنيين ، ونفر أيضاً من المستوطنين الانكليز أبناء جلدته ، وأعثرهم بعظاته ، وأقواله اللاذعة ، وتعاليمه التى لم ترقهم . وهناك أحب فتاة ، ابنة أحد زعماء النازحين المستوطنين ، ولكن شيوخ الكنيسة الموراڤية الذين التمس عندهم النصح أشاروا عليه بالعدول عن هذا الزواج ، وقد تزوجت الفتاة من شخص آخر فحرمها الشركة المقدسة لأسباب لم يجسر على البوح بها ، وأعقب هذا كله إجراءات قانونية ، وغدت المستعمرة كلها تطنّ كخلية من النحل ، حتى اضطر وأخوه إلى أن يعودا من حيث أتيا .

فى سنة ١٧٣٧ م عاد إلى انكلترا مضنى القلب ، موجع الفؤاد . وكان الموراڤيون قد أدخلوا إلى نفسه بعض الريب فى أمر خلاصه ، وحملوه على أن يفهم أنه جدّ مفتقر إلى الخلاص بالايمان . وفى تلك الفترة يقول عن نفسه : «إنى مفتقر إلى إيمان حىّ وثقة مطمئنة بالله ، حتى أشعر أن خطاياى قد غفرت بالمسيح ، وانى قد صولحت مع الله . ويحى أنا الذى نزحت لأخلّص أهالى جورجيا ، فأجد نفسى بعيداً عن هذا الخلاص . . .» .

وتسوقه قدماه إلى اجتماع ليلىّ لجماعة الموراڤيين ، وهناك تُصهر نفسه باختبار عجيب ، وتسرى فى قلبه حرارة روحية ، ويشعر أن المسيح قد حمل عنه خطاياه ، وأنقذه من ناموس الخطية والموت . ومن تلك الليلة يصير الاعتقاد بفساد الطبيعة البشرية ، والخلاص بالايمان الذى يبرر الانسان ، وحاجة المرء إلى الثقة الشخصية — تصير هذه من العقائد الأساسية عند جماعة الميثودست ، وهى الجماعة التى أنشأها هذا الزعيم الروحى .

وإذ تضطرم نفسه بسعير هذا الاختبار الجديد ، ينادى بين الناس فى

حماس لا يخمد ، داعياً إياهم إلى الايمان الشخصى بالمسيح . ولم تكن له كنيسة يرعاها ، فكان يعتلى أى منبر يقدَّم له ، وكان يعقد اجتماعاته فى الخلوات والأماكن الرحيبة . وقد حقد عليه بعض الأساقفة والقساوسة ، وتوجسوا خيفة من الآثار التى كانت تطبعها عظاته فى قلوب سامعيه ، حتى لقد بلغ بهم الرعب أن حرموه الدخول إلى كنائسهم ، وأثاروا عليه الدهماء فكانوا يرجمونه ، ويهاجمون سامعيه ، ويعطلون اجتماعاته . على أن كل هذا لم يكن ليثنى الرجل وصحابته عن المضىّ فيما انتووا ، مسوقين فى ذلك بهاتف روحى شديد الالحاح على نفوسهم . فكان وأصحابه يخطبون ويعظون أينما وجدوا — فوق قبر فى بستان كنيسة ، أو فوق مقعد فى ساحة من ساحات الاعدام العامة ، أو فوق منصة فى سوق من الأسواق الحاشدة . وهرع إليه جماهير غفيرة من عمال المناجم حول مدينة برستول لسماع عظاته ، وكانوا يذرفون — من فرط التأثر — دموعاً تخطُّ مجارى بيضاء فى وجوههم المعتمة بسخام الفحم ، ويتنهدون بأنات محرقة وهم يستمعون . وذلك لأنه كان يتحدث إلى قلوبهم ، فيشعرهم ان الله يُعنى بهم ، وأن المسيح مات لأجلهم ، وأن نفوسهم أغلى الأشياء فى العالم كله . وكثيرون من الفقراء فى تلك الأيام ما كانوا قد دخلوا كنيسة ، ولا سمعوا أحداً يحدثهم بمثل هذا الكلام ، فلا غرابة أن تستثير هذه الدعوة نفوسهم . أما المتهاملون المنافقون ، فكان يحدثهم بأقوال كالرعد القاصف ، ويؤنبهم بألفاظ كالسياط المحرقة ، معلناً لهم غضب الله على شرّهم وبرودهم ، فكانوا يرتعبون ويندمون . . .

وفى تلك الفترة من التاريخ كنت ترى وسلى — رجلا قمئ الجسم ، أنيق الملبس ، بوجه هادئ وردى اللون ، وشعر طويل بخصلات متجعدة فى أطرافه — يجوب الريف والحضر واعظاً منذراً ، تارة فوق تلال الريف المتلمعة بالعشب ، وأوديتها الصغيرة المكسوة بالخضرة ، ليتحدث إلى القرويين والصيادين الذين أحبوه ولبوا نداء رسالته ، وأخرى وسط الجماهير المهذبة الراقية فى المدن الكبرى. وفى زمهرير الشتاء كنت تراه فى الخامسة صباحاً يخوض وسط الثلوج ليعقد اجتماعاً فى قرية جبلية ، ثم ينطلق وسط زوبعة ثلجية ليعقد اجتماعاً مسائياً فى بلدة أخرى . ومرة ذهب ليعظ فى كنيسة والده القديمة ، ولكن القسيس حال بينه وبين المنبر ، فوقف على قبر أبيه فى الحديقة ، والتف حوله جمهور كبير يستمع إليه

ساعات طوالا . وكثيراً ما وقع بين أيدى الدهماء فكان ينجو بحياته بطرق عجيبة . وظلّ طيلة حياته دءوباً مجاهداً ، يذرع بلاده من أقصاها إلى أقصاها ، وقد قيل انه قطع فى خلال خمسين سنة ٢٥٠,٠٠٠ ميل وألقى ٤٠,٠٠٠ عظة وعبر القناة الأرلندية اثنتين وأربعين مرة ، وزار أسكوتلندا ، وويلز ، وهولندا ، وألمانيا .

كان وسلى يدعو الناس للاقبال إلى الله لنيل الغفران والحياة الجديدة ، وحيثما ذهب أنشأ حلقات من الناس تجتمع أسبوعياً للصلاة وتبادل المعونة ، وممارسة الحياة المسيحية الحقة ، وإنفاق المال على المحتاجين والمعوزين . وقد كلف هو نفسه بمعونة الفقراء وإسعافهم ، حتى قيل عنه انه بعد أن بلغ الثانية والثمانين من العمر — كان الناس يرونه سائراً على قدميه ، غائصاً فى أوحال لندن الثلجية — يستعطى من القادرين لشراء ثياب لتدفئة العراة المساكين .

وفى العمل العظيم الذى اضطلع به ، افتقر إلى كثيرين من الأعوان والأنصار ، ولم يكن يلقى عطفاً إلا عند قليل من الرعاة ورجال الكنيسة ، فعوّل على أن ينهض بالعمل العلمانيون ممن امتلأت قلوبهم بالشجاعة والتضحية . وكان موالياً لكنيسة انكلترا ، مخلصاً لها الاخلاص كله . وفى بدء الحركة كان وصحابته يصومون أيام الأربعاء والجمع على حسب ما تقضى به طقوس الكنيسة . ولم يكن ليرضى أن يعقد اجتماعاته فى مواعيد العبادة أيام الآحاد ، وكان يحثّ أتباعه ومريديه على تناول الشركة المقدسة فى كنائسهم المحلية . ولكنه أحسّ بعد ذلك بحاجته القصوى إلى رعاة يتولون الأمور ، وأحسّ أن تشدد رجال الكنيسة يحول بينه وبين بلوغ مقاصده فى «تثقيف الجهّال ، وإصلاح الأشرار ، وتأييد الأبرار» ، فأقبل على تنفيذ الفكرة التى كانت تجول بخاطره ، وهى أن الأسقف والقسيس شخص واحد لا فرق بينهما ، وأن القسيس يقدر أن يرسم غيره . وفعلا رسم بيديه رعاة لجماعاته ، وإذ يفعل هذا الصنيع المضاد لعقائد كنيسة إنكلترا ونظامها ، يخلق من أتباعه «الميثودست» طائفة مستقلة ضمن الطوائف البروتستانتية .

وعند موته فى سنة ١٧٩١ م كان فى جماعته ألف من الوعاظ المحليين ، وثلاثمائة من المتجولين ، وأكثر من ٨٠,٠٠٠ عضو فى انكلترا ما عدا ١٩١ واعظاً

و ٦٠,٠٠٠ عضو فى أميركا . أما اليوم فان عدد الرعاة والوعاظ يحصى بالألوف ، ويحصى الأعضاء بالملايين . على أن الكنيسة المثودية كانت فى أميركا منذ نشأتها وما تزال «أسقفية» فى نظامها . وقد رسم وسلى «توماس كوك» أول مشرف عليها ، وأطلق هذا على نفسه لقب «أسقف» ، فغدت الكنيسة «أسقفية» منذ ذلك الحين .

***

هذه لمحة خاطفة عن النهضة الروحية التى اضطلع بها «جون وسلى» فى القرن الثامن عشر . وكان لتلك النهضة آثارها فى تغيير أخلاق الشعب وعاداته ، وفى الاهتمام بشئون الدين وطهارة الحياة وشرف النفس ، وفى العناية بالفقراء والمظلومين والمدوسين . ففى سنة ١٧٨١ م يؤسس «روبرت ريكس» أولى مدارس الأحد لتنشئة الأحداث فى أصول الدين ، وفى القرن التالى تنهض «اليزابث فراى» داعية إلى إصلاح حال السجون الرهيبة فى انكلترا وأوربا . وفى إنكلترا وأميركا تستيقظ الضمائر للجهاد فى سبيل القضاء على تجارة الرقيق ، ويكتب وسلى نفسه رسالة فى أخريات حياته إلى «ولبرفورس» بطل الجهاد فى هذه الحركة — حاثاً إياه على الكفاح لازالة هذه اللوثة القبيحة من جبين الانسانية .

القرن التاسع عشر

[الروح الرومانتيكية — الحنين إلى المسيحية التاريخية — انفصال الدولة عن الكنيسة والكنيسة عن الدولة — البعثات المسيحية — وليم كارى — روبرت موريسون — جون وليمز — الكسندر مكاى — هنرى مارتن] .

ولد القرن التاسع عشر وسط أعاصير الثورة الفرنسية ، وكان العالم فى دور من أدوار الانحلال الاجتماعى والفكرى . فلقد شهد القرن الثامن عشر نهضة الاستنارة الذهنية التى سلبت الناس سعادة النفس ، وسماء الفكر ، وذلك الايمان الوطيد الذى كان ملاذاً وحمى . وحطمت الشكوك الفلسفية تلك النظريات التقليدية الراسخة التى اعتزت بها الكنيسة دهوراً ، والتى تسلطت على الفرد منذ القرون الوسطى إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وأمسكت بيده فى سبل الحياة الآمنة الهادئة . وبزوال النظريات الدينية التقليدية عن الكون التى سيطرت على الحياة المعنوية الروحية فى الفرد وفى المجتمع ، زالت أيضاً الدعامات التقليدية التى قامت عليها الكنيسة والدولة . وكان من آثار تلك الاستنارة العقلية المجردة نشوب الثورة والاضطراب .

ومنذ مولده جابه القرن التاسع عشر أسئلة خطيرة : هل يمكن إعادة الدعائم التى تحطمت ؟ وهل يعود المجتمع المحطم بنياناً راسخاً وطيداً ؟ وهل يسترد العالم المسيحى إيمانه السليم الذى يعصمه عن التردى فى تيه الضلالات العقلية ؟ هذه هى الأسئلة التى أجاب عنها تاريخ الكنيسة فى القرن التاسع عشر .

وكانت الثورة قد كلفت الكنيسة الفرنسية ممتلكاتها الأرضية ، لأن الدولة صادرتها وجعلتها ملكاً لها . كذلك تطورت الحوادث السياسية فى ألمانيا وسارت فى

هذا الاتجاه عينه ، وأعيد تنظيم الكنيسة ، بمقتضى معاهدات مع الكرسى البابوى ، وعدلت حدود الأبرشيات وفق التخوم الاقليمية الجديدة .

و إلى جانب هذا التطور الخارجى ، استيقظت روح داخلية — روح رومانتيكية أى تغلّب الخيال والعاطفة على العقل — وكانت بمثابة ردّ فعل للنظريات والآراء الفلسفية التى نادى بها القرن الثامن عشر . وكان ذلك القرن قد أكبر شأن الفرد ، وخلق عقلية مجردة لم تقم وزناً إلا للوسائل والغايات النفعية ، وأنكر المعجزات حاسباً إياها منافية للعقل ، وحطّ من شأن الكنيسة والدولة بطريقة تحكمية ثائرة . والآن يهلّ القرن التاسع عشر فيتمرد على هذا التطرف ، وتعقب الثورة الجامحة فترة ينصرف فيها العالم إلى الاحياء والتعمير .

وكان جان جاك روسو الفيلسوف الفرنسى قد مهد إلى هذا الانقلاب الفكرى بانجيله عن الطبيعة ، الذى حث به معاصريه على الاستمتاع بالخلوات فى رحاب الطبيعة الجميلة ، و إشباع الخيال والعواطف بجلال الجبال الشامخة ، وروعة المناظر الخلابة . وهو الذى سفّه الفلسفة العقلية واستبدل بها الأشواق القلبية ، التواقة ، التى تحن إلى الله الحى ، والتى جعلها أولى مبادئ الدين ، والدليل الذى لا يبارى فى إثبات حقائقه القديمة . وعجيب أن تجتمع فى هذا الرجل الحقير فى أخلاقه ، ولكن العبقرى فى بصيرته — تلك الآراء التى كان مقدراً لها ، لا أن تذكى ضرام الثورة وحسب ، بل أن تخلق أيضاً رد الفعل الذى يعقب الثورة . فبعقده الاجتماعى أعلن سيادة الشعب وسلطانه ، وحطم فى فرنسا السلطة الملكية ، ثم الكنيسة والدولة كليهما ، ولكن باعلانه مفاتن الطبيعة ، والكشف عن أسرارها وروائعها وقواها الخالدة ، وبدفاعه عن مطالب القلب ونوازعه ضد منطق العقل وتحكمه ، كان مبدع الحركة التى جددت حياة الكنيسة والدولة معاً .

أفلت شمس الاستنارة العقلية التى تميز بها القرن الثامن عشر ، وزال معها رواء الحقائق الباردة التى أنتجتها أذهان العباقرة المفكرين ، وتاق القرن التاسع عشر ، لا إلى النقد والتجريح ، بل إلى العقيدة والاقتناع ، إلى إيمان الآباء الأولين ، إلى الخبز الحى لتغذيته روحياً بدل تلك الحجارة التى قدمها القرن المنصرم . وسرة أخرى تجد أسرار المسيحية مرتعاً خصيباً فى قلوب الناس .

وكان حكم الارهاب الذى اختتمت به الثورة الفرنسية ، والحوادث الحربية العظيمة التى طلع بها القرن التاسع عشر ، والنزعات الأخلاقية السامية التى خلقتها حرب الحرية — كانت هذه كلها مجتمعة بمثابة أدوات حرث عمَّقت الأخاديد التى غُرست فيها بذور الكلمة الالـٰهية لتنبت للناس خيراً و بركة .

وبعد عصر النقد والالحاد ، يجئ عصر الحنين إلى المسيحية التاريخية ، الايجابية ، الموحى بها إلى القلوب . وبعد فوضى الحرية التى أعقبت الثورة الفرنسية ، يلتمس الناس سلطة عليا ثابتة وطيدة الدعائم ، وبعد أن تشتط العقول فى الاجتهاد والتحليل ، يشتد الظمأ إلى إيمان يشبع القلب وينقذ من العالم ومن الخطية .

من ثم تنهض الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية فى بكور القرن التاسع عشر إلى حياة جديدة . وتتطلع الكنيسة الكاثوليكية لأول وهلة إلى رومانتيكية القرون الوسطى ، وقد كانت تلك القرون عصوراً امتلأت بكل عجيب من خفـايا الدين وأسراره ، وأزهرت فيهـا السلطتان العظيمتان — الامبراطورية والبابوية — ولم تبق حيَّة إلا البابوية ، فاليها تتطلع الأبصار . ومرة أخرى نرى أبهـة البابوية التاريخية القوية ، ومتانة نظـام الكنيسة الكاثوليكية ، وروعة العبادة الكاثوليكية التى أخضعت كل الفنون لخدمتها وألهبت العواطف الدينية — نرى هذه كلها تؤثر بسحرها فى النهضة الرومانتيكية الحديثة . ومرة أخرى نرى العابدين من العلمانيين يتقدون حماساً وغيرة على كنيستهم ، حتى ليعود كثيرون من زعماء البروتستانتية إلى أحضان أمهم القديمة . على أن هذه النهضة تلتزم فى سيرها المبادئ التى وُضعت فى مجمعى كونستانس وبال ، وتكره المواكب والمظاهر البراقة ، والحج إلى بيت المقدس ، وعبادة آثار الأقدمين ، وتأبى على البابوية السلطة المطلقة — بل تؤمن فى دخيلة نفسها بأن البروتستانتية وضع من أوضاع المسيحية المقبولة لدى الله . وبذلك توثقت العلاقات الودية بين الكاثوليك والبروتستانت .

و إلى جانب الرومانتيكية الكاثوليكية ، تنهض أيضاً الرومانتيكية البروتستانتية التى كان من أبرز آثارها أن اتحدت الكنيستان اللوثرية والمصلحة ، وتكونت منهما فى بروسيا كنيسة إنجيلية واحدة متحدة .

تلك كانت أبرز ظاهرة فى بكور القرن التاسع عشر فى تاريخ الكنيسة — تفوق الخيال والعاطفة على قوة العقل والذهن .

انفصال الكنيسة عن الدولة :

وإذ ينتصف القرن نشهد ظاهرة أخرى كان لها أثرها فى تطور تاريخ الكنيسة . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى سير التاريخ وتطوراته من القرون الوسطى إلى يومنا هذا ، وإلى العوامل التى قوت مكانة الكنيسة بين الدول العظمى فى الجماعات البشرية ، نجدنا فى منتصف هذا القرن أمام مرحلة جديدة تنتهى بها العلاقات القديمة بين الدولة والكنيسة . فمن قبل أى بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، خضعت الدولة يوم كانت طفلا فى المهد لسلطان الكنيسة . كان هذا هو الحال فى عهد جريجوريوس السابع وإينوسنت الثالث . ثم لما بلغت الدولة رشدها واشتد ساعدها ، أخضعت الكنيسة لسلطانها . وقد بدأ هذا التطور فى القرن الرابع عشر وبلغ ذروته فى القرن الثامن عشر . فأولا تخضع الدولة للكنيسة ، ثم تخضع الكنيسة للدولة . أما الآن فيتبدل الموقف ، وتنمحى هذه التبعية المتبادلة ، ونشهد من منتصف القرن التاسع عشر حركة تهدف إلى تخليص الكنيسة من الدولة ، وتخليص الدولة من الكنيسة ، بحيث تكون كنيسة حرة فى دولة حرة . وكانت تلك حركة أسندها تطور الجماعات ، وهى ما تزال المثل الأعلى للتوفيق بين الحرية الكاملة فى الحياة الاجتماعية وبين سلطان الدولة الحديثة .

فالدولة ليست السلطة الوحيدة ، ولا هى السلطة الأقوى والأعلى . والدين الحق لا يستمد قوته ونفوذه من سلطان الدولة بل من ثقافته وآدابه وقوته الروحية الكامنة فيه . أما الدين الذى تسنده الدولة بقوانينها وشرائعها وحمايتها فهو دين هزيل لا حيوية فيه ، ولا خير منه لأرواح الناس وأخلاقهم وحياتهم . والحق أن ثقافة الشعوب لا تخلقها الدولة ، بل يخلقها الدين الذى يؤمن به الشعب ، وأنت مستطيع أن تحكم على مدى رقىّ الشعب وثقافته وروحه من الدين الذى يدين به . وإيمان الانسان ، لا معرفته وعلمه ، هو الذى يبعث فيه مقومات الحياة الفضلى ، ويهيئ له أسباب الكرامة والقدر المرموق .

من ثمّ نرى الاتجاه الفكرى فى العالم المتحضر يسير إلى فصل الدين عن الدولة ، فتتولى الكنيسة مهامّها الروحية فى حرية تامة ، وتضطلع الدولة بمهمة الحكم وصيانة النظام والقانون . ونرى شعوب الغرب وزعماءها يجاهدون لترقية الاحساس الاجتماعى الذى يُعبّر عنه بالوعى القومى مجرداً عن دين معين — وعياً قومياً يتغنى بالوطن ، ويدعو إلى إعزازه ، والافتخار به ، والذود عنه ، دون أن يصطبغ بأية دعاية دينية — وعياً ينادى بالكلمة المأثورة التى يقولها الشرق اليوم نظرياً «الدين لله والوطن للجميع» .

وقد كان الوعى القومى فى بلدان الغرب المسيحية وليد عصر النهضة ، ولكنه الآن يقوى ويجرف أمامه كل عصبية دينية ، وتغدو الوطنية بعيدة عن النعرة الدينية أو المذهبية .

هذا هو المثل الأعلى فى حياة الشعوب الراقية المتحضرة ، أما الاعتصام بالعصبية الدينية فى أمة أو فى جامعة من الأمم ، أما الخلط بين الوطنية والدين ، أما احتضان الدولة لدين رسمى والمناداة به ليل نهار وتمييزه على غيره من الأديان — فهذا رجوع إلى القرون الوسطى وتعثر فى سوكب الحضارة . وقد كان هذا شأن أوربا المسيحية فى تلك العصور ، وما الحروب الصليبية إلا مظاهر لتلك العصبية الدينية التى عفا عليها الزمن ، وخلفتها وراءها الأجيال فى التطور الحديث .

البعثات الدينية :

وكان من آثار هذه الحياة الرومانتيكية الجديدة التى اختمرت فى الكنيسة وأيقظت روحانيتها ، ومن آثار الحرية التى ظفرت بها فى انفصالها عن الدولة — أن نشطت فى هذا القرن الدعوة إلى المسيحية فى بلدان العالم ، ونزحت البعثات الدينية من ألمانيا وسكندناوة وفرنسا وهولندا وأميركا وانكلترا إلى كل قطر من أقطار الأرض كلها . وليس فى الأمر غرابة ، فالكنيسة الحيّة هى الكنيسة المجاهدة خارج حدودها المحلية الضيقة ، ولا سيما أن نشر الدعوة من المبادئ الأساسية التى قامت عليها المسيحية ، ومن الوصايا الصريحة التى أوصى بها ربها وسيدها . ولقد عانى المسيحيون فى كل العصور صنوفاً من الاضطهاد والتعذيب والألم والموت

فى سبيل قيامهم بهذه الدعوة . ولن يمكن لأية قوة فى العالم أن تخمد هذا الصوت أو تصد هذا التيار .

وإنها لقصة رائعة التى كتبها أولئك المرسلون الذين نزحوا عن الأهل والوطن إلى مجاهل الأرض ، فسطروا بدمائهم وتضحياتهم أبهر صفحات الجهاد فى سبيل قضية رابحة . وقبل أن يفتتح القرن كان رجال بعثة لندن قدعبروا الغمر ، وحملوا رسالة الانجيل إلى شعوب جزائر البحر الجنوبية الشرقية ، وفى سنة ١٨٤١ م كنت ترى أسقفاً انكليزياً يجاهد ببسالة فى نيوزيلندة فى أبرشية مساحتها ٩٦,٠٠٠ ميل ، واستدعى هذا زميلا له ليرعى شعوب الجزر الغربية ، وقد استشهد هذا الأخير — الدكتور باتسون — بأيدى عصابة حسبته خطأ أحد تجار الرقيق . وفى سنة ١٨٤٢ م فتحت الصين موانئها للتجارة الأجنبية فكان المرسلون أوائل النازحين إليها ، ومهّدوا الطرقات المجهولة لمواكب حملت الرسالة فى أثرهم . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة نشبت ثورة «البوكسر» المعادية للأجانب ، وتطورت إلى مذابح رهيبة ضد المسيحيين ، فيها استشهد كثيرون من الصينيين ، وكانت أصول الدين قد غرست عميقة فى قلوبهم فآثروا الموت على الانكار والردّة .

وفى سنة ١٨٥٩ م فتحت اليابان أبوابها الموصدة لدخول الأجانب ، وكانت قد حظرت على كل أجنبى الدخول إلى ربوعها مدى أكثر من قرنين ، منذ وقعت المذبحة الرهيبة التى قتل فيها عدد غفير من المسيحيين الوطنيين ، وحرمت تحريماً باتاً اعتناق المسيحية وجعلت الموت عقوبة من يخالف هذا القانون . وكان الكاثوليك أوائل الوافدين ، فوجدوا أهل القرى يمارسون المسيحية سراً على قدر مااستطاعوا أن يذكروها طيلة هذه المدة . وقد حكم بالموت على كثيرين منهم بسبب إشهارهم مسيحيتهم . على أنه بعد أربعة عشر عاماً من دخول الأجانب صدر قانون التسامح الدينى .

وقبل أن تفتح البلاد أبوابها للأجانب ، كان قد تسلل إليها كاهن أرثوذكسى غيور — يدعى الآب نيقولاى — وبدأ عمله سراً فى بلاد اليابان ، وقد سيم أسقفاً فيما بعد ، وبنيت فى طوكيو ، بمعونة الروس المسيحيين واليابانيين المسيحيين ، كاتدرائية أرثوذكسية .

وفى بلاد الهند كان المرسلون من دنمارك أول من بدأ بنشر الدعوة ، وكان وليم كارى أول مرسل مهّد الطريق إلى بلاد الهند ، ثم هنرى مارتن الذى قضى ست سنوات كاملات مكباً على ترجمة الانجيل إلى اللغتين الهندستانية والفارسية ، واسكندر دف الاسكتلندى الذى أنشأ المدارس للتعليم الراقى بين الطبقات العليا من الهنود .

وكان المرسلون المسيحيون قد دخلوا أفريقية الجنوبية قبل الرحالة والمبشر العظيم داود لفنجستون بقليل ، ولكن هو الذى شقّ طريقاً فى قلب القارة المظلمة ، ودعا زملاءه المسيحيين ليقتفوا خطواته ، فساروا وراءه إلى أبعد مما وصل ، وراحوا يمهدون الطرقات ، وينشرون الدعوة ، وينشئون المدارس ومراكز التدريب ، ويستميلون الناس إلى الله بدعواتهم وحياتهم ، و بروح الولاء والمحبة لأهل أفريقية .

حقاً كان أولئك المبعوثون رسل حضارة ، وحاملى مشعل الانجيل إلى أظلم زوايا الأرض . . .

كان بعضهم رحالة مستكشفين ، يفتحون البلاد و يمهدون الطرق — مثل داود لفنجستون ، ومارى سليسر فى أفريقية ، وجون وليمز فى البحار الجنوبية ، وجدسون فى بورما .

وصار آخرون علماء فى اللغات فترجموا الأسفار المقدسة مثل وليم كارى فى الهند ، ورو برت موريسون فى بلاد الصين ، وهنرى مارتن فى بلاد فارس ، والأسقف باتيسون فى أرخبيل الجزائر ، وفينيا مينوف فى بلاد السرب ، و إيفانس بين الهنود الحمر .

وكان بعضهم أطباء يشفون أسقام المرضى ، ويكافحون الأوباء ويدرسون أمراض المناطق الحارة معرضين أنفسهم لأخطار الموت . ومن هؤلاء الشهداء نذكر الدكتور بنّيل فى أفغانستان . وخدم آخرون فى المستشفيات والتمريض ، بل لقد حملوا فى أجسادهم أعباء المتألمين كما فعل الآب دميان الذى رضى أن يصاب بالبرص ليعرف كيف يعين أولئك المرضى البائسين .

وأفرز بعضهم أنفسهم لخدمة التعليم والمدارس مثل الكسندر دف وميلر فى الهند ، وفى مراكز التعليم الصناعى مثل ستيوارت لوفيدال فى أفريقية ،

وشارلس أبل فى بابوا ، وخدم كثيرون قضية العلم بمشاهداتهم فى البلاد المجهولة .

وقد تجند المرسلون فى القرن التاسع عشر من كل طبقات المجتمع ، ومن كل أصحاب الحرف والمهن :

وليم كارى :

ومن أعظمهم شأناً وليم كارى الانكليزى ، وكان من قبل إسكافياً . وكان أول من دعا قومه لحمل رسالة الانجيل إلى العالم الوثنى ، فسخروا منه فى أول الأمر واستخفوا به ، ولكنه لم ينثن عن عزمه وأجاب الوجلين الذين أرادوا تثبيط همته بذكر المخاطر والأهوال : «انتظروا من الله عظائم الأشياء ، وحاولوا معه عظائم الأشياء» ، ويرحل مع زميل له — جون توماس — إلى شمال الهند ، ويبدأ نضالا عنيفاً لكسب عيشه وأسرته ، ويلتقط اللغة الوطنية ، ثم يطلب أن يصرح له بنشر الدعوة المسيحية بين الأهلين ، ولم تكن الهند قد صارت بعد جزءاً من الامبراطورية البريطانية ، وكانت الشركات التجارية المستغلة الأرض تكره البعثات الدينية . وبعد لأى يدعوه حاكم سيرامبور الدانماركى للاستيطان فى بلاده ، ويعينه على بناء كنيسة ، ويصرّح له بنشر الدعوة . وهنا بدأ كارى مع زملائه يترجمون الكتاب المقدس ويفتتحون المطابع . وكان كارى لغوياً بطبعه وسليقته ، وكان قد تعلم اللاتينية واليونانية والعبرانية قبل رحيله من انكلترا ، فذاع صيته ، لا كمبشر ومترجم فقط ، بل كأستاذ للغات الشرقية فى كلية كلكتا الأميرية . وعلا شأنه وقوى نفوذه فى كل الأرجاء ، وكان لاعتراضه واحتجاجه أثر فى إبطال عادة إحراق الأرامل الهنديات وهنّ أحياء ، وتقديم الذبائح من الأطفال . ومن مطبعته انتشرت الأسفار المقدسة إلى كل أصقاع الهند ، وقد وهب كل ماله الذى ادّخره من عمله للبعثة الدينية ومات فقيراً لا يملك شيئاً . واليوم ترى فى سيرامبور مدرسة جامعة ساهرة على المهمة التى بدأها .

روبرت موريسون :

وثمة عالم آخر من علماء اللغات هو روبرت موريسون ، بدأ يتعلم اللاتينية واليونانية وهو يصنع قوالب الأحذية استعداداً لدخول الجامعة . وكان طيلة الوقت يفكر ويحلم فى حاجة العالم القصوى ويدعو الله قائلا : «أرسلنى إلى حيث يقلُّ العاملون ، إلى حيث تعظم الصعاب» . وقدّم نفسه إلى جمعية لندن للمرسلين ، فأوفدوه إلى بلاد تأتلف لغتها من خمسة وأربعين ألف رسم ، وينطق بالكلمة فيؤدى النطق كثرة من المعانى . أوفدوه إلى بلد تبغض الأجانب ، وكانت قد طردت البرتغاليين والهولنديين من قبل ، ولم تسمح لأحد بالاستقرار إلاّ لبعض عمال شركة الهند الشرقية فى منطقتين محدودتين . أوفدوه إلى إمبراطورية الصين الواسعة الأرجاء ، التى لم يدخلها مرسل بروتستانتى من قبل .

وقبل رحيله تعرف إلى صينىّ ليعلمه اللغة من كتابين كان قد وضعهما المرسلون الكاثوليك . ولم يكن ميسوراً السفر فى سفينة انكليزية إلى بلاد الصين رأساً ، فرحل إلى أميركا أولا وتحيَّن الفرصة للسفر من هناك . وحينما تقدم إلى صاحب السفينة ليوقع أوراقه ، نظر إليه شذراً ورمقه ساخراً وقال : «إذاً تريد ياسيد موريسون أن تقتحم وثنية الامبراطورية الصينية العظيمة» . فأجابه : «لا . ولكن أرجو أن يفعل الله هذا» . ولما بلغ كانتون اكترى داراً حقيرة جداً كانت جزءاً من مصنع فى ضواحى المدينة ، وراح يستزيد من تعلم اللغة الصينية خفية ، وكان هو ومعلمه عرضة لعقوبة الموت ، لأن قوانين البلاد كانت تحرم تعليم «اللسان الصينى الشريف» لبربرى حقير من برابرة الأوربيين . على أنه لم يمض زمن حتى كشفت شركة الهند الشرقية عبقريته ، فاتخذته مترجماً لها ، وقد انتفع بماله ووظيفته فى خدمة القضية التى نزح من أجلها وهى نشر الدعوة المسيحية . وما تمض عشر سنوات حتى كان فرغ من طبع قاموس انكليزى صينى . وبعد انقضاء اثنتى عشرة سنة كان قد فرغ من ترجمة الكتاب المقدس كله إلى اللغة الصينية . وكانت هذه الترجمة أساساً بنى عليه المرسلون الذين اقتفوا خطاه فى السنوات اللاحقة .

جون ويليمز :

وبينما كان كارى فى الهند ، وموريسون فى الصين ، أبحر شاب يدعى جون ويليمز مع زوجته فى التاسعة عشرة من عمرها إلى جزر البحار الجنوبية ، وطفق يعلم سكانها القراءة والكتابة وبناء المساكن ، وأراد أن ينتقل إلى جزر أبعد ولم تكن لديه سفينة ، فبنى لنفسه من مواد غشيمة ، وأدوات قليلة ، وأشجار الجزيرة — سفينة حمولتها سبعون طناً ، وصنع سارياتها من جذوع الأشجار ، وشراعها من السمار الوطنى ، ومرساتها سفطاً من حجارة ، وثبّت ألواحها بمسامير من خشب . وحمل فى «رسول السلام» (وهو الاسم الذى أطلقه على سفينته) رسالة السلام إلى القبائل المحاربة ، وكان لجهاده أبلغ الأثر فى حياة أولئكم القوم . وكانت رحلته الأخيرة إلى جزر ميلانيزيا وكان أهلوها قد طردوا من قبل الرحالة الجرئ الكابتن كوك . وبأيدى هؤلاء الرجال المتوحشين لقى جون ويليمز حتفه .

ولكن دماء الشهداء بذار الكنيسة ، فما انقضت سنوات حتى مال سكان تلك الجزائر إلى المسيحية ، وقام ابن الرجل الذى قتل جون ويليمز بوضع الحجر الأساسى لكنيسة تذكارية بنيت إحياءً لذكراه .

الكسندر مكاى :

ثم تنقضى أربعون سنة بعد موت جون ويليمز ، وإذا بنا نشهد مهندساً شاباً يدعى الكسندر مكاى يرحل لنشر الدعوة فى قارة أفريقية التى استكشفت بعض مجاهلها . وبدأ عمله بتمهيد طريق من الساحل إلى يوغندا . وقطع رحلة شاقة عانى فيها الأمرين من لذع الذباب ، وهجمات الوحوش الكاسرة ، واعتداء قبائل المتوحشين ، ونفاد الماء والزاد والدواء ، ورداءة عربات النقل ، وموت أحد الزملاء ، وقتل اثنين آخرين ، وانكسار الزورق الذى كان قد حمله معه إلى شواطئ البحيرة . . . وعلى الرغم من هذه المشاق التى تفت فى أشد العزائم بلغ يوغندا ، ولم يلق فى أول الأمر مقاومة من ملكها ، فترجم إنجيل متى إلى لغة

القوم ، وراح يعلم الشعب الكسلان الخامل كيف يعمل بيديه ، وعمَّد كثيرين بعد أن آمنوا بالمسيحية . ولكن ملكاً وثنياً جديداً يقلب له ظهر المجن ويطرده من البلاد ، فارتحل إلى منطقة أخرى وظلَّ يبعث برسائل العون والتشجيع للمسيحيين فى يوغندا إلى أن مات فى مقره فى أرض الجهاد والاغتراب . واستشهد كثيرون من الوطنيين المسيحيين فى يوغندا ، وكتبوا بدمائهم قصة تاريخية من أروع قصص الاستشهاد فى سبيل الاعتصام بالدين . وأخيراً دانت يوغندا كلها للمسيحية — ملكها وشعبها — وغدت منارة تتوزع منها الأنوار إلى قلب القارة السوداء .

هنرى مارتن :

ومن فطاحل المرسلين فى هذا القرن هنرى مارتن ، وهو الرجل الذى أوقف نفسه لخدمة الله والناس ، وكان أول من حمل رسالة الانجيل إلى العالم الاسلامى .

ولد هنرى مارتن فى أواخر القرن الثامن عشر فى بلدة صغيرة بانكلترا ، وتلقى علومه فى جامعة كمبردج حيث نال كل جوائز الشرف ، وكان أول الفائزين فى الامتحانات النهائية . على أنه لم يعبأ بالمجد العالمى الذى كان مهيأ له ، وأحسَّ بهاتف داخلى يسوقه إلى بلاد الهند وركوب المخاطر لنشر رسالة الانجيل ، وفى شهر يوليه من سنة ١٨٠٥ م أبحر إلى بلاد الهند فى رحلة استغرقت تسعة أشهر قبل أن تطأ أقدامه بلاد أحلامه وآماله .

وفى أثناء رحلته بدأ يتعلم اللغة الهندية فأتقنها بذكائه الفطرى ، وما انقضت ستة أشهر بعد وصوله حتى شرع فى ترجمة سفر أعمال الرسل وبعض أمثال المسيح إلى اللغة الهندية بمعونة معلمه الوطنى . وأخذ يدرس أيضاً اللغات السنسكريتية والفارسية والعربية . وقبل نهاية السنة الثانية من دراسته كان قد أكمل ترجمة الانجيل كله «العهد الجديد» إلى اللغة الهندية ، وراح يشرف على ترجمته إلى اللغتين الفارسية والعربية التى كان يقوم بها أحد علماء المسلمين .

على أن هذا العالم اللغوى كان عليل الجسم ، ولم تستطع صحته احتمال حرارة الشمس اللافحة ، فأشفق عليه أصدقاؤه وحاولوا إقناعه بالسير على مهل ،

والسفر بحراً للتريض والاستجمام . وإنه لكذلك وإذا به يتلقى نبأ بأن العلماء الذين عرض عليهم الترجمة الفارسية لم يقروا نشرها لكثرة ما بها من المصطلحات العربية ، ولأنها مكتوبة بلغة فصحى لا يستسيغها العامة ، فاعتزم أن يسافر إلى بلاد فارس وبلاد العرب لتنقيح الترجمتين .

وفى أوائل سنة ١٨١١ م ودّع بلاد الهند وداعاً أبدياً لأنه لم يرها مرة أخرى .

وكان السفر إلى بلاد فارس يومئذ شاقاً مضنياً ، وكان الحر فى بداية الرحلة قائظاً لا يطاق ، ولما بلغت القافلة المناطق الجبلية انقلب الجو برداً قارصاً ، حتى كان هنرى مارتن يرتجف من قرص البرد على كثرة ما ارتدى من ثياب . والرجل نحيف عليل يغالب كل هذا بجلد عجيب .

وأخيراً بلغت القافلة مدينة شيراز ، ونزل هنرى ضيفاً على مسلم كريم يدعى جعفر على خان ، وكان من ذوى المكانة العليا ، وقدحمل إليه مارتن رسائل توصية من أصدقاء له فى بلاد الهند . وفى شيراز استعان بمساعد — هو ميرزا سيد على ابن أخت مضيفه — ليعينه على تنقيح الترجمة الأولى التى لم تفِ بالغرض .

وما استقر به المقام طويلا حتى ذاع صيته ، وأخذ يتوافد عليه كثيرون من أعيان المدينة ، من مسلمين وصوفيين ويهود ، للخوض معه فى مساجلات دينية ، ودعوه لالقاء المحاضرات العامة فى المشاكل الدينية .

وفى أواخر شهر فبراير من سنة ١٨١٢ م أكمل مارتن ترجمة الانجيل إلى الفارسية ، وبعد شهر آخر أكمل ترجمة سفر المزامير . وكان يتمنى أن يقدم بيده نسخة من الانجيل لشاه بلاد العجم ، ولذلك يغادر مدينة شيراز التى أقام فيها سنة كاملة ويقوم برحلة شاقة قاصداً تبريز ، ولكن متاعب السفر وأهواله أثرت فى صحته تأثيراً سيئاً ، فعدل عن مقابلة الشاه ، وطلب إلى سفير بريطانيا العظمى أن يقدم النسخة للشاه نيابة عنه .

ولم يبق ثمة أمل فى شفائه إلا بعودته إلى انكلترا ، فانطلق براً إلى الاستانة (مسافة ١٧٠٠ ميل) ولكن قبل أن يبارح حدود بلاد فارس أصيب بداء عياء لم يمهله طويلا ، فمات فى مدينة طوفات فى السادس عشر من أكتوبر من

سنة ١٨١٢ م — مات غريباً عن وطنه ، لم يسمع صوت صديق يواسيه ، ولا يد حبيب تسند رأسه الكليلة ، ولكن ربّه الذى ضحّى بحياته من أجله كان معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة .

***

ولم تقف آثار هذه النهضة الروحية عند نزوح الدعاة والمرسلين إلى أقاصى الأرض ، بل قد ألهبت النفوس لمكافحة المساوئ فى أرض الوطن ، وملأتها عطفاً على الفقراء وعزماً على تحطيم الأغلال التى كبّلت المظلومين والمكدودين . وقد كان الفقر والشقاء مخيمين على كثير من بلاد أوربا ، وخلقت النظم الصناعية المستحدثة وفرة من الشقاء والمرض والعوز والحرمان ، و برزت إلى الوجود مشاكل المساكن القذرة ، والأجور الضئيلة ، وساعات العمل الطويلة المضنية ، وتشغيل النساء والأطفال فى المصانع والمناجم . ولم يكترث أغلب الأغنياء بهذه المساوئ ، لأن المبادئ المسيحية الأولى كانت قد فترت فى القلوب ، وتضاءلت روح الأخوة بين الأغنياء والفقراء . ولكن هذه النهضة الروحية تخلق رجالا يتقدمون الصفوف لمكافحة هذه المساوئ الاجتماعية و إنارة أذهان الخاملين لرؤية ما حولهم من أسباب الظلم وألوان الألم ، و إيقاظ الضمائر لحمل المسئولية المشتركة فى الحياة . وبين الذين خلد التاريخ أسماءهم فى هذا الجهاد «تشارلس كنجزلى» الاشتراكى المسيحى ، وتشارلس بلاتر اليسوعى ، وكان بينهم شعراء مثل وليم بليك ، وروائيون مثل تشارلس دكنز ، ومشرعون مثل اللورد شافتسبرى ، ومجاهدون فى الظلام مثل وليم بوث مؤسس جيش الخلاص . . .

كل هؤلاء وغيرهم من أجناد النهضة الدينية — دبجوا المقالات ، ونظموا القصائد ، وسنّوا الشرائع ، وجاهدوا فى بؤر الظلام ومواطن الشقاء لاسعاف الفقراء والمظلومين والمعوزين الذين أحبهم الله ومات المسيح من أجلهم .

القرن العشرون

[مراحل الدعوة المسيحية — اكرى الأفريقى — إضطهاد الكنيسة فى العصر الحديث — إتحاد الكنيسة — كلمة ختامية].

اجتازت الدعوة المسيحية فى العشرين قرناً مراحل عدة ، سطرت فيها تاريخاً مجيداً رائعاً . ففى المرحلة الأولى نشطت فى حوض البحر الأبيض المتوسط حيث استوطنت أرقى الشعوب ثقافة وحضارة فى ذلك الزمن ، وكانت وسيلتها استمالة الأفراد وحداناً أو على الأكثر أُسراً بطريق الدعوة والاقناع ، فلما اشتد ساعد هذه الحركة وقوى نفوذها أقبل إليها الناس جماعات وشعوباً . وكان أوسع هذه الحركات نطاقاً القرار الذى أصدره الامبراطور قسطنطين فى القرن الرابع بجعل المسيحية ديناً رسمياً تسنده السلطات الرومانية .

أما المرحلة الثانية فهى التى تلى القرن الخامس والتى تميّزت بانضواء شعوب أوربا الشمالية تحت لواء المسيحية . وكان إقبال الناس فى هذه الحقبة جماعات لا وحداناً . وذلك لأن القبائل والشعوب كانت تتبع عادة حكامها وملوكها . فالشعب الانكليزى يسير وراء ملك «كنت» فى الجزر البريطانية ، كما يسير الروس وراء أميرهم فلاديمير . على أن كسب الشعوب جماعات لم يتم بالوسائل السياسية والبواعث العالمية المحض ، بل كان دائماً وراء هذه المساعى رهبان ومرسلون يبثون الدعوة ، ويهدون إلى الحق فى بذل كريم ومحبة سخية وتضحية بالغة .

أما المرحلة الثالثة فهى التى تقع بين سنة ١٥٠٠ م وسنة ١٨٠٠ م ، والواقع أن القرون الوسطى لم تبذل جهوداً لنشر المسيحية خارج أوربا ، ولكن فى

أواخر هذه الفترة انتشرت المسيحية على أيدى الفاتحين والمستكشفين من رحالة أوربا من أسبان و برتغاليين وغيرهم . وقد حمل هؤلاء المسيحية معهم إلى هنود أميركا ، والمستعمرات البرتغالية فى الهند وسيلان ، وجمهوريات أميركا الجنوبية ، وقامت بعثات اليسوعيين بنصيب مشكور فى هذه الفترة فى الصين والهند بين البراهمة والطبقات المثقفة .

أما المرحلة الحديثة فهى التى تقع فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وفى هذه الفترة اتخذت الدعوة مظاهر شتى وأساليب مختلفة ، ونشطت أعمال البعثات الدينية فى البلدان غير المسيحية فى أفريقية وآسيا ، وأقبلت إلى المسيحية جماعات كبيرة من الشعوب ذات الثقافة البدائية مثل سكان جزر الباسفيك والهند الشرقية والطبقات المنبوذة فى بلاد الهند والقبائل الأفريقية ، كما أقبل إليها الأفراد فى اعداد غفيرة فى اليابان والصين وكورية والهند ، وتأسست فى هاتيك البلاد كنائس وطنية مستقلة قامت هى أيضاً بنصيبها فى نشر الدعوة . وفى هذه المرحلة تعددت وجوه النشاط ، فأنشئت المدارس والكليات ودور نشر المؤلفات والملاجئ والمستشفيات للعناية بالنواحى الثقافية والعلاجية ، وينحو الاتجاه الحديث إلى التوسع لتشمل الرسالة المسيحية النواحى الاقتصادية والاجتماعية مثل تعليم الأميين القراءة والكتابة والاصلاح القروى ، وذلك لأن المسيحية لاتُعنى بنفس الانسان فقط ، بل تريده أن يتكامل فى شخصيته ، ليحيا حياة كريمة روحياً وجسدياً وعقلياً واجتماعياً .

وفى هذه المراحل كلها بذل ألوف من الدعاة والمرسلين أعز ما لديهم فى سبيل هذه القضية المقدسة ، ذكر التاريخ أشياء عن كثيرين منهم كما رأينا فى الفصول السابقة ، وجاهد غيرهم دون أن يسجل التاريخ أسماءهم .

***

فى القرن التاسع عشر انطلق المرسلون الأوربيون إلى كثير من رقاع العالم ، وسارت الحضارة الأوربية فى إثرهم إلى تلك الرقاع تحمل معها ما فيها من خير وما فيها من شر ، ومن المساوئ التى حملتها الحضارة الأوربية الخمور ، وبعض الأمراض الخبيثة ، وإعنات الرجال والنساء والأحداث بتشغيلهم فى المصانع

ساعات طويلة بأجور دون الكفاف . وفضلا عن هذا فان الشعوب التى اعتنقت المسيحية ونبذت تقاليدها الدينية القديمة ، نبذت معها أحياناً بعض ما كان حكيما وجميلا فى فنونها وآدابها القديمة ، وبعض طرائق الحياة السليمة التى تلائم بيئتها وأنظمتها (١). واستعاضوا عنها بعادات لم تكن تلائم أخلاقهم ومناخ بلادهم. وقد فطن عقلاء المرسلين وزعماء الشعوب إلى هذه المساوئ ، فراحوا يدعون إلى حضارة وعبادة مسيحية تبقى محتفظة بكل ما هو صالح محبب من عادات الشعب وتقاليده ، ويبنون الكنائس والمدارس على طراز الأبنية الوطنية على قدر المستطاع ، ويحيون الصناعات القديمة والأناشيد والألعاب القومية . فاستطاع المتنصرون الذين صاروا قسوساً ووعاظاً ومعلمين وأساقفة أن ينشروا الدعوة المسيحية ، لا بلغاتهم الوطنية وحسب ، بل بطرائق التفكير الخاصة التى يفهمها الشعب . فنرى فى بلاد الهند مثلا المتصوف الصادو سندر سنغ ، وهو من السيخ فى بلاد البنجاب ، ومن متخرجى كلية الدين فى لاهور ، يأبى أن يرسم قسيساً ، ويؤثر أن ينشر الدعوة بين قومه كـ «فقير» هندى ، يجوب البلاد بقدمين عاريتين ، وثوب زعفرانى ، يحمل كتاباً مقدساً ، ودثاراً يقيه قرص البرد ، ووعاء للاستجداء. وقد صار الرجل قوة هائلة فى بلاد الهند وفى غيرها من البلدان . ونرى غيره من المتنصرين الوطنيين يبذلون حياتهم فى سبيل مكافحة المساوئ التى حملتها حضارة الغرب : ففى أفريقية يفلح الزعيم «كاما» فى إبطال تجارة الخمور فى إقليمه ، وفى بلاد الصين يخترع القسيس «هيسى» حبوباً تخفف اللوعة التى يحسُّ به مدمن الأفيون ويفتدى بعلاجه وصلواته ومثال حياته الطاهرة حياة المدمنين من مواطنيه . وفى اليابان يكافح الزعيم كاجاوا لوثات الأحياء القذرة ، والمساكن الحقيرة ، وأسباب العيش الذليلة .

ذكرى الأفريقى :

وأحياناً يخلق هذا الوعى القومى شيئاً من الكراهية للأجناس الأخرى التى

---

(١) فى بعض القبائل البدائية كان ارتداء الملابس الثقيلة مدعاة لاعتلال صحة الشعب لعدم تعوده عليها .

تختلف فى اللون . وفى أواخر القرن التاسع عشر يولد فى القارة السوداء أفريقية رجل قدّر له فيما بعد أن يوقف حياته لتوطيد أسباب الثقة وحسن التفاهم بين البيض فى أميركا و بريطانيا ، وبين الأجناس السوداء فى أفريقية . واسم هذا الرجل «جيمس اكرى» ، وهو أفريقى من ساحل الذهب .

كان اكرى أفريقياً قحاً ، أسود البشرة فاحمها ، له شعر أكث ، وأسنان بيضاء ، وعينان واسعتان . وكانت عنصريته مثار فخاره وكبريائه ، أحبّ الخصال الكريمة فى شعبه ، وأُعجب بما جبل عليه قومه من قوة الصبر والاحتمال ، ومضاء الذاكرة ، وروعة الخيال ، ووقدة العاطفة ، وسرعة البديهة ، وعذوبة الفكاهة .

واعتنقت أسرته الدين المسيحى وهو بعد صبى فى الثامنة من عمره بفضل جهود البعثات الدينية . وأدخل المدرسة ، فما بلغ الخامسة عشرة حتى كان معلماً فى مدرسة ريفية تبعد عشرين ميلا عن مسقط رأسه ، وفى الثالثة والعشرين كنت تراه ناظر مدرسة تديرها مرسلية مسيحية ، وفى الوقت عينه يعدُّ نفسه ويروضها للخدمة الدينية . ثم يرحل من أفريقية إلى أميركا ليلتحق باحدى الجامعات ، ويحصل على نفقات معيشته بواسطة التعليم وتصحيح مسودات المطابع فى ساعات الفراغ . وبعد أن يحصل على درجة الأستاذية والدكتوراه يرسم قسيساً فى الكنيسة المثودية .

وهناك فى أميركا يُعهد إليه برعاية كنيستين من كنائس الزنوج ، وهناك راح يفهم مشاكل السود ويتأهب لعلاجها . وقد كانت الجماعات التى تولى رعايتها فقيرة ، وقد كره البيض هؤلاء السود واحتقروهم . فعول اكرى على أن يمدّ لهم يد العطف والاسعاف ، فلم يكتف بوعظهم و إرشادهم ، بل علمهم كيف يربون الدواجن ويبيعون البيض فتحسنت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

ولم تقف جهود اكرى عند هذا الحد . فان محبته لشعبه وبنى قومه ، ومحبته للبيض الذين حملوا إليه رسالة الانجيل وتعهدوه بالتثقيف والتهذيب ، و إيمانه المسيحى الحق ، وعقليته الناضجة — كل هذه استرعت أنظار ذوى النفوذ والسلطان ، فلما تقرر إيفاد بعثة فنية لدراسة أحوال التربية والتعليم فى أفريقية ، دُعى اكرى للانضمام إلى تلك البعثة .

والآن تسنح الفرصة لكى يخدم شعبه . ولكنه يواجه صعوبات عنيفة ، ويجد البيض فى أفريقية يحتقرون السود ، والسود يكرهون البيض . وقد عومل هو نفسه معاملة تنمُّ عن الازدراء بسبب بشرته السوداء ، فلم يسمح له بالنزول فى الفنادق التى ينزل فيها البيض ، ولا يسافر فى العربات التى يسافرون بها . على أنه كان غيوراً مخلصاً لعمله فلم يمتعض ، وكان كبير القلب فلم تجرحه هذه الاهانات الهينة . وحينما كان يُنتهر ويُزجر ، كان يضحك بملء قلبه . وحينما كان يُكشر فى وجهه كان يفتُّر ثغره عن ابتسامة حلوة ، مقتفياً فى ذلك خطى سيّده . وكثيراً ما كان يتحدث إلى سامعيه بعبارات تمثيلية وأسلوب روائى يأخذ بمجامع القلوب .

وحينما كان يجد البيض والسود يتشاحنون ، كان يقول لهم : «فى وسعكم أن تلعبوا ألحاناً معينة على الأعواد البيضاء فى البيان ، وفى وسعكم أن تلعبوا ألحاناً أخرى على الأعواد السوداء . أما اللحن المنسجم الرائع فلن يمكن إخراجه إلا باللعب على الأعواد السوداء والبيضاء معاً» .

ولقد قطع اكرى أميالا كثيرة فى أفريقية مخلفاً وراءه أنّى ذهب صداقة محببة وحماساً متضرماً . وألح على الكنيسة المسيحية أن تجعل أفريقية «القارة المسيحية الأولى» وأن تقدم لبنى قومه تعليما يهيئ الأخلاق المسيحية والعلوم العقلية معاً ، ويعلم الشعب الزراعة والحبر معاً ، ويزود الأفريقى بكل ما هو جميل من علوم الغرب مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بالجميل الحسن فى الحياة والأخلاق الأفريقية .

وفى ذلك الوقت كانت تسرى فى أرجاء القارة حركة تعليمية ناشطة ، وقبل أن يبدأ اكرى مهمته فى البعثة ، كان حاكم ساحل الذهب قد قرر إنشاء كلية أفريقية لأبناء القارة ، تتولى تهذيبهم وتعليمهم من رياض الأطفال إلى الطور الجامعى ، على أن تكون الكلية مستقلة عن كل رقابة حكومية ، وأن يكون مدرسوها وأساتذتها من البيض والسود ، من الرجال والنساء ، الذين يعرفون لغات الشعب وعاداته . وقد دُعى اكرى ليشغل وظيفة نائب الرئيس فى الكلية الجديدة .

وبينما كانت تبنى كلية أشيموتا (كما سُمّيت) ، كان اكرى يطوف أرجاء

أفريقية يحدث الناس عنها ويبث الحماس فى نفوس مواطنيه . وفى سنة ١٩٢٧ م افتتحت الكلية الجديدة ، وقد اجتمع ألفان من الخلق فى قاعتها الكبرى وأربعة آلاف فى الخارج . وكنت ترى فى هذا الحشد الهائل أربعين من زعماء القبائل الأفريقيين فى ثيابهم الرسمية ، والعمال والفلاحين والحضريين والنساء والأطفال ، والبيض والسود ، والأوربيين والأفريقيين ، يقف بعضهم إلى جانب بعض ، وقد ارتسمت على وجوههم أمائر البشر والاغتباط وهم يرون هذه المغامرة الجريئة التى يقوم بها المسيحيون .

وكانت أروع ساعة فى حياة ذلك البطل الأفريقى المسيحى ، تلك التى وقف فيها فى الفضاء الفسيح فوق سفح التّل ، وسرح بأبصاره فى أبنية كلية أشيموتا الجميلة الفخمة وملاعبها الحديثة وملحقاتها الكثيرة . وقد قرَّ عيناً أن يرى مواطنيه من شباب أفريقية يتعلمون أن يكونوا زعماء وقساوسة لشعوبهم ، ويعيشوا مواطنين مسيحيين فى أفريقية الجديدة .

كان فى أشيموتا صديقاً للسود والبيض ، كان مواطناً كريماً ، وطنه العالم كله .

على أنه فى سنة ١٩٢٨ م يموت موتاً فجائياً ، فتبكيه قارات ثلاث : فى أميركا يحمل المواطنون البيض «بساط الرحمة» فى جنازته ، وفى أشيموتا يجتمع خلق كثير من كل الأجناس فى صلاة تذكارية تكريماً له واعترافاً بفضله ، وفى لندن ينشد طالب أفريقى فى كنيسة انكليزية مرثاة يشيد فيها بعمله ويستودع روحه إلى خالقها .

اضطهاد الكنيسة فى العصر الحديث :

واجب مفروض على كل مسيحى أن يخصّ كنيسته الجامعة بالقسط الأوفر من ولائه ، بحيث يجعل مطالبها فوق مطالب الأسرة ، أو الأصدقاء ، أو العصبية ، أو الوطن . فالرسل الأولون عانوا أمر صنوف الاضطهاد بسبب دعوتهم أن ليس فى المسيح يهودى ولا يونانى . واستشهدت زُمر من المؤمنين الأولين لكى يثبتوا للعالم أن ملك المسيح يعلو على ملك قيصر . ومنذ ذلك الحين آثر كثيرون من المسيحيين

فى كل بلد وفى كل عصر، بذل الحياة رخيصة على الايمان باله لايعرفونه فى المسيح، أو الخضوع لحاكم أرضى ظالم متعنت يأبى عليهم عبادة ربهم كرماء أحراراً. وقصة الشهداء لم تنته بعد. ففى المائة سنة الأخيرة، وفى جيلنا هذا، ختم أناس شهادتهم بدم الاستشهاد.

فى عصرنا هذا — وفى القرن العشرين — عانت الكنيسة صنوفاً من الاضطهاد ولكن حوادث الدهر لم تفتّ فى عضدها، ومظالم الطغاة لم تقوَ على صرعها. ولقد حاولت السلطات فى إيطاليا فى العهد الفاشستى أن تخضع الكنيسة لسلطانها، وأن تتدخل فى التعليم الدينى، ولكنها باءت بالخيبة والفشل. وفى ألمانيا حاول النازيون أن يجعلوا من الكنيسة مؤسسة تعبد العنصرية الجرمانية بدل المسيح ربّ الشعوب كلها، ولكن المؤمنين ثاروا واعترضوا. كُمّت أفواه رجال الدين، وحظرت الاجتماعات الدينية، وعطلت الصحف والمجلات، فما أجدى هذا شيئاً. وكان لهذا الاضطهاد أثره فى توحيد كلمة الطوائف والكنائس المسيحية وإصدار قرار مؤداه أن الكنيسة المسيحية خُلقت لحمل رسالة الانجيل إلى كل شعوب الأرض، فلا يمكن أن تكون أداة لخدمة أمة من الامم أو حكومة من الحكومات. وآثر كثيرون من الزعماء السجن والتشريد ومعسكرات الاعتقال على الاستكانة والخنوع.

وأشد اضطهاد فى عصرنا الحديث هو الذى عانته الكنيسة فى عهد الثورة الروسية. وقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية متصلة بالدولة فى العهد القيصرى، وباتت مستعبدة لمشيئة الحكام الذين كانوا فى أكثر الأحيان أشراراً أردياء، وعبث بها القياصرة، وكان اختيار الأساقفة قبل عهد الثورة خاضعاً لرغبة الراهب الخبيث راسبوتين صاحب النفوذ القوى فى البلاط القيصرى. وقد مقت بعض رجال الدين حكم القياصرة، ورحبوا بالثورة، وخيّل إليهم فى بادئ الأمر أن العهد الجديد سيضع الأمور فى نصابها. فانتخب بطريرك جديد يدعى تيخون، وسلمت إليه مقاليد السلطة الكنسية مع السنودس، وأبى كل الآباء أن يتورط فى السياسة، ونصح مواطنيه أن يطيعوا الحكومة ما بقيت حريصة على الايمان القويم وحرية الضمير. ولكنه فى جسارة وجرأة ندد بأعمال الحكومة حين رآها تقتل المئات من الأبرياء.

عندئذ راح البلاشفة يعاقبون القسوس بسبب عطفهم على أعداء الثورة ، ويقتلونهم لمجرد إعطائهم البركة للجيوش المناهضة للثائرين . وبعد ذلك راحوا يضطهدون المسيحيين لأنهم مسيحيون . وفى سنة ١٩١٨م جردوا الكنائس من جميع ممتلكاتها وثرواتها وحتى من آنيتها المقدسة ، وأحالوا الأديرة متاحف ، وأبنية الكنائس فنادق ومطاعم ومسارح وصالات رقص . وحظر على المسيحيين أن يطبعوا كتبهم أو يعلموا دينهم فى المدارس . وفى سنة ١٩٢٢ م سارت مواكب رهيبة فى شوارع موسكو وغيرها من المدن تحمل أشكالا مستهجنة مزرية ازدراءً بالمسيح وبرجال الكنيسة وزعماء الأديان الأخرى .

وفى سنة ١٩٢٣م حكم على بعض الأساقفة بالموت ، وعلى البعض الآخر بالنفى والتشريد ، وأنشئت جمعية إلحادية لاستئصال الدين من قلوب وعقول الشعب الروسى .

ومن أركان تلك البلاد المظلمة الرهيبة رُويت الأقاصيص الأخاذة عن آلام المسيحيين فى روسيا واستبسالهم . وتراءت الأنباء إلى الخارج بأنه فى وسط هذه الظلمة المدلهمة استطاع الرجال والنساء أن يفتحوا الكنائس ، ويهرِّبوا الدقيق الأبيض — وهم أنفسهم جياع — لصنع القربان المقدس . وسمعنا عن المنفيين فى أقاصى سيبريا يمارسون شعائر دينهم ، وقيل ان كاهناً شيخاً قبض عليه الجنود الحمر ؛ وسألوه عن علة شجاعته وبسالته أمام التعذيب والموت فأجاب: «إن القوة التى فينا من الله . والاستشهاد زهرة جديدة فى تاج المسيح» . وروى عن فريق من المتدينين كانوا مسوقين إلى المنفى وهم يحملون الشموع كأنهم فى عيد ، ويهزجون بأناشيد دينية قديمة تشيد بقوة المسيح المقام على الموت والهاوية . . .

فهل استطاعت البلشفية القاسية أن تنتزع من قلب الشعب الروسى إيمانه القديم ؟ إنها لم تفلح واضطرت الدولة أن تمنح الكنيسة فى السنوات المتأخرة بعض حريتها المسلوبة وحقوقها المغتصبة ، ذلك لأن من طبيعة الاضطهاد فى كل العصور أن ينقى الكنيسة المسيحية من أدرانها ، ويشد قوتها ، ويحفز همة المتقاعسين من أبنائها .

اتحاد الكنيسة :

رأينا الانقسام يطل بقرنيه فى الكنيسة منذ العصور الأولى . وكان مردّ هذا أحياناً إلى سوء الفهم الذى خلقه تباين اللغات بين الشعوب التى دانت بالمسيحية ، وإلى التحاسد العنصرى ، وإلى الاضطرابات السياسية . ولكن كان مردّه فى أحيان أخرى إلى عقائد متأصلة فى النفوس . وإلى خلاف فى الرأى بين المسيحيين . ولقد أحست طوائف من الناس أن وصايا ربنا قد خولفت ، وتعاليمه أُفسدت ، وكنيسته أُهينت ، فآثروا الانفصال عن إخوانهم ومعاناة الألم والعراك على البقاء معهم وهم على تلك الحال . ولقد كان الانقسام بين المسيحيين داخل الكنيسة الواحدة حادثاً بشعاً يؤسف له ، على أننا لا ننكر أنه كان أحياناً وراء تلك المنازعات القديمة والاضطهادات الطائفية القاسية شىء كثير من المثل العليا النبيلة ، والبسالة الخالصة الحقة .

وقد بدأ الانقسام فى تاريخ مبكر يرجع إلى القرن الثانى ، ثم بعد قرون انفصلت الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية ، وانفصلت جماعات أخرى عن الكنيسة الشرقية . ويعد هذا تنشق الكنائس اللوثرية والمصلحة والكنيسة الانكليزية عن الكنيسة الكاثوليكية . ويعقب هذا انقسام الكنائس اللوثرية والمصلحة على ذاتها وتعددها شيعاً وطوائف . . .

ولكن فى هذا القرن الأخير تمتلئ نفوس المسيحيين بالخجل والخزى من جراء هذا الانقسام التعس ، ويبدو قوياً روح التعاطف والتفاهم بين الطوائف . ولقد شاهدنا فى بلدان كثيرة جماعات المسيحيين تتضامّ وتتحد أمام الخطر الذى تستهدف له من الحكومات أو الدول غير المسيحية ، وتتكتل للمحافظة على حقوقها وحريتها . وفى العالم اليوم كثيرون يرفعون الأدعية لله لحلول اليوم الذى يتحد فيه المسيحيون فى كنيسة مقدسة جامعة رسولية .

وقد تبدت روح الوئام بطرق وأساليب شتى . فالمسيحيون من مختلف الطوائف يعملون معاً فى تعاون ومؤازرة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا فى نواحى النشاط الاجتماعية والدينية . وفى أواخر القرن التاسع عشر نهضت جمعية بين الطلبة هى

«حركة الطلاب المسيحية Student Christian Movement» فى انكلترا وأميركا ، وهى تضم مندوبين من أكثر من أربعين مملكة فى العالم ، يعملون لتوطيد أواصر الصداقة والتفاهم والتعاون بين الكنائس . وفى سنة ١٩٠٦ م أنشئ المجلس المتحد للتهذيب المسيحى ، وفى سنة ١٩١٠ م انعقد مؤتمر المرسليات الدولى فى أدنبرة ، وتمخض هذا المؤتمر عن تشكيل المجلس الدولى للمرسليات المسيحية . الذى عقد فى سنة ١٩٢٨ فى مدينة القدس فى قصره أعاره بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وقد حضره مندوبون من إحدى وخمسين دولة بينهم كثيرون من كنائس آسيا وأفريقية ، ومرة أخرى فى مدراس من أعمال بلاد الهند فى سنة ١٩٣٨ — وإلى جانب اتحاد المرسليات المسيحية نهضت حركة اتحاد الكنائس ذاتها ففى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر مسكوفى للكنائس المسيحية فى مدينة استكهولم عاصمة السويد لمعالجة المشاكل العملية فى حياة الكنيسة فى العالم كله . ثم مؤتمر آخر فى سنة ١٩٢٧ فى مدينة لوزان لمعالجة مشاكل الايمان والعقائد . وفى سنة ١٩٣٧ عقد مؤتمر فى أكسفورد ، وفى السنة عينها مؤتمر آخر فى أدنبره . وتمخض المؤتمران عن تشكيل الهيئة العالمية الدولية للكنيسة المسيحية ، وقد عقدت أولى مجتمعاتها فى مدينة أمستردام فى صيف سنة ١٩٤٨ م .

وفى جميع هذه المؤتمرات الدولية يشرح المسيحيون على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وجهات نظرهم ، وينعون بقلوب مخلصة أى انقسام أو انشقاق فى الكنيسة الواحدة .

وقد تم فعلا الاتحاد بين بعض أفرع الكنيسة ، وخاصة الطوائف البروتستانتية ، وتضامنت طوائف أخرى لتكون كنيسة واحدة ، كما حدث فى سنة ١٩٤٨ م فى جنوب الهند يوم اتحدت الكنائس الأسقفية والكنائس الحرة واندمجت لتكون كنيسة هندية واحدة .

على أنه ما يزال أمام الكنيسة المسيحية مرحلة طويلة يجب أن تقطعها قبل أن تزول كل أسباب الفرقة والانقسام ، وتبلغ الهدف الذى تهفو إليه نفس كل مسيحى صادق فى رؤية الكنيسة الجامعة الواحدة كما أرادها أن تكون ربها وسيدها .

كلمة ختامية :

وها نحن شارفنا على نهاية القصة التى لم تنته بعد ، قصة الكنيسة المسيحية التى تشبه مشهداً عاماً ، فيه أنوار وفيه ظلال ، يأخذنا تارة إلى ذروة النصر والكمال ، ويهوى بنا أخرى إلى حضيض الخيبة والفشل ، يطلعنا يوماً على اتحاد رائع مكين ، ويصور لنا يوماً انقساماً ممقوتاً تعيساً . ولكن فى جميع هذه المناظر المتقلبة قد أفلحت ، بما انطوت عليه من قوة إلهية ، أن تجدد حياة الناس ، وأن تروض الطبيعة البشرية الجامحة . وهى فى هذا الجيل تواجه الفلسفة المادية ، والحضارة العالمية ، وألواناً من الاعنات بأساليب ماكرة خفية — بالعزيمة عينها التى واجهت بها قوات الشر فى تاريخها الماضى الطويل . والقصة التى رويناها الآن تؤيد لنا أن المستقبل لها ، وان حقها سيصرع باطل العالم . وقد يكون الصراع عنيفاً والعراك قاسياً ، ولكن يد الله التى ناصرتها فى العشرين قرناً المنصرمة ، ستدفعها قوية جارفة لتأسيس ملكوت الله على الأرض وتكميل مواعيده ونبواته .

ولقد شهدنا فى سير بعض الشخصيات البارزة كيف أنفق صنوف من الناس قواهم وملكاتهم وحياتهم فى خدمة الكنيسة ، شهدنا رجال الدين والعلماء ، والملوك والفرسان ، والدعاة والكتّاب ، والأطباء والشهداء — كلٌّ منهم يؤدى رسالته على طريقته الخاصة .

ونحن نعيش اليوم فى أوقات عصيبة خطيرة يفتقر فيها العالم إلى خدمة مسيحية من كل صنوف الناس — من القسوس والعلماء ، من الحكام ورجال الاقتصاد ، من الفلاحين والعمال ، من أهل الفن ورجال العلم ، من الأطباء والمهندسين — من كل مهنة أو حرفة ، لخدمة الكنيسة وتكميل مشيئة الله على الأرض . وإن زاد حلك الظلام وتفاقم الشر والخطر ، فان الكنيسة تفتقر أيضاً إلى الشهداء لتجديد حياتها وإذكاء حيويتها .

والعظماء الذين أتينا على ذكرهم فى سرد هذه القصة أنجبتهم طوائف مختلفة ، ولكن ظلهم كلهم تحلم الكنيسة الواحدة ، التى تدين بالطاعة والولاء لربها الواحد وسيدها الواحد ، وان اختلف الأتباع فى التفكير والتأويل . وإنها

لأمنية عزيزة تجيش فى صدر مؤلف هذا الكتاب أن يحبّ كل قارئ الطائفة التى ينتمى إليها و يخدمها ويكرمها . ولكن أعز أمانيه وأقدسها وأحبّها إلى نفسه أن يخدم القارئ الكريم الكنيسة الجامعة التى سلخت من العمر عشرين قرناً ، وأن يحيا ويفكر ويعمل لكى تمحى كل أسباب الخلاف بين الطوائف المسيحية ، فيتقدم الشعب المسيحى كله بقلب واحد ، وبايمان وشجاعة ، ويسير فى موكب التاريخ ، رافعاً علم الجهاد ، واثقاً بأن المستقبل للمجاهدين المتّقين .

مصادر الكتاب

Short History of the Christian Church, C.P.S. Clarke.

A First Church History, Vera E. Walker.

The First Five Centuries of the Church, James Mofatt.

A History of the Christian Church. W. Walker.

Qutlines of Church History, Rudolf Sohm.

A History of the Medieval Church, M. Deanesly.

The Churches of Eastern Christendom, B. J. Kidd.

الدرر النفيسة فى مختصر تاريخ الكنيسة ، أغناطيوس افرام الأول برصوم .

مجلدات مجلة «الشرق والغرب».

مطبعة الكتاب العصرى شركة مساهمة مصرية

10000087880

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

main
0000000087880
BX 133.2 S2x
31 DEC 1988